



lisanarabs.blogspot.com

الدكتور أَحمد جَمِيل شَامي

دكتور فئة أولى في الآداب

أستاذ العلوم اللغوية في الجامعة اللبنانية



النحو العربي

قضايا ومراحل تطوره



عَتْزَ الظَّيْن

لِلطبَّاعةِ والَاكْتُشَارِ

دار الحضارة

لِلطبَّاعةِ والَاكْتُشَارِ



lisanarabs.blogspot.com

٥٩٥٢٨

المركز الإسلامي للثقافى
مكتبة شرحة آية الله المطهر
السيد محمد حسين فضل الله العامة
الرقم: ٦١٢٩٩

النحو العربي

قضايا ومراحل تطوره

تأليف

الدكتور أَحمد جَمِيل شَامي
دكتور فئة أولى في الآداب
أستاذ العلوم اللغوية في الجامعة اللبنانية



عُشِّيزُ الطَّيْبِين

طبعة واثنتين

دار الحضارة
لطباعة والنشر



جميع الحقوق محفوظة
١٤١٨ - ١٩٩٧



دار الحصَّارة
للطباعة والنشر

مؤسسة عِزَّ الْتِيزِ
للطباعة والنشر

هاتف: ٠٠٩٦١ - ٨٢٠٣٧٨ - ٨٢١٨٤٣ - خليوي ٠٦٩٨١٢١ - ٣ - ٢١٨٩٠٦

فاكس: ٠٠٩ - ١ - ٨٦٢٠٥١

بنية لاند تر ايد - بيش حسن - ص.ب: ١٣/٥٢٥١ - بيروت - لبنان

المقدمة

يتناول هذا الكتاب موضوع (النحو العربي) الذي يمثل أقوى المركبات، وأهم الدعائم والأسس التي تقوم عليها علوم اللسان العربي، من لغة وبيان وأدب، ولا بد من معرفته لمن أراد التبحُّر في أي علم من العلوم، وبخاصة علم الشريعة فيها^(١).

ومن دون النحو تفسد اللغة وتتغلق على الأفهام. وذِكْرُ أنه أهم من اللغة^(٢):

ومن هنا نستطيع القول: إنه لا عجب أن يحتلَّ هذا العلم مرتبة عالية، ومكانة مرموقة بين علوم اللسان العربي.

وانطلاقاً من هذه المكانة الخاصة بالنحو، رأينا أنه لا بد من كشف ملابسات كنا قد لا حظناها خلال تدريسنا هذه المادة في المرحلة الجامعية، ذلك أنَّ القدامى والمحدثين عرضاً هذه القضايا، وعالجوها من دون أن تنجلِّي حقيقتها على ما يبدوا؛ ما حداها على تسلیط الضوء عليها، وإعادة النظر فيها من حديد، لكشف ماهية النحو العربي بصورة أوضح وأدق، وتحديد زمان انبعاث هذا العلم، وبيان عوامل هذا الانبعاث التي عجلت في ظهوره، ومعرفة مؤسسه، وإدراك أصله، وتعيين مظاهر تطوره، والداعي التي ساهمت في هذا التطور عبر مراحل ظهر فيها ونشأ، حتى بلغ هذا المستوى الرائق من التقنيين والتقييد، مع الإشارة إلى ما رافق هذا التطور من نشاط حديث متواصل، ومنافسة حادة بين النحويين، مكتنthem من إنشاء مدارس ذاع صيتها، فامتازت بتبان المذاهب، وتغاير الإتجاهات واختلاف المرامي والأهداف، لعلنا ندرك من خلال ازدهار هذا

(١) معرفة اللغة والبيان والأدب ضرورية لأهل الشريعة أيضاً، ذلك أنَّ معرفة الأحكام الشرعية كلها من الكتاب والسنَّة، وهي بلغة العرب، ونقلتها من الصحابة والتابعين عرب، وشرح مشكلاتها من لغتهم. راجع (المقدمة) لابن خلدون، ص ١٠٥٥.

(٢) ابن خلدون، عبد الرحمن: المقدمة، ص ١٠٥٥.

سُفت^(١) كلام العرب في تصرفه من إعراب وغيره، كالثنية، والجمع، والتكسير، والإضافة، والتسب، والتركيب وغير ذلك، ليتحقق مَنْ ليس من أهل اللغة العربية بأهلها في الفصاحة، فينطق بها، وإن لم يكن منهم، وإن شد بعضهم عنها ردة به إليها. وهو في الأصل مصدر شائع، أي نَحَّوت نحواً، كقولك: قصدت قصداً، ثم خُصّ به انتفاء هذا القبيل من العلم، كما أنَّ الفقه، في الأصل، مصدر فقهت الشيء؛ أي: عرفته، ثم خُصّ به علم الشريعة من التحليل والتحريم. وكما أنَّ بيت الله خُصّ به الكعبة، وإن كانت البيوت كلها لِلله. وله نظائر في قصر ما كان شأنه في جسمه على أحد أنواعه. وقد استعمله العرب ظرفاً، وأصله المصدر»^(٢).

ويبدو تأثير ابن جني واضحًا في ما نقله ابن منظور^(٣) عن الأزهري^(٤) حول حد النحو لغةً واصطلاحاً، إذ إنَّ هذا العلم، عند صاحب اللسان، هو القصد والطريق. ويكون ظرفاً ويكون اسمًا. يقال: نحوه ينحوه، وينحاه نحواً وانتفاء. هذا من حيث اللغة. أما من حيث الإصطلاح، فهو إعراب الكلام العربي.

وبصورة أوضح يقوم نحو ابن منظور على الأمور الآتية:

- أ - النحو هو انتفاء سمت كلام العرب في تصرفه من إعراب وغيره. ومن ثم تسير على طريقتهم وستهم في الكلام.
- ب - إشارة ابن منظور إلى موضوعات النحو التي منها الثنوية، والجمع، والتخصير، والتكسير، والإضافة، والتسب والتركيب.
- ج - الغرض من معرفة علم النحو لحاق مَنْ ليس من أهل العربية بأهلها في الفصاحة، وإن أخطأ ردة بقواعد اللغة إليها.

= من مصنفاته: *الخصائص في النحو*، سر صناعة الإعراب وشرع الفصحى. هو نحوي بغدادي. ولد قبل الثلاثين وثلاثمائة، وتوفي سنة ٣٩٢ هـ السيوطي: بغية الوعاء، ج ٢ ص ١٣٢..

(١) سُفت: أي الطريق. البستانى، بطرس: محيط المحيط، مادة (س م ت).

(٢) ابن جني: *الخصائص*، ج ١، ص ٣٤.

(٣) هو محمد بن مكرم بن علي، أبو الفضل، جمال الدين ابن منظور الأنباري، صاحب (*السان العربي*): كان إماماً لغويَاً. ولد بمصر. وخدم في ديوان الإنshaw بالقاهرة ثم ولني القضاة في طرابلس. وترك بخطه نحو خمسة مجلدات. توفي سنة ٧١١ هـ / ١٣١١ م.

(٤) هو خالد بن عبد الله بن أبي بكر الجرجاوي الأزهري. كان نحوياً من أهل مصر. له (*المقدمة الأزهرية في علم العربية*) و (*موصل الطلاب إلى قواعد الإعراب*) و (*التصريح بمضمون التوضيح*). توفي سنة ٩٠٥ هـ / ١٤٩٩ م. الزركلي: *الأعلام*، ج ١، ص ٢٩٧.

د - أصل الكلمة نحو أنه مصدر عام من نحو نحوا ثم تحول إلى المعنى الإصطلاحي أي: الإعراب. وبهذا يرادف النحو الإعراب أي: هو بمعنىه ومقابلته البناء وذكر ابن منظور أنَّ (النحو) سُمِّيَ من النحو؛ لأنَّ يعزف الكلام إلى وجوه الإعراب^(١).

ويبدو أنَّ نحو ابن جني وابن منظور يحمل المعنى القديم الذي يشتمل على الإعراب الذي هو أثر يتركه العامل في أواخر الكلمات، ويتغير بتغيير العامل^(٢)، والصرف الذي يتناول بنية الكلمة كالتصغير والتكسير والنسب وغير ذلك من موضوعات علم التصريف^(٣).

وأوجز ابن عصفور تعريفه للنحو بأنه علم بالمقاييس المستنبطة من كلام العرب الفصحاء^(٤):

هذه هي معاني النحو عند ابن جني وابن منظور وابن عصفور. فهي في غالبيتها متطابقة وموজزة، لكن معاني هذا العلم عند السيرافي^(٥) كثيرة وتتناول الأمور الآتية:

- أ - العلاقة بين حركات اللفظ وسكناته.
- ب - وضع الحروف في مواضعها المناسبة.
- ج - نظام الكلام وتأليفه بالتقديم والتأخير.
- د - إدراك الصواب وتجنب الخطأ.

«إن زاغ شيء عن هذا النعت فإنه لا يخلو من أن يكون سائغاً بالاستعمال البادر والتأويل البعيد، أو مردداً بخوجه من عادة القوم الجارية على نظرتهم. فاما ما يتعلق باختلاف لغات القبائل، فذلك الشيء مسلم لهم وأخذوا عنهـمـ وكل ذلك محضور بالتتبع والسماع والقياس المطرد على الأصل المعروف من غير تحريف»^(٦).

(١) ابن منظور: لسان العرب، مادة (ن ح و).

(٢) ابن هشام الأنصاري: شرح شذور الشعب، ص ٣٣.

(٣) الأشموني: شرح الأشموني، ج ٣، ص ٧٧٩.

(٤) ابن عصفور: المقرب، ج ١، ص ٤٥.

(٥) هو الحسن بن عبد الله بن المرزيبان القاضي أبو سعيد النحوي. قيل: إنه شيخ الشيخوخ وإمام الأئمة معرفة بالنحو والفقه واللغة والشعر والعروض والقوافي والقرآن. من تصانيفه (شرح كتاب سيبويه). توفي سنة ٣٦٨ هـ. السيوطي: بغية الوعاة، ج ١، ص ٥٠٧ - ٥٠٩.

(٦) أبو حيان التوحيدي: الإنعام والمؤانة، ص ١٢١.

نتوصل، بعد هذا العرض للتعريفات، إلى نتيجة مفادها أن النحو العربي لغة، هو القصد والطريق والجانب والمقدار والمثلث: ويكون ظرفاً واسماً وجمعه أنحاء وثُخُونَةً وثِيَّةً: أما اصطلاحاً، فهو علم بأصول، نعرف به أحوال أو آخر الكلمة المعربة والمبنية، وموضوعُ اللفظ العربي مفرداً ومركباً. والغرض منه استهداف الصواب، وتوجُّب الخطأ في الكتابة والتعبير. ويتوخى منه أيضاً الإقتدار على فهمه والإفهام به.

سبب تسميه نحواً:

كان يطلق على هذا العلم، في عهد أبي الأسود الدؤلي، اسم العربية^(١). أما تسميته بالنحو، فكانت بعد عصر أبي الأسود، إذ آثر العلماء هذه التسمية استبقاء لكلمة الإمام علي عليه السلام التي كان يراد بها أحد المعاني اللغوية، من خلال الرواية التي تنص على أن أبو الأسود عرض على الإمام علي عليه السلام ما وضعه من بابي العطف والنعت، ثم بابي التعجب والاستفهام، إلى أن وصل إلى باب (إن وأخواتها) ما خلا (لكن). فلما عرضها على علي عليه السلام أمره الإمام بضم (لكن) إليها. وكان أبو الأسود، كلما وضع باباً من أبواب النحو، عرضها على (علي عليه السلام) إلى أن حصل على ما فيه الكفاية، فأمره الإمام علي عليه السلام بقوله: «ما أحسن هذا النحو الذي قد تجَّوَّتْ»^(٢).

لكن الزجاجي علل تسمية هذا العلم نحواً، مستنداً إلى ما نقل عن أبي الأسود الدؤلي، وما رأه من تفسير اللحن من المولدين وأبناء العجم، وفساد السنة بعض الخاصة وعدد كبير من عامة العرب؛ وهذا يعني أن الزجاجي يعزّو سبب نشأة النحو إلى أبي الأسود وليس لعلي عليه السلام؛ ما يظهر أن العلماء آثروا هذه التسمية استبقاء لكلمة أبي الأسود التي كان يراد بها أحد المعاني اللغوية، وهو القصد.

وفي هذا الشأن يقول الزجاجي^(٣) مجيباً من يسأل عن علة تسمية هذا النوع من العلم نحواً: «إن سأله سائل فقال: والسبب في تسمية هذا النوع من العلم نحواً، ولم حُكِّمْ به؟ قيل له: السبب في ذلك ما حكى عن أبي الأسود أنه لما

(١) السيرافي، الحسن بن عبد الله: أخبار النحوين البصريين، ص ١٧.

(٢) ابن الأباري، عبد الرحمن: نزهة الأناء في طبقات الأدباء ص ١٨ - ١٩.

(٣) هو عبد الرحمن بن إسحاق أبو القاسم الزجاجي. ثُبٰ إلى شيخه الزجاج أصله من صimir. من مصنفاته (الجمل) و (الأيضاح) و (الأمثال) توفي ٣٣٩ هـ. السيوطي: بغية الوعاء، ج ٢، ص ٧٧.

يُسْعِي كلام المولدين بالبصرة من أبناء العرب، أنكر ما يأتون به من اللحن لمشاهدتهم الحاضرة وأبناء العجم، وأنّ ابنة له قالت له ذات يوم: يا أبتي ما أشد الحر. فقال لها: الرمضان في الهاجرة يا بنتي. . فقالت له: لم أسألك عن هذا، إنما تعجبت من شدة الحر. فقال لها: فقولني إذاً ما أشدّ الحر، ثم قال: إثنا الله، فسدت السنة أولادنا. وهم أن يضع كتاباً يجمع فيه أصول العربية، فمنعه من ذلك زياد، وقال: لا نؤمن أن يتکل الناس عليه، ويتركوا اللغة وأخذ الفصاحة من أفراد العرب، إلى أن فشا اللحن وكثير وقبح، فأمره أن يفعل ما كان نهاء عنه؛ فوضع كتاباً فيه جمل العربية، ثم قال لهم: أنحوا هذا النحو، أيّ: اقصدوه، والنحو القصد فسُمِيَ للذك نحوا^(١).

ولما كان علي عليه السلام مؤسس النحو العربي، كما سرى فيما بعد، فإثنا نرى أن الغيورين على اللغة العربية فضلوا تسمية هذا النوع من العلم نحواً، واستبقاء لكلمة مؤسسه ابن أبي طالب عليه السلام؛ لذا يسمى صاحب هذا العلم (نحوياً) بتسكين الحاء، وجمعه (نحويون) بتسكين الحاء أيضاً.

أهمية:

للنحو العربي أهمية كبيرة؛ إذ يشكل عاملاً أساساً في فهم المعنى، والوقوف على دلالة النص: ما دفع المفسرين إلى عدّ هذا العلم إحدى أهم أدواتهم، ولا يستطيعون التصدي لتفسير كلام الله، تعالى من دون هذه الأداة. فقد أنزل الله عز شأنه، القرآن الكريم بلسان عربي حين قال: ﴿إِنَّا أَنزَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا﴾ [يوسف: ٢]؛ ويؤدي هذا القول المبين إلى وجوب معرفة قواعد اللسان العربي، وقواعد العرب في لغتهم، وستنهم في توجيه كلامهم، إدراكاً لمعاني الكتاب العظيم.

وأشار إلى هذا الأمر عدد أكبر من المفسرين أو معرب الآيات البينات. قال مكي بن أبي طالب^(٢): «رأيت من أعظم ما يجب على الطالب لعلوم القرآن، الزاغب في تجويد ألفاظه وفهم معانيه، ومعرفة قراءاته ولغاته.. وأفضل ما لقارئ: محتاج إليه معرفة إعرابه... ليكون بذلك سالماً من اللحن فيه، مستعيناً على

(١) الزجاجي: الإيضاح في علل النحو، ص ٨٩.

(٢) هو حموش بن محمد بن مختار الأندلسي القيسي، أبو محمد. مقرئ. كان عالماً بالتفصير والعربية. ولد في القبروان، وطاف في بلاد المشرق. من مؤلفاته: مشكل إعراب القرآن والهدایة لبلوغ النهاية. توفي سنة ٤٣٧ هـ / ١٠٤٥ م. الأعلام للزرکلي، ج ٧، ص ٢٨٦.

أحكام اللفظ به، مطلعاً على المعاني التي قد تختلف باختلاف الحركات، متفهماً لما أراد الله به من عباده؛ إذ بمعرفة حقائق الإعراب تعرف أكثر المعاني فتظهر الفوائد، ويفهم الخطاب، وتُصبح معرفة حقيقة المراد»^(١).

وعبر ابن هشام الأنصاري^(٢) عن أهمية النحو الذي هو الإعراب نفسه بقوله: «ذلك علم الإعراب الهدادي إلى صوب الصواب»^(٣).

وعد ابن خلدون^(٤) هذا العلم من أهم علوم اللسان العربي التي هي، برأيه، النحو واللغة والبيان والأدب. فتلك العلوم تتفاوت بتفاوت مراتبها في التوفيق بمقصود الكلام، حسبما يتبيّن في الكلام عليها فناً فناً. وبذلك يكون النحو هو المقدّم منها والأهم، إذ به تتبيّن أصول المقاصد بالدلالة، فيُعرف الفاعل من المفعول، والمبدأ من الخبر. ولو لا هذا العلم لجهل أصل الإفاده.

ويتابع ابن خلدون مظهراً أهمية هذا العلم، إذ إن علم اللغة كان من حقه التقدّم على النحو وغيره؛ لولا أن أكثر الأوضاع باقية في موضوعاتها، لم تتحيّر بالجملة، ولم يتبّع له أثر؛ لذلك كان علم النحو أهم من اللغة؛ إذ الجهل به يقود إلى الإخلال بالتفاهم جملة. أمّا اللغة فليست كذلك.

وتتجلى أهمية النحو، في نظر ابن خلدون، في كونه يصون القرآن الكريم. والحديث النبوى الشريف من انغلاقهما على المفهوم، من خلال صون اللغة العربية، وحمايتها من اللحن الذي أصاب اللسان العربي، بعد أن ترك الإسلام الحجاز لطلب الملك الذي كان في أيدي الأمم والدول، وبعد أن خالط العرب العجم؛ ما أدى إلى فساد ملكتهم التي كانت تمثل أحسن الملوك وأوضحتها إبانة عن المقاصد؛ وذلك بما ألقى إليها السمع من المخالفات التي للمتغربين من العجم^(٥).

(١) ابن أبي طالب، مكي: مشكل إعراب القرآن، ص ٦٣.

(٢) هو محمد عبد الله بن هشام الدين الأنصاري المصري. كان أوّل من عضره في تحقيق النحو. من مؤلفاته معني الليث. توفي سنة ٧٦١ هـ / ١٣٦٠ م. راجع مقدمة المعني.

(٣) ابن هشام الأنصاري، جمال الدين: المعني ج ١، ص ٩.

(٤) هو عبد الرحمن بن محمد بن خلدون، أبو زيد الإشبيلي. كان فيلسوفاً مؤلفاً وعالماً اجتماعياً وبيحانياً. من مؤلفاته المشهورة كتاب العبر وديوان المبدأ والخبر. في سبع مجلدات، أولها المقدمة التي تعد من أصول علم الاجتماع. توفي سنة ٨٠٨ هـ / ١٤٠٦ م. راجع الأعلام للزركلي، ج ٣، ص ٣٢٠.

(٥) ابن خلدون، عبد الرحمن: المقدمة، ص ١٠٥٥ وما بعدها.

أما السيوطي^(١) فقد وضع على رأس منهج المفسر، الإعراب الذي يكشف معاني التركيب حين يقول: «أول ما تجب البداءة به منها تحقيق الألفاظ المفردة، فيتكلّم عليها من جهة اللغة، ثم التعرّيف، ثم الإشتراق، ثم يتكلّم عليها بحسب التركيب، فيبدأ بالإعراب، ثم ما يتعلّق بالمعانى، ثم البيان، ثم البديع، ثم يبيّن المعنى المراد، ثم الاستبساط، ثم الإشارات»^(٢)

غير أن الزجاجي كان قد سبق هؤلاء العلماء إلى إيضاح الهدف من تعلم النحو والإفادة منه من خلال استيعابه وظيفة هذا العلم استيعاباً متكاملاً؛ إذ تقوم هذه الوظيفة على تقويم كتاب الله عَلَّا شَانَه، أي: الوقوف على قيمته العظيمة، وتهدف أيضاً إلى معرفة الحديث النبوى الشريف، إذ لا يمكن لأمرىء معرفة بيان القرآن الكريم وحديث الرسول ﷺ، إلا من خلال معرفة النحو. كذلك لا يمكنه إدراك لغة العرب على الحقيقة ما لم يقف على حقيقة قواعد هذه اللغة.

وفي ذلك يقول الزجاجي: «الفائدة فيه الوصول إلى التكلّم بكلام العرب على الحقيقة صواباً غير مبدل ولا مغيّر، وتقويم كتاب الله، عز وجل، الذي هو أصل الدين والدنيا والمعتمد، ومعرفة أخبار النبي ﷺ، وإقامة معانٍها على الحقيقة؛ لأنّه لا تفهم معانٍها على صحة إلا بتوفيقها حقوقها من الإعراب. وهذا ما لا يدفعه أحد ممّن نظر في أحاديثه ﷺ، وكلامه، وقد قال الله عز وجل في وصف كتابه «إنا أنزلناه قرآن عربياً غير ذي عوج»^(٣).

بعد هذا التعريف بالنحو وبيان أهميته وفوائده، تنتقل إلى معرفة أهم البواعث التي أدت إلى ظهوره ووضعه عن طريق علماء وغيورين على اللغة العربية. فما هي هذه البواعث؟

بواعث وضع النحو العربي:

لعلّ أهم البواعث التي ساعدت على وضع هذا العلم تكمن في أربعة وهي

(١) هو عبد الرحمن بن أبي بكر، السيوطي جلال الدين. كان حافظاً موزلاً وأديباً. له حوالي ستمائة مصنف. اعتزل الناس في الأربعين، وخلا بنفسه، على النيل منزولاً عن أصحابه جميعاً. كأنه لا يعرف أحداً منهم، فالله عز وجل معظم كتبه. وكان الأغنیاء والأمراء يزرونه، ويعرضون عليه الهدايا فيرفضها. وطلبه السلطان مراراً فلم يحضر إليه. الزركلي: الأعلام، ج ٣، ص ٣٠١.

(٢) السيوطي، عبد الرحمن: الإتقان في علوم القرآن، ج ٢، ص ٢٢٧ - ٢٢٨.

(٣) الزجاجي، عبد الرحمن: الإيضاح في علل النحو، ص ٩٥.

الآتية: أولاًـ الباعث الديني: لا شك في أن الإرتباط بين القرآن الكريم ونشأة النحو وثيق للغاية؛ إذ إنـ هذا الكتاب المبارك، كان له تأثيراً بعيد المدى في نشأة هذا العلم، وتطوره وازدهاره على مرّ الأيام، بالإضافة إلى عوامل أخرى ساهمت في ظهوره، ونضوه وبلوغه المستوى الراقي. ولا ريب على الإطلاق، في أن لكتاب الله عظمة وأهمية ومقدمة، يعجز المرء عن إحسانها، ويشقّ عليه وصفها. فقد دفعت تلك الفضائل النبي ﷺ والصحابة والفقهاء، والعلماء، والغيورين على الدين الحنيف إلى تعظيمه وتمجيده، والعناية به وحمايته؛ إذ هو «هُدَىٰ وَرَحْمَةٌ لِّقَوْمٍ يَوْمَئِنُونَ» [الأعراف: ٥٢]، متزلجًا من لدن حَكِيمٍ عَلَيْهِ [النمل: ٦]. ثم انبرى هؤلاء الحربيون على دينهم الإسلامي لصون القرآن من خلال المحافظة على اللغة العربية التي أنزله الله تعالى، بها. فهو «لَا يَأْتِيهُ الْبُطْلُونَ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِ، تَنْزِيلٌ مِّنْ حَكِيمٍ حَيْزِرٍ» [فصلت: ٤٢].

وانطلاقاً من هذه الأهمية للكتاب المبين، فلا غرابة، ولا عجب أن يحرص العلماء المسلمون كل الحرص على الاهتمام بهذا الكتاب الحكيم، وحمايته من كل شائبة تفسد معانيه، وتخلّ بقراءة آياته البينات. فهم يَرَوْنَهُ كليّة شريعتهم، وعمدة ملتهم، وينبوع حكمتهم، وأية رسالتهم، ونور أبصارهم وبصائرهم، وأنه لا طريق إلى الله سواه، ولا نجاة بغيره، ولا تمسك بشيءٍ يخالفه، ويَرَوْنَهُ أيضاً أن أحداً من الإنس والجن لا يستطيع أن يأتي بمثله، لأنه الفرقان الذي أعجزت الفصاحة معارضته، وأغتَيَت الألباء مناقضته، وأخرست البلاء مشكلته^(١)، فهم «لَا يَأْتُونَ بِيُشْكِلِهِ، وَلَمْ يَكُنْ بِعَصْمِهِ لِيُعْنِي ظَهِيرًا» [الإسراء: ٨٨].

ويذهب المسلمون أيضاً إلى أن تأثير هذا الكتاب العظيم في حياة البشرية بوجه عام، وفي حياة العرب بوجه خاص، واضح كل الوضوح، إذ إن التقدم، العلمي الذي تنعم به الإنسانية، في عصرنا الحاضر، هو ثمرة حضارية أينعت في ظلال القرآن الكريم^(٢) الذي أجمع العلماء والفقهاء على أنه أخرج البشرية من الظلمات إلى النور، وحررها من عبودية غير الله، وبيّن لها سبيل الفلاح والنجاح في الدنيا والآخرة، وحثّها على فعل الخير والعمل الصالح، ونهاماً عن المنكر والفحشاء.

(١) القرطبي، محمد بن أحمد الأنصاري. الجامع لأحكام القرآن، دار الكتب العلمية، بيروت، ج ١، ص ٧ وما بعدها.

(٢) الدسوقي، محمد: في تاريخ القرآن وعلومه، المنشاة العامة للنشر والتوزيع والإعلان، طرابلس، ليبيا، ص ٧.

ومن هنا، أيضاً، نستطيع القول: إنه لا استهجان على الإطلاق بأن يهت المسلمون لحمايته، وحفظه، وفهمه والعمل به؛ إذ كانت سائر العلوم التي عرفوها، أو ابتكرها فيها موجة لخدمة القرآن، والإلمام بطرف من أسراره ومعانيه، بالإضافة إلى ذلك كان إكتابُهم على دراسته، وإعرابه، يهدف إلى تحقيق أسمى الغايات وأجلها، وهي عبادة الله تعالى وخشيته، وتعمير الأرض، وتمكين كلمة الخالق، عز وجل، فيها تكون هي العليا دائمًا.

وما دام القرآن الكريم، في نظر المسلمين، على هذا الجانب الكبير من العظمة والأهمية، والغزاره بالفضائل، والفيض بالفوائد وبعد المقاصد، فهل من تساؤل أن يتصدى المسلمون لدرء أي خطر يهدد قرائهم؟ وهل من شيء أخطر من اللحن على قراءة كتاب الله، وفهم معانيه؟

إذًا ما هو اللحن؟ وما الدواعي التي أدت إلى فشو وانتشاره، حتى أصاب اللغة العربية التي أنزل الله تعالى بها القرآن؟ وما آثاره على هذه اللغة، وعلى القرآن بالذات؟

ينطوي اللحن على عدة معانٍ؛ فهو الخطأ والصواب. قال الأنباري^(١): «يقال للخطأ لحن وللصواب لحن»^(٢). وقيل: إنه الفطنة. جاء في الحديث الشريف: «لعل بعضهم أن يكون لحن بحجه من بعض»^(٣). أي: أفطن لها وأجدل. وجاء في (السان العرب) اللحن هو اللغة، كقول عمر (رضي الله عنه): «تعلموا الفرائض والستة واللحن كما تتعلمون القرآن»^(٤). والمراد هنا من اللحن اللغة. وقيل: «اللحن يعني النحو»^(٥).

(١) هو محمد بن القاسم بن محمد بن بشار بن الحسين بن بيان، الإمام أبو بكر الأنباري التحوي اللغوي. كان أعلم الناس بالنحو والأدب وأكثرهم حفظاً. كان يحفظ ثلاثةمائة بيت شاهداً في القرآن وأملى كتاباً كثيرة، فيها: غريب الحديث، الهاءات، الأضداد، المشكل، المذكر والمؤنث، الواضح في النحو. ولد سنة ٢٧١ هـ وتوفي سنة ٣٢٧ في بغداد. جلال الدين السيوطي: بغية الوعاء، ج ١، ص ٢١٢ - ٢٣٢.

(٢) الأنباري، محمد بن القاسم: الأضداد، تحقيق محمد أبو الفضل، المكتبة العصرية، بيروت ص ٢٣٨.

(٣) ابن فارس، أحمد: معجم مقاييس اللغة، تحقيق عبد السلام هارون، مركز النشر، مكتب الأعلام الإسلامي، ج ٥، ص ٢٤٠.

(٤) ابن منظور: لسان العرب، مادة (ل ح ن).

(٥) الأنباري: الأضداد، ص ٢٤٠.

ومن معانٍ الأساسية التي ذكرتها المصادر، الخطأ في الإعراب. قال أحمد بن فارس: «فاما اللحن بسكون الحاء، فإمالة الكلام عن جهة الصريحة في العربية»^(١). وجاء في (السان العربي) أنَّ اللحن ضد الإعراب، وهو يستملح في الكلام إذا قلَّ، وكأنَّ اللحن في العربية راجع إلى هذا؛ لأنَّه من العدول عن الصواب. فهو بتسكن الحاء، وهو الخطأ في الكلام. يقال: رجل لاحن لا غير إذا صرف كلامه عن جهة ولحن فلان أي: قد أخذ في ناحية الصواب أي: عدل عن الصواب إليها. وقيل: معنى قوله: «وتلحن أحياناً أنها تخطئ في الإعراب»^(٢).

ويأتي اللحن أيضاً بمعنى الخطأ في أصوات اللغة أو صرفها. وبذلك لا يكون اللحن بمعنى الخطأ في الإعراب فقط^(٣). ومن مظاهر اللحن في الأصوات تحريف الكلمة (عربي) إلى (أرببي) و (طرق) إلى (ترك). وقد نتج هذا النوع، لما نقلَ على الأعاجم إخراج أحد الحلق، وأحرف الإبطاق بوضوح أصواتها؛ فشكَّ الناس من فساد الألسنة وأضطربوا^(٤): ومن اللحن في صرف اللغة العربية قول بعضهم: «هذه عصاتي»^(٥)، فزيَّدت التاء على بنية الكلمة ووقع اللحن. والأصل: هذه عصايَ بحذف التاء وفتح الياء.

كذلك يقع اللحن في معاني المفردات في مثل: افتحوا سيفكم، والأصل: سُلُّوا سيفكم. وقد أورد الجاحظ^(٦) رواية جاء فيها هذا النوع من اللحن. وتفيد هذه الرواية أنَّ زياداً أوفد عبيد الله بن زياد إلى معاوية، فكتب إليه معاوية أنَّ ابنته كما وصفت، ولكن قومً من لسانه، وكانت في عبيد الله لكنة، لأنَّه نشا بالأسورة مع أمِّه مرجانة. وكان زياد تزوجها من شيروب الأسودي. وكان قال مرأة: افتحوا سيفكم؛ يزيد: سُلُّوا سيفكم. فقال يزيد بن مفرغ:

وَيَوْمَ فَتَحَتْ سِيفَكُمْ مِنْ بَعْدِ أَضَعْتْ وَكُلَّ أَمْرِكَ لِلضَّيَاعِ^(٧)

(١) ابن فارس، أحمد: معجم مقاييس اللغة، ج ٥، ص ٢٣٩.

(٢) ابن منظور: لسان العرب، مادة (ل ح ن).

(٣) مطر، عبد العزيز: لحن العامة في ضوء الدراسات الحديثة، دار الكتاب العربي، القاهرة، ص ٢٨.

(٤) الصالح، الشيخ صبحي: دراسات في فقه اللغة، دار العلم للملايين بيروت، ص ١١٨.

(٥) الجاحظ: البيان والتبيين، تحقيق المحامي فوزي عطوي، دار صعب، بيروت، ج ٢، بص ٣٢٣.

(٦) هو أبو عثمان عمر بن بحر بن محبوب الكناني البصري. ويعد إمام البلاغة. وله كتب ممتعة، أشهرها: الحيوان، البيان والتبيين، توفي سنة ٢٥٥ هـ. محمد فريد وجدي: دائرة معارف القرن العشرين، المجلد الثالث، ص ٣٨.

(٧) الجاحظ: البيان والتبيين، ج ٢، ص ٣١٩.

ولا ريب في أن الخطأ في الإعراب وفي أصوات اللغة العربية، وبينيتها، ومعاني مفرداتها، دفعت العلماء وال نحوين للذهاب إلى البوادي، للإستماع إلى العرب الأصحاح، والأخذ عنهم اللغة السليمة حيث ينابيعها الصافية؛ وذلك ليحفظوها في المعاجم والتصانيف، شعوراً منهم بأنّ صون تلك اللغة هو صون للقرآن الكريم، لا بل حماية لدين الإسلام.

ومن أبرز أنواع اللحن هو ما كان بمعنى الخطأ في الإعراب، إذ كان السبب المباشر والجوهري في نشأة النحو:

إن اللحن الذي يعني الخطأ في الأعراب كانت له جذور، على حد زعم بعضهم، في العصر الجاهلي^(١)، لكن ما يدحض هذا الزعم ما صرخ به كل من أحمد بن فارس^(٢) وأبي بكر الزبيدي^(٣) اللذين ذكرا أنَّ العرب تكلموا بطباعهم السليمة، ونطقوا على سجيتهم في الجاهلية، ولم يتسرّب اللحن إلى لغتهم إلا عن طريق الموالي^(٤). وفي ذلك قال أبو بكر الزبيدي: «ولم تزل العرب تنطق على سجيتها في صدر إسلامها وماضي جاهليتها»^(٥).

ولخطورة اللحن وأثره السلبي على لغة القرآن الكريم، وبالتالي على الدين، استخفه العرب، وذمّوه بالإضافة إلى ذم اللاتين. روي أنَّ عبيد الله بن مروان قال في ذم اللحن: «اللحن هجنة على الشريف والعجب آفة الرأي، وللحن في المتنطق أقبح من آثار الجدرى في الوجه»^(٦). وقيل أيضاً: اللحن أقبح من الشرك.

(١) العبيدي، شعبان عرض: النحو العربي ومناهج التأليف، منشورات جامعة ماريونس ١٩٨٩، ص ٧٥ وما بعدها.

(٢) هو أحمد بن فارس بن ذكرياء أبو الحسين الفزويي. كان نحوياً على طريقة الكوفيين من مصنفاته: المجمل في اللغة، فقه اللغة ومقدمة في النحو توفي سنة ٣٩٥ هـ. السيوطي: *بنية الوعاء*، ج ١، ص ٣٥٢.

(٣) هو محمد بن الحسن بن عبد الله بن مذحج، أبو بكر الزبيدي الإشبيلي. كان واحد عصره في علم النحو. صتف مختصر العين وأبنية سببويه، وما يلحن فيه عوام الناس وطبقات التحويين. السيوطي: *بنية الوعاء*، ج ١ ص ٨٤.

(٤) الموالي: جمع مولى وهو المالك والعبد والمعتقل والصاحب. الفيروز آبادي: *القاموس المحيط*، دار الجيل، ج ٤، ص ٤٠٤، مادة (ولي).

(٥) أبو بكر الزبيدي: *طبقات التحويين واللغويين*، ص ١١. ابن فارس، أحمد: *المقايس*، ج ٥، ص ٢٢٩.

(٦) الجاحظ: *البيان والتبيين*، ج ٢، ص ٢٤٤.

وتكثر صور ذم اللحن واللحنين في المصادر العربية، لما تجلبه هذه الأفة من فساد في لغة كتاب الله. قيل إنَّ عمر بن الخطاب (رضي الله عنه) استقبع رمي قوم، فقال لهم: «ما أسوأ رميكم». فأجابوه بقولهم: «نحن قوم متعلمين»، والصواب: « المتعلمون» لكون هذه الكلمة صفة الموصوف المرفوع الذي هو (قوم). فالخطأ في إعرابها دفع عمر إلى القول: «الحنك أشدُّ علىَّ من فساد رميكم». وروي عنه أنه سمع رسول الله ﷺ يقول: «رحم الله أمراً أصلح من لسانه»^(١). وقيل: إنَّ عمر كان يضرب بنيه على اللحن.

كذلك كان عمر بن عبد العزيز يكره اللحن، ويتلذذ بسماع الكلام المعرب. روي أنه قال: «إنَّ الرجل ليكلمني في الحاجة يستوجبها فيلحن، فأرده عنها، وكأني أفضح حبَّ الرمان لبغضي استعمال اللحن، ويكلمني آخر في الحاجة لا يستوجبها فيُعرب، فأجيبه إليها التذاذاً لما أسمع من كلامه»^(٢). وقال عبد الملك بن مروان: «ليس للأحن حرمة»^(٣). وقيل: إنَّ رجلاً نادى صديقاً له قائلاً: يا أبي سعيد. فأجابه هذا الأخير بقوله: «كسب الدوانيق»^(٤) شغلك عن أن تقول: يا أبي سعيد؟. والمعلوم أن القاعدة النحوية تقضي بأن ينصب المنادي المضاف وجوباً؛ لذلك وجب أن يقال: يا أبي سعيد^(٥).

وبرد في البيان والتبيين للجاحظ أنَّ قاضياً لعن رجلاً على لحنه حين جاء مع أخيه إلى زياد قائلاً له: (إنَّ أبوبنا مات، وإنَّ أخيانا وثب على مال أبانا فأأكله). فأجابه زياد بقوله: الذي أضعت من لسانك أضرَّ عليك مما أضعت من المال. ولما سمع القاضي لحن هذا الرجل تضايق للغاية، ثمَّ لعنه، ولم يترئم على أخيه، داعياً الله أن يلحق الأذى بأخيه، وقال للرجل: «فلا رحم الله أباك ولا نيع عظم أخيك. قم في لعنة الله»^(٦).

(١) المصدر نفسه ج ٢، ص ٢٤٤، وما بعدها.

(٢) الجاحظ: البيان والتبيين، ج ٢، ص ٢٤٥.

(٣) المصدر نفسه: ج ٢، ص ٢٤٥.

(٤) الدوانيق جمع دائِن يعني الأحقن والسارق والساقط من الرجال، ويجيء بمعنى سدى الدرهم. وهذا المعنى هو الوارد هنا. وهو معرب من دائِنَك بالفارسية البستانى، بطرس: محيط المحيط، مادة (دانق).

(٥) ابن عقيل بهاء الدين عبد الله: شرح ابن عقيل على ألفية ابن مالك، تحقيق محمد محيى الدين عبد الحميد، دار العلوم الحديثة، بيروت، ج ٢، ص ٢٥٩ وما بعدها.

(٦) الجاحظ: البيان والتبيين، ج ٢، ص ٢٢٣.

وكان التهكم باللأحنين الذين ينتقدون غيرهم على لحنهم، وهم في الوقت نفسه يلحنون، بارزاً من خلال رواية مفادها أنَّ بشر بن مروان قال لغلام له، في حضرة عمر بن عبد العزيز: «أدعُ لي صالحًا، فقال الغلام: يا صالحًا، فقال له بشر: ألقِ منها (ألف). فقال له عمر: وأنت، فزد في ألفك ألفاً»^(١). والصواب: يا صالح؛ لأنَّ المنادى هنا مفرد علم، ويجب بناؤه على الضم في محل نصب وكذلك يجب القول: ألقِ منها (ألفاً)، لأنَّ الكلمة (الألف) واقعة في محل نصب مفعول به لفعل (ألقِ).

ويقابل اللحن الإعراب الذي هو «الإبابة عن المعاني بالألفاظ»^(٢). نحو: أكرم على حسناً؛ فرَفِعْ (على) دل على أنه فاعل لفعل (أكرم)، ونصب (حسناً) دل أيضاً على أنه مفعول به للفعل نفسه. ولو جاء الإسمان مرفوعين معاً أو منصوبين لحصل لبسٍ وغموض في المعنى، ولم يعرف الفاعل من المفعول به. وهذا ما يسمى بتحريف حركات الإعراب. وقد أدى مثل هذا التحريف، في قراءة بعضهم، لقوله تعالى: ﴿إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعَلَمَتُو﴾ [فاطر: ٢٨]، إلى فساد المعنى في الآية الكريمة؛ إذ قرئ لفظ الجلالة (الله) بالرفع على أنه فاعل، و (العلماء) بالنصب على أنه مفعول به. وبذلك يصبح المعنى أنَّ (الله) سبحانه وتعالى، هو الذي يخاف العلماء. وبالتالي يؤكد هذا كفر وإلحاد.

وقد تجلَّت أهمية الإعراب في دعوة الرسول ﷺ للناس إلى فهم الكلام وصولاً إلى فهم معانٍ القرآن من خلال هذا الإعراب فقال: «أعربوا الكلام كي تُعربوا القرآن»^(٣). وأشار أبو بكر الزبيدي به، حين صرَّح بأنَّ الله العلي القدير «جعل الإعراب حلِيًّا للسان، وزماناً وفصلاً لما اختلف فيه من معانٍ»^(٤). ويقول في موضع آخر: «ففشا الفساد في اللغة العربية، واستبان منه في الإعراب الذي هو حلِيًّا، والموضع لمعانٍها»^(٥).

إذاء ما قبل في اللحن وخطره على القرآن الكريم من خلال قصائه على اللغة

(١) المصدر نفسه، ج ٢ ص ٣٢٤.

(٢) ابن عقيل: شرح ابن عقيل، ج ٢، ص ٢٥٧ وما بعدها.

(٣) ابن جنِي: الخصائص، ج ١، ص ٣٥.

(٤) آزنرجيفري: مقدمتان في علوم القرآن. تصويب واستدراك عبد الله إسماعيل القساوي. مكتبة الخانجي بالقاهرة، ١٩٧٢، ١٣٩٢، ص ٢٦٠.

(٥) أبو بكر الزبيدي: طبقات التحويين واللغويين، ص ١١.

(٦) المصدر نفسه، ص ١١.

العربية، وإزاء ما قيل في الإعراب ومحاسنها وفوائده المردودة إلى الذكر الحكيم، فهل من غرابة في أن ينهض العلماء المسلمين لوضع علم يحدد للغة العربية قواعد وقوانين، تعصّمها عن الخطأ، وتحميها من الرطانة واللّكنات، ليصان بها القرآن والدين من الشوائب؟ ولا عجب على الأطلاق إذا ماحث هؤلاء العلماء الناس إلى تعلم النحو مشيدين به. كان أبوب السختياني^(١) يقول: «تعلّمُوا النحو، فإنه جمال للوضيع، وتركه هجنة للشريف»^(٢). وقال عمر (رضي الله عنه): «تعلّمُوا النحو كما تعلّمون السنن والفرائض»^(٣).

ولما كان تهديد اللحن للغة العربية بالفساد والضياع، تهديداً مباشراً للقرآن وللدين بالذات، فإن النحو لحماية هذه اللغة من هذا الوباء، صون لهما؛ إذ تتوضّح معاني كتاب الله من خلال إعرابه، وتستقيم قراءته، ويزول أيّ لبس فيه من شأنه أن يؤدي إلى فساد تلك المعاني. وهذا ما لا يرضاه فقهاء الإسلام وعلماؤهم، أو يسلّمون به، إيماناً منهم بأنّ هذا الكتاب الكريم يمثل دستوراً غير تاريخ العرب، بنقلهم من عبادة الأوّلان إلى عبادة الله الواحد، متفيتين بظلال الإسلام، لينهلوا من معين الدين الجديد أسمى القيم، وأنبل المثل، وأشرف المباديء.

ومن هذا المنطلق يمكن الحكم على أنّ الّباعث الدينـي كان السبب المباشر في نشأة النحو ووضعه من أجل مقاومة اللحن الذي بدأ مظهـره تـبرـز مع ظهـور الإسلام من عهد النبي ﷺ الذي نـبهـ إلى خطـورـته بعد أن سـمعـ رـجـلاـ يـلـحنـ فقالـ: «أـرـشـدـواـ أـخـاـكـمـ فـقـدـ ضـلـ»^(٤). ثـمـ أـخـذـ هـذـاـ الخـطـرـ يـزـدـادـ وـيـتـفـاقـمـ، لـأـسـبـابـ أـبـرـزـهاـ اختـلاـطـ العـرـبـ بـالـأـعـاجـمـ بـعـدـ أـنـ بـشـرـ النـبـيـ ﷺ بـالـبـيـنـ الـجـدـيدـ، فـدـخـلـ فـيـ النـاسـ أـفـوـاجـاـ، وـأـقـبـلـواـ إـلـيـهـ أـرـسـلاـ، وـاجـتـمـعـتـ فـيـ الـأـلـسـنـةـ الـمـتـفـرـقـةـ، وـالـلـغـاتـ الـمـخـلـفـةـ، فـفـشـلـ الـفـسـادـ فـيـ الـلـغـةـ الـعـرـبـيـةـ فـفـطـنـ لـذـلـكـ مـنـ نـافـرـ بـطـبـاعـهـ سـوءـ إـفـهـامـ النـاطـقـينـ مـنـ دـخـلـاءـ الـأـمـ بـغـيرـ الـمـتـعـارـفـ مـنـ كـلـامـ الـعـرـبـ، فـعـظـمـ الـإـشـفـاقـ مـنـ فـشـلـ ذـلـكـ وـغـلـبـتـهـ،

(١) هو أبوب بن أبي تميمة كيسان السختياني البصري. كان سيد فقهاء عصره، وكان تابعـاً زـانـهـاـ مـنـ حـفـاظـ الـحـدـيثـ، وـلـدـ سـنـةـ ٦٦ـ هـ وـتـوـفـيـ سـنـةـ ١٣١ـ هـ. الزـركـلـيـ: الـأـعـلـامـ، جـ ١ـ، صـ ٣٨ـ.

(٢) الجاحظ: البيان والتبيين، جـ ٢ـ، صـ ٣٢٣ـ.

(٣) المصدر نفسه، جـ ٢ـ، صـ ٣٢٣ـ.

(٤) أبو الطيب اللّغوـيـ: مـرـاتـبـ النـحـوـيـ، تـحـقـيقـ مـحـمـدـ أـبـرـ الفـضـلـ إـبـرـاهـيمـ، مـكـتبـةـ نـهـضـةـ مصرـ، ١٩٥٥ـ، صـ ٥ـ.

حتى دعاهم الحذر من ذهاب لغتهم وفساد كلامهم، إلى أن سيئوا الأسباب في تقيدها لمن ضاعت عليه، وتثقيفها لمن زاغت عنه^(١).

ويلتقي ابن خلدون الزبيدي في رد انتشار اللحن إلى اختلاط العرب بالأعاجم، وشعوب الأمصار المفتوحة، ويقرر بأنّ هذا المرض يفسد الملكة اللسانية، بما ألقى إليها السمع من المخالفات الأعمجية. إنه يقول في مقدمته المشهورة: «فلما جاء الإسلام، وفارقوا الحجاز لطلب الملك الذي كان في أيدي الأمم والدول، وخالفوا العجم، تغيرت تلك الملكة بما ألقى إليها السمع من المخالفات التي للمتعربين من العجم؛ والسمع أبو الملكات اللسانية، ففسدت بما ألقى إليها مما يغايرها، بجنوحها إليه باعتياد السمع»^(٢).

كذلك تسهب المراجع الحديثة في الحديث عن ظهور اللحن وانتشاره بشكل خطير، بعد ظهور الدعوة الإسلامية بسبب مخالطة العرب لأهل البلاد المفتوحة. فيرى أحمد أمين أنّ جزيرة العرب أصبحت مرتدًا للأعاجم، وأنّ حاضرة الإسلام، في عهد الخلفاء الراشدين، هي المدينة، حيث يؤمها المسلمون من كل حدب وصوب لإداء فريضة الحج؛ ما أدى إلى فساد اللغة العربية^(٣). وفضلاً عن ذلك تدفق الأعاجم أفواجاً إلى المدينة لقضاء مصالحهم في حاضرة الخلافة، وأقبل الرقيق والجواري إلى الجزيرة العربية، حيث اتّخذهم سادة العرب خدماً لإدارة المنازل. وبذلك اختلط العجم بالعرب في البيوت، والأسواق، والمنازل، والمساجد حتى نتج من ذلك الإختلاط خلل في لسان العرب الذين كانوا يتكلّمون العربية معربة وأخذ الفساد يدب فيها، فظهر اللحن، وانتشر خارج الجزيرة العربية، حيث خالط عرب مصر الأقباط، وعرب الشام الشاميين، وعرب العراق الفرس والثبط^(٤).

وي فعل هذا الإختلاط الاجتماعي، ظهر اللحن، فهدّد اللغة العربية بالفساد، حتى دخل بيوت العلماء والخلفاء. فقد لحن أحد قضاة واسط^(٥) عندما قال:

(١) أبو بكر الزبيدي: طبقات النحوين واللغويين، ص ١١.

(٢) ابن خلدون: المقدمة، ص ١٠٥٦ - ١٠٥٧.

(٣) أمين، أحمد: ضحي الإسلام، دار النهضة، مصر، ج ٢، ٢٥١.

(٤) فتحي عبد الفتاح الدجني: أبو الأسود الدؤلي ونشأة التحرر، منشورات وكالة المطبوعات - الكويت، ص ٤٨.

(٥) تمثل هذه المدينة عدة مواضع، وأشهرها (واسط) الحجاج. وسميت بهذا الاسم لتوسطها بين البصرة والكوفة. راجع: شهاب الدين أبي عبد الله ياقوت الحموي الرومي البغدادي. دار صادر، بيروت، ج ٥، ص ٣٤٧.

«أتَيْتُمُونَا بَعْدَ أَنْ أَرْدَنَا أَنْ نَقْمٌ»^(١)، علِمًا بِأَنَّ الْقَاعِدَةَ النَّحُوِيَّةَ تَقْتَضِي نَصْبَ الْفَعْلِ
الْمُضَارِعِ بِـ(أَنْ) لَا جُزْمَه^(٢).

وَهَكُذَا فَيَأْنَ اللَّهُنَّ الَّذِي أَصَابَ الْخَاصَّةَ وَالْعَامَّةَ مِنَ النَّاسِ، كَانَ نَتْيَاهُ لِتَأْثِيرِ
الْعَرَبِ بِالْأَعْاجِمِ الَّذِينَ يَثْقَلُ عَلَيْهِمْ إِخْرَاجُ الْأَحْرَفِ بِوْضُوحِ أَصْوَاتِهَا فِي الْعَرَبِيَّةِ،
عِلْمًا بِأَنَّ هُؤُلَاءِ الْعَرَبِ كَانُوا قَدْ وَرَثُوا عَرَبِيَّتَهُمْ مَعْرِبِيَّةً، وَقَرَأُوا وَالْقُرْآنَ مَعْرِبِيًّا،
وَتَاقَلُوا الْأَحَادِيثُ النَّبُوَّيَّةُ الشَّرِيفَةُ مَعْرِبِيَّةً أَيْضًا. لَكُنْهُمْ أَدْرَكُوا أَنَّهُمْ، لَوْلَا اخْتِلاطِهِمْ
بِالْأَعْاجِمِ، لَمَا لَهُنَّا فِي نَطْقٍ وَلَا شُدُّوا فِي تَعْبِيرٍ^(٣).

إِذَاءِ هَذَا الْخَطَرِ الشَّدِيدِ النَّاشِئِ عَنِ الْلَّهُنَّ، خَشِيَ الْعُلَمَاءُ أَنْ تَسْوُءَ قِرَاءَةَ
الْقُرْآنَ، وَتَفْسِدَ مَعَانِيهِ بِسَبِيلِ هَذَا الْلَّهُنَّ، قَرَأُوا أَنَّهُ لَا بُدُّ مِنْ عِلْمٍ يَضُعُ لِلْغَةِ الْعَرَبِيَّةِ
قَوَانِينَ وَقَوَاعِدَ لِضَبْطِهَا، وَتَوْضِيعِ مَعَانِيهَا خَدْمَةً لِلنَّصِّ الْقُرْآنِيِّ. قَالَ ابْنُ خَلْدُونَ فِي
مَقْدِمَتِهِ: «وَخَشِيَ أَهْلُ الْعِلُومِ مِنْهُمْ أَنْ تَفْسِدَ تِلْكَ الْمُلْكَةَ رَأْسًا، وَيَطْوُلُ الْعَهْدُ بِهَا،
فَيَنْغْلُقُ الْقُرْآنُ وَالْحَدِيثُ عَلَى الْمَفْهُومِ، فَاسْتَبْطُوا مِنْ مَجَارِيِّ كَلَامِهِمْ قَوَانِينَ لِتِلْكَ
الْمُلْكَةِ، مَطْرَدَةً شَبَهَ الْكَلِيلَاتِ، وَالْقَوَاعِدَ يَقِيسُونَ عَلَيْهَا سَائِرَ أَنْوَاعِ الْكَلَامِ، وَيَلْحِقُونَ
الْأَشْيَاءُ بِالْأَشْيَاءِ، مُثْلِّ أَنَّ الْفَاعِلَ مَرْفُوعٌ، وَالْمَفْعُولُ بِهِ مَنْصُوبٌ وَالْمُبْتَدَأُ مَرْفُوعٌ»^(٤).
وَعَلَى هَذَا الْأَسَاسِ فَيَأْنَ الْمُحَافَظَةُ عَلَى الْإِسْلَامِ لَا تَتَحْقِقُ إِلَّا مِنْ خَلَالِ
الْمُحَافَظَةِ عَلَى لِغَةِ الْقُرْآنِ الْكَرِيمِ، وَذَلِكَ بِصُونَنَاهُ مِنَ الْلَّهُنَّ بِإِيَاجَادِ عِلْمِ النَّحُوِ الَّذِي
كَانَ كِتَابُ اللهِ يَأْعَثُ عَلَى ظُهُورِهِ وَنَشَأَتِهِ.

وَيُظَهِّرُ أَثْرُ الْعَاملِ الديِّنيِّ فِي وَضُعِعِ عِلْمِ النَّحُوِ وَاضْحَاهُ مِنْ خَلَالِ نَمَادِجَ كَثِيرَةِ،
وَمَلَاحِظَاتٍ خَطِيرَةٍ، يَبْدُو فِيهَا الْلَّهُنَّ بِارْزَأًا فِي قِرَاءَةِ كِتَابِ اللهِ، أَوْ فِي غَيْرِهِ. وَمِنْ
هَذِهِ النَّمَادِجِ مَا جَاءَ فِي رِوَايَةِ مَفَادِهِ أَنَّ عَلَيَّ بْنَ أَبِي طَالِبٍ عَلَيْهِ السَّلَامُ سَمِعَ أَعْرَابِيًّا
يَقْرَأُ فِي الْقُرْآنِ مِنْ سُورَةِ (الْحَاقَّةِ) «لَا يَأْكُلُهُ إِلَّا الْخَاطِئُونَ»، فَلَهُنَّ بِقُولِهِ: (الْخَاطِئُونِ).
وَهَذَا الْلَّهُنَّ هُوَ الْخَطَا فِي الْإِعْرَابِ، إِذَا تَأْتَ هَذِهِ الْكَلِمَةُ، فِي قِرَاءَةِ الْأَعْرَابِيِّ مُنْصُوصَةٌ
عَلَى الإِسْتِثنَاءِ، فِي حِينِ أَنَّ الْقَاعِدَةَ النَّحُوِيَّةَ تَقْضِي بِأَنَّ تَرْفُعَ بِاعتِبارِهَا فَاعْلَأُ بِفَعْلِ
(يَأْكُلُ). وَبِذَلِكَ تَصْبِحُ الْقِرَاءَةُ الصَّحِيحَةُ: «لَا يَأْكُلُهُ إِلَّا الْخَاطِئُونَ»^(٥)، لِأَنَّ الإِسْتِثنَاءَ

(١) الجاحظ: البيان والتبيين، ج ٢، ص ٣٢٤.

(٢) الأشموني: شرح الأشموني، تحقيق محمد محي الدين عبد الحميد، دار الكتاب العربي،
ج ٣، ص ٥٤٨.

(٣) الصالح، الشيخ صبحي: دراسات في فقه اللغة العربية، ص ١١٨ - ١١٩.

(٤) ابن خلدون: المقدمة، ص ١٠٥٦ - ١٠٥٧.

(٥) سورة الحاقة، الآية ٢٧.

مفرغ^(١). ولا شك في أن خطأ هذا الأغرابين، في قراءته الآية الكريمة، أفسد المعنى، وأثار غيض الإمام الذي باشر وضع النحو، وطلب من أبي الأسود أن ينجز نهجه، ويكمّل عمله حين دخل على أمير المؤمنين، فوجد في يده رقعة. فسأله أبو الأسود قائلاً: ما هذا يا أمير المؤمنين؟ فأجابه عليه السلام: «إني تأملت كلام الناس، فوجدته قد فسد بمخالطة الحمراء، يعني الأعاجم، فاردت أن أضع لهم شيئاً يرجعون إليه، ويعتمدون عليه. ثم أتى إلى الرقعة، وفيها مكتوب: الكلام كله اسم و فعل و حرف، فالاسم ما أنشأ عن المسمى، والفعل ما أثبت به، والحرف ما جاء لمعنى. وقال لي: إنك هذا النحو، وأضف إليه ما وقع إليك. واعلم يا أميراً الأسود، أن الأسماء ثلاثة: ظاهر، مضمر، واسم لا ظاهر ولا مضمر. وإنما يتضاد الناس، يا أميراً الأسود، فيما ليس بظاهر ولا مضمر. وأراد بذلك الاسم العجم»^(٢).

ومن النماذج الأخرى التي يظهر فيها اللحن في قراءة القرآن، ما جاءت به بعض الروايات التي تفيد بأنّ أعرابياً قدم في خلافة عمر بن الخطاب^(٣) (رضي الله عنه)، فقال من يقرئني شيئاً مما أنزل الله على محمد^(رسوله)? فاقرأه رجل سورة براءة، فقال: إِنَّ اللَّهَ بِرِّيْءٍ مِّنَ الْمُشْرِكِينَ وَرَسُولِهِ بِحَرْ لِفَظَةٍ (رسول). فقال الأعرابي: أو قد بريء الله من رسوله؟ إن يكن الله بريء من رسوله، فأننا أبرا منه. ولما أخبر عمر بما قاله الأعرابي، دعاه وقال له: يا أعرابي، تبرأ من رسول الله؟ فأجاب الأعرابي قائلاً: يا أمير المؤمنين، إني قدمت المدينة، ولا علم لي بالقرآن، فسألت من يقرئني؟ فاقرأني هذا الرجل سورة براءة قائلاً: إِنَّ اللَّهَ بِرِّيْءٍ مِّنَ الْمُشْرِكِينَ وَرَسُولِهِ بِالْحَرْ (جر). فقلت: إن يكن الله تعالى بريء من رسوله، فأننا أبرا منه. فهذا عمر، (رضي الله عنه) من روع الأعرابي، وهو ن علىه قائلاً له: ليس هذا يا أعرابي، فقال: كيف هي يا أمير المؤمنين؟ فقال: هَلَّ أَنَّ اللَّهَ بِرِّيْءٍ مِّنَ الْمُشْرِكِينَ وَرَسُولِهِ^(٤) [التوبة: ٣].

(١) ابن هشام الأنباري: أوضح المسالك إلى ألبية ابن مالك، تحقيق محمد محى الدين عبد الحميد، ط ١٩٦٦، ج ٢، ص ٦٠.

(٢) ابن الأنباري، عبد الرحمن: نزهة الألباء في طبقات الأدباء، ص ١٨ - ١٩.

(٣) هو ابن نفييل القرشي العدوبي، أبو حفص. يمثل الخليفة الثاني بين الخلفاء الراشدين وعدّ أول من لقب بأمير المؤمنين. كان صحابيًّا جليلًا، شجاعًا حازماً، صاحب الفتوحات. وكان مضربي مثل في العدل. ولد سنة ٤٠ ق. هـ وتوفي سنة ٢٣ هـ. راجع الأعلام للزرکلی، ج ٥، ص ٤٥.

(٤) سورة براءة، الآية ٣، وسميت هذه السورة التوبية. راجع (المعجم الفهرس الأنفاظ القرآن الكريم) لمحمد فؤاد عبد الباقي، دار الفكر، ١٩٨٧ مادة (ب رأ).

قال الأعرابي: «وأنا والله أبراً مِئَنْ بَرِيءُ الله ورسوله منهم»^(١).

من خلال هذه الرواية، نجد أنَّ اللحن الذي أصاب لسان الرجل، فاقرأ الأعرابي الآية خطأً، أفسد المعنى، وأثار استغراب هذا لأعرابي واستهجانه، لا بل دفعه إلى أن يبرأ من الرسول صلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَاٰتَهُ السَّلَامَ وَسَلَّمَ ما دام الله تعالى، بريء منه وفق قراءة الرجل الذي جرَّ كلمة (الرسول)، ودفع الخليفة عمر إلى إصدار أمر بأن «لا يقرأ القرآن إلاً عالم باللغة».

وتقول رواية أخرى إنَّ زياد بن أبيه^(٢) بعث إلى أبي الأسود الدؤلي، وقال له: «يا أبو الأسود، إنَّ هذه الحمراء قد كثرت، وأفسدت من ألسن العرب فلو وضعتم لهم شيئاً يصلح به الناس، ويعرف به كتاب الله»^(٣). غير أنَّ أبي الأسود رفض طلب الأمير. عندئذ طلب زياد من رجل أن يجلس على قارعة الطريق متظراً أبي الأسود حتى يمُرَّ ليقرأ له الآية الكريمة «إِنَّ اللَّهَ بِرِيءٍ مِّنَ الْمُشْرِكِينَ وَرَسُولُهُ».

ولمَّا مرَّ أبو الأسود قرأ الرجل الآية بكسر اللام من (رسوله)، فاستغرب أبو الأسود ذلك، وقال: «عَزَّ وَجَهُ اللَّهِ تَعَالَى، أَنْ يَبْرَأَ مِنْ رَسُولِهِ»^(٤). فما كان منه إلا أن عاد حالاً إلى زياد ليعتذر منه على عدم تلبية طلبه في البداية، ويعلن إستعداده للبدء بإعراب القرآن بعد سماعه لحن الرجل في قراءته. وقد أحضر زياد ثلاثة رجالاً اختار منهم أبو الأسود عشرة، وكان بينهم رجل من عبد قيس؛ قال له أبو الأسود: «خذ المصحف وصبيغاً يخالف لون المداد. فإذا فتحت شفتَيِّ، فانقط واحدة فوق الحرف، وإذا ضمتها، فاجعل النقطة إلى جانب الحرف، وإذا كسرتها، فاجعل النقطة، في أسفله. فإن اتبعت شيئاً من الحركات غنة، فانقط نقطتين. فابتدأ بالمصحف حتى أتى على آخره»^(٥).

وكانت النقطة فوق الحرف تعني الفتحة، وأسفل المسكور تعني الكسرة، وبين يدي المضموم تعني الضمة^(٦).

وعندَ اللحن، في القرآن، العامة إلى الخاصة، حتى شمل البلغاء

(١) ابن الأنباري، عبد الرحمن: نزهة الألباء، ص ٢٠.

(٢) هو أمير داهية وقائد فاتح من أهل الطائف. أختلفوا في اسم أبيه. تباين عبد الشفقي. أدرك النبي صلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَاٰتَهُ السَّلَامَ وَسَلَّمَ وأسلم في عهد أبي بكر. الأعلام للزرکلي، ج، ص ٥٣.

(٣) ابن الأنباري، عبد الرحمن: نزهة الألباء، ص ٢٠.

(٤) المصدر نفسه، ص ٢٠.

(٥) المصدر نفسه، ص ٢٠.

(٦) رفيدة، عبد الله: النحو وكتب التفسير، دار الجماهيرية للنشر والتوزيع والإعلان، ج ١، ص ٣٩ - ٣٨.

والفصحاء، فقد روی أنَّ الحجاج بن يوسف^(١) سأَلَ يحيى بن يعمر^(٢) قائلاً له: «أتَجَدْنِي أَلْحَنْ؟» فقلَّ: الأَمْرِي أَفْصَحُ مِنْ ذَلِكَ». فقلَّ: عزَّمْتَ عَلَيْكَ لِتُخْبِرَنِي أَلْحَنْ؟» فقلَّ يحيى: نَعَمْ. فقلَّ له: في أَيِّ شَيْءٍ؟ فقلَّ: في كِتَابِ اللهِ تَعَالَى. فقلَّ: ذَلِكَ أَشَفْعٌ. ففي أَيِّ شَيْءٍ مِنْ كِتَابِ اللهِ تَعَالَى؟ قالَ: قَرَأْتَ: ﴿قُلْ إِنْ كَانَ أَبَاكُمْ وَأَبْنَائُكُمْ وَإِلْعَوَنَكُمْ وَأَذْوَنَكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ وَأَنْوَلُ أَقْرَفَتُهُمَا وَتَجَنَّرَتْ مَخْشَوْنَ كَسَادَهَا وَمَسَكِنَكُنْ تَرَضَوْنَهَا أَحَبَّ إِلَيْكُمْ بْنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ وَجَهَادَ فِي سَيِّلِهِ فَتَرَبَّصُوا حَتَّى يَأْتِكُ﴾ [التوبَة: ٢٤]، فرفعتَ (أَحَبَّ) وَهُوَ مُنْصُوبٌ فَقَالَ لِهِ الْحَجَاجُ: طَوْلُ لَحِيَتِكَ أَوْقَعَكَ، وَكَانَ طَوْبِيلُ الْلَّحِيَّةِ. فَقَالَ رَجُلٌ مِنْ حَضْرَهُ: أَيُّهَا الْأَمْرِي، حَدَّثَنِي كَعْبُ الْأَحْبَارِ^(٣) أَنَّهُ مَكْتُوبٌ فِي بَعْضِ الْكِتَابِ أَنَّ الْلَّحِيَّةَ مُخْرِجُهَا مِنَ الدَّمَاغِ، فَمِنْ تَفْرُطِ عَلَيْهِ لَحِيَتِهِ فِي طُولِهِ يَخْفُ دَمَاغُهُ، وَمِنْ خَفْ دَمَاغُهِ قَلَّ عَقْلُهُ، وَمِنْ قَلَّ عَقْلِهِ كَانَ أَحْمَقُ، وَالْأَحْمَقُ لَا يَسْمَعُ مِنْهُ». فَقَالَ لِيَحِيَّ: لَا تَسْاکِنِي بِبَلْدَ أَنَا فِيهِ، وَنَفَاهُ إِلَى خَرَاسَانَ^(٤).

يبدو، فِي هَذِهِ الرَّوَايَةِ، أَنَّ الْحَجَاجَ رَأَى لَحْنَهُ فِي الْقُرْآنِ أَمْرًا خَطِيرًا، لَا بِلِ إِهَانَةٍ فَطِيعَةٍ لَهُ، نَظَرًا لِعَظَمَةِ الْكِتَابِ الْمَجِيدِ. وَالْمَعْلُومُ أَنَّ مِثْلَ هَذَا الْلَّحْنِ عِنْدَ الْخَاصَّةِ، كَالْحَجَاجِ يَسْتَغْرِبُهُ النَّاسُ، وَيَسْتَخْفُونَ بِصَاحِبِهِ، وَيَعْتَبُونَهُ عَلَى هَذَا الْخَطَأِ. لَذَلِكَ لَمْ يَرِضْ الْأَمْرِي نَقْدَ يَحِيَّ لَهُ، فَتَهَكَّمَهُ، وَهَزَّهُ بِهِ مَنْ كَانَ فِي الْمَجَلسِ، ثُمَّ نَفَى أَبْنَى يَعْمَرَ إِلَى خَرَاسَانَ، بِاعتِبَارِ أَنَّ الْحَجَاجَ مُثْلُ يَقْتَدِي بِهِ، لَا مَوْضِعَ اِنْتِقادٍ وَتَجْرِيَّ.

وَانْطَلَاقًا مِنْ تِلْكَ الْمَظَاهِرِ لِلْلَّحْنِ فِي الْآيَاتِ الْقُرَآنِيَّةِ، عَلَى لِسَانِ الْعَامَةِ وَالْخَاصَّةِ، نَسْتَطِيعُ القُولُ إِنَّ الْعَالِمَ الْدِينِيَّ كَانَ السَّبِبُ الْمُبَاشِرُ فِي نَشَأَةِ النَّحْوِ، لِأَنَّ إِعْرَابَ كِتَابِ اللهِ، لِفَهْمِ مَعَانِيهِ وَإِدْرَاكِ مَضَامِينِهِ، بَاعْثَ أَضَيْلَ عَلَى وَضْعِ هَذَا الْعِلْمِ

(١) هو أبو محمد الحجاج بن يوسف الثقفي بن الحكيم بن عقيل بن مسعود بن عامر. كان أحد كبار قادة عبد الملك بن مروان. كان ميلًا لسفك الدماء. لعله كثر التصحيف، وانتشر في العراق، فزع الحجاج إلى كتابه، وطالب بوضع علامات للأحرف المشتبهة. توفي سنة ٨٥ هـ. عن عمر يناهز الأربع والخمسين سنة. دائرة معارف القرن العشرين، المجلد الثالث، ص ٢٥١.

(٢) هو رجل من عذوان من بني ليث. كان عالماً وفقيراً. روی أنه نقط المصحف. توفي سنة ١٢٩ هـ. طبقات النحوين لأبي بكر الزبيدي، ص ٢٧ - ٢٩.

(٣) هو بن مانع بن ذي هجن الحميري. كان في الجاهلية، من كبار علماء اليهود في اليمن. وأسلم في زمن أبي بكر. توفي سنة ٣٢ هـ. الأعلام للزركلي ج ٥، ص ٢٢٦.

(٤) ابن الأنباري، عبد الرحمن: نزهة الأنباء، ص ٢٥.

وتأسيس قواعده. وما العمل الذي قام به أبو الأسود الدؤلي من جهة نقط المصحف، إلا خطورة مهنة في نمو النحو وإيصال معالمه، صوناً للقرآن الكريم من التحريف والتصحيف واللحن.

بالإضافة إلى ذلك، يظهر الأثر الديني في نشأة النحو، من خلال حرص الأمويين على سلامه اللغة العربية، وعلى القرآن الكريم بالذات؛ وذلك ل حاجتهم الماسة إلى الحفاظ على كيانهم الجديد، وتدعمهم أركانه للاستثمار بالحكم. فقد رأى خلفاؤهم وأمراؤهم أنهم قدوة للناس من الناحتين الدينية والاجتماعية.

وما داموا هكذا، فعلتهم أن ينجزوا عملاً جليلاً يباهرون به، ويتحدث الناس بهذا الإنجاز العظيم، ثم يثنون عليهم بالمدح والإطراء. وهل من شيء أجمل من حماية القرآن، من خلال المحافظة على اللغة العربية؟ لذلك خشي الأمويون أن يتسرّب اللحن إلى تلك اللغة، في أثناء قيام دولتهم الفتية، بعد اختلاط العرب بغيرهم من أبناء البلاد التي دخلها المسلمون، فهُبُوا لحمايتها تحقيقاً لحماية القرآن الذي يمثل دستور المسلمين. سُئل عبد الملك بن مروان^(١) عن تعجيل الشيب إلى رأسه، فقال: «شيني ارتقاء المنابر ومخافة اللحن»^(٢).

وقد كثرت الملاحظات لقصد إصلاح المنطق اللساني في غير الآيات القرآنية. يرى أنَّ أبو الأسود الدؤلي طلب من زياد أمير البصرة أن يأذن له بوضع علم للعرب يعرفون به كلامهم، فرفض الأمير طلبه ومرئت الأيام إلى أن جاء رجل إلى زياد فقال له: «توفي أبنا وترك بنوَنا». فقال له زياد: توفي أبنا وترك بنوَنا؟ ادع لي أبو الأسود. فلما جاءه، قال له: إصنع للناس ما كنت قد نهيتَك عنه ففعل^(٣)».

والملاحظ أنَّ اللحن في قول الرجل واضح للغاية؛ فكان عليه أن يقول: توفي أبُونَا وترَكْ بَنِينَا لَأَنَّ (أبُونَا) في موضع رفع على أنه نائب فاعل، وعلامة رفع الراو لأنَّه من الأسماء الستة^(٤). وكذلك كلمة (بنينا) فهي في موضع نصب باعتبارها

(١) بوبع له بعد موت أبيه، وتولى الخلافة سنة ٦٥ هـ. وقد خرج عليه المختار بالکوفة، وأتبعه خلق كثير، وبايوعه على المطالبة بدم الحسين بن علي بن أبي طالب. وقد تمكّن من القضاء على الثورات التي قامت ضده. وبعد أن استتب له الأمر أخذ يبعث البعثات للجهاد. وكان حازماً عاقلاً فقيهاً متذوقاً للأدب. توفي سنة ٨٦ هـ عن عمر يناهز الستين. دائرة معارف القرن العشرين، ج ٦، ص ٣٨.

(٢) الأفغاني، سعيد: من تاريخ النحو، دار مكتبة الفكر، طرابلس، ليبيا، ص ١١.

(٣) ابن الأباري، عبد الرحمن: نزهة الأنبياء، ص ٢١.

(٤) ابن هشام الانصاري: شرح شذور الذهب في معرفة كلام العرب، تحقيق محمد محي الدين عبد الحميد. المكتبة التجارية الكبرى، القاهرة، ١٩٦٥، ص ٤٠.

مفعولاً به لـ(ترك)، وعلامة نصباها الياء لأنها من المحلقات بجمع المذكر السالم^(١).

وورد في رواية أخرى أنَّ ابنة أبي الأسود الدؤلي قالت لأبيها متعجبة: «ما أحسن السماء، فقال لها: نجومها. فقالت إني لم أرُدْ هذا؛ وإنما تعجبت من حسنها. فقال لها: إذاً فقولي ما أحسن السماء. فخيثت وضعت النحو»^(٢). وإذا نظرنا إلى كلام ابنة أبي الأسود نجد اللحن فيه ظاهراً. وقد أدى هذا اللحن إلى سوء فهم مرادها. فهي تريد التعجب من جمال السماء وحسنها. وسبب هذا الالتبس أنها لم تنصب (السماء)، بل جرّتها متوجهة أن (أحسن) مرفوع و (السماء) مخوضة بإضافة (أحسن) إليها. ووفق قراءتها لتلك الجملة، تصبح (ما) مبتدأ و (أحسن) خبرًا له. ويكون معنى الكلام استفهاماً لا تعجبًا. واستقامة المعنى، أي: لمجيئه تعجبًا صحيح أبو الأسود الخطأ، فأصبحت الجملة: ما أحسن السماء.

إنَّ تلك النماذج من اللحن في كلام الخاصة والعامة، أثرت سلباً على القرآن. ولو لم تكن في الآيات القرآنية؛ إذ هي مسيئة للغة العربية بشكل عام، وللقرآن والحديث النبوى الشريف بشكل خاص؛ لأنَّ أي خطر يواجه تلك اللغة، بنظر المسلمين، يهدد القرآن في آن واحد. من هنا نقول إنَّ المحافظة على كتاب الله نابعة من صميم المحافظة على هذه اللغة. ومن هنا نقول أيضاً إنَّ السبب الأهم في وضع النحو هو سبب ديني؛ إذ إنَّ نشأة هذا العلم ترعرعت في رحاب القرآن الكريم، وإنَّ اللحن في قراءة هذا الكتاب، كان اللافت للانتباه، والداعي لتقديره كلام العرب، بما يحفظ عليهم لغتهم فصيحة سليمة من الإضمحلال والزوال. نعم نشأ النحو العربي بوحي من القرآن، كما نشأت سائر العلوم الإسلامية والعربية بوحي منه أيضاً، ونضجت في ظلاله لخدمته. وفي هذا يقول مصطفى الرافعى^(٣) في (تاريخ آداب العرب): «غير أنَّ نوثق الكلمة في أنَّ القرآن الكريم كان سبب العلوم الإسلامية، ومرجعها كلها، بأنه ما علم إلا وقد نظر أهله في القرآن، مادة علمهم، أو ماده الحياة له»^(٤).

(١) المصدر نفسه، ص ٥٥.

(٢) ابن الأباري، عبد الرحمن: نزهة الأنبياء، ص ٢١.

(٣) هو بن عبد الرزاق بن سعيد بن أحمد الرافعى. كان عالماً بالأدب وشاعراً فذاً. أصله من طرابلس الشام ولد في بيته سنة ١٢٩٨ هـ، ١٨٨١ م، وتوفي في طنطا بمصر سنة ١٣٥٦ هـ، ١٩٣٧ م. كان قد أصيب بصمم، فكان يكتب له ما يراد مخاطبته به. الأعلام للزركلى، ج ٧، ص ٢٣٥.

(٤) الرافعى، مصطفى صادق: تاريخ آداب العرب، ج ٢، ص ١١٨.

لكن أبرز العلوم التي تخدم القرآن هي النحو، لأنه «أخص ما يخدم به نص القرآن، ويحافظ به عليه، ويفهم به... فلام عجب إن كان هذا الكتاب الخالد هو الباعث الأول على نشأة النحو، وأن يوضع هذا العلم في رحابه، ابتناء القدرة على النطق به صحيحاً سليماً من اللحن والقدرة على فهمه، وابتناء وجه الله، بخدمته وخدمة أتباع دينه»^(١).

ومن ذلك يمكن القول إنه، كما بذلت جهود كبيرة لتوثيق النص القرآني بالرواية والكتابة، كذلك بذلت جهود جبارة لإنجاز عمل عظيم من قبل العلماء، كانت حاجة المسلمين تدعو إليه، وتحتمه الظروف الإجتماعية، بعد اتساع دولتهم، حيث تعرضت أسلوبهم للضعف، وسلامتهم السليمة للفساد. ويتمثل هذا الإنجاز بوضع علم النحو وما يرتبط به من قواعد وقوانين، وذلك لتأدية واجب ديني إسلامي تجاه من دخلوا في الإسلام الذين رغبوا في تعلم القرآن، للنطق به نظراً صحيحاً بعيداً عن الارتجاع^(٢) بكلماته ومخارج حروفه، وبهذا يكون الربط بين القرآن والنحو وثيقاً للغابة. فالصلة عن هذا العلم، في نظر المسلمين، كالصلة عن كتاب الله؛ لأن ضياع النحو طريق لضياع القرآن وفساد النطق به باضطراب الألسنة، وذهاب ضوابط العربية، وانغلاق معاني القرآن يفقد وسيلة فهمها واستخراج كنزها.

أما العامل الثاني الذي ساعد على وضع النحو ونشأته فهو الباعث القومي.

ثانياً - الباعث القومي :

أغفلت معظم المراجع العربية الحديثة هذا العامل والعوامل الأخرى، الاجتماعية والسياسية وتطور العقل العربي. وقد مر بعضهم على ذكرها مروراً عابراً. ولعل ذلك عائد إلى اعتقادهم أن العامل الديني طفى على كل ما عداه من الأسباب والبواعث التي دعت إلى وضع النحو، علماً بأن أحداً لا ينكر على الإطلاق أن الباعث الديني كان على وأسـ الدواعي والدowافع، لا بل كان يبرزها وأهمها باعتباره سبباً مباشرـاً لوضع النحو. لكننا لا نستطيع أن نحمل

(١) رفيه، يبراهـ عبد الله: النحو وكتب التفسير، ج ١، ص ٤٣.

(٢) الارتجاع مصدر ارتجاع. يقال: ترافقـ القوم أي: ترافقـ. ويقال: هو يرتفعـ لكتـة أعمـية يـدـاـتـ معـ تـعـجـهـ. ثـ مـاـ سـارـ إـنـىـ اـنـعـربـ، فـهـوـ يـنـزـعـ إـلـىـ الـعـجمـ فـيـ الـقـاظـ وـلـوـ اـجـهـدـ. محـظـ شـمـجـ شـفـرـسـ الـبـشـرـيـ، مـادـةـ (وـضـ خـ).

الد الواقع الأخرى، وإن كانت أقل تأثيراً من العامل الديني؛ إذ كان لها دور، لا يستهان به في مسألة نشأة علم العربية^(١)

نعود لنتكلّم عن الباعث القومي ونقول إن الله سبحانه وتعالى، قد أكرم العرب عندما اختار من بينهم رسولاً عربياً، وأكرمهم أيضاً بإنزال القرآن الكريم بلغتهم. قال الله عز وجل: «إِنَّا أَنزَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا» [يوسف: ٢]، فاحتلت تلك اللغة مكانة عالية بين اللغات العالمية؛ ما دفع طه حسين إلى القول: «اللغات العالمية ثلاثة لغات فقط: اليونانية واللاتينية ثم العربية بعد الفتح الإسلامي»^(٢). وقد غُزِّزَ مركز العرب الذين اعتذروا بأنفسهم حين خاطبهم الله تعالى قائلاً: «كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ» [آل عمران: ١١٠].

من هنا نظر العرب إلى أنفسهم نظرة إعجاب وتقدير، وشعروا أن عليهم أن يكونوا كما شاء الله لهم؛ إذ وضعهم في مرتبة تسمى بالعظمة والمنزلة الرفيعة. وقد دفعهم ذلك إلى الافتخار بكل ما هو عربي، وبخاصّة اللغة التي اعتبروا بها واعتذروا اعتماداً قوياً. وقد ولد هذا الإعتزاز في نفوسهم الإحساس بالخوف على تلك اللغة من الفساد والضياع، والإندثار في خضمّ لغات الشعوب المتقدفة إلى جزيرتهم؛ ما دفعهم إلى الحرص على رسم أوضاعها خشية عليها من الفناء^(٣). وبدافع الغيرة عليها ذهب أبو الأسود الدؤلي إلى زياد بن أبيه، وقال له: «إني أرى العرب قد خالطت الأعاجم، وتغيرت أسلوبهم. أفتاذن لي أن أضع للعرب كلاماً يعرفون أو يقيمون به كلامهم؟»^(٤).

وقد ذكر الدكتور فتحي عبد الفتاح أن الموجات البشرية من موالي وسيابحة وزط من الفرس، وأتراك وأحباش كانت قد تدفقت إلى الكوفة والبصرة حيث شكلت مع مرور الأيام تنظيمات صارت العرب في أرضهم وهزمتهم وانتزعت من

(١) الأسعد، عبد الكريم محمد: الوسيط في تاريخ النحو العربي، دار الشواف للنشر والتوزيع، الرياض. ١٩٩٢، ص ٢٢ وما بعدها.

الطنطاوي، محمد: نشأة النحو، ص ١٦ وما بعدها.

العيدي، عوض محمد: النحو العربي ومناهج التأليف والتحليل، ص ٣٥.
رفيدة، إبراهيم عبد الله: النحو وكتب، ج ١، ص ١٥.

(٢) حسين، طه: مجلة آخر ساعة، عدد ١٦٢٢، تاريخ ١٤/١١/٦٧.

(٣) ضيف، شوقي: المدارس النحوية، دار المعارف بمصر، ط ٢، ص ١٢.

(٤) السيرافي، الحسن بن عبد الله السيرافي: أخبار النحويين البصريين، اعنى بنشره وتهذيبه فرنسيس كرنتوك، بيروت، المطبعة الكاثوليكية، ١٩٣٦، ص ١٧.

أيديهم زمام الأمور في السياسة والإدارة، فتهددت لغتهم بالأنقراض والزوال. وبدافع التعلق ب تلك اللغة باعتبارها لغتهم القومية، هب العرب لصونها ودرء خطر اللحن عنها بوضع قوانينها وقواعدها^(١).

ويبدو الباعث القومي أكثر وضوحاً في ما قاله الشاعري: «من أحب الله تعالى أحب رسوله محمدًا صلوات الله عليه، ومن أحب الرسول العربي أحبَّ العرب، ومن أحبَّ العرب أحبَّ العربية، ومن أحبَّ العربية عنِّي بها، وثابر عليها، وصرف همتَه إليها... أعتقد أنَّ محمداً صلوات الله عليه خيرُ الرسل والعرب خيرُ الأمم والعربية خيرُ اللغات والألسنة، والإقبال على تفهمها من الديانة؛ إذ هي أداة العلم ومفتاح التفقه في الدين، وسبب إصلاح المعاشر والمعاد»^(٢).

ثالثاً - الباعث الاجتماعي :

بعد تنامي اللحن، شعر علماء العرب بأنَّ الأمر يقضي بحث الموالي على تعليمهم العربية، باعتبارهم أخوة للعرب في الدين. فأبوا الأسود الدُّؤلي يرى أنَّ هؤلاء الموالي رغبوا في الإسلام، ودخلوا فيه، وصاروا أخوة؛ لذلك يجب تعليمهم الكلام. ويبدو أن التركيز على تعليم هؤلاء الموالي مرده أنهم أصبحوا يمثلون نصف السكان في المجتمع الإسلامي وبخاصة في البصرة التي جاءت إليها القبائل العربية من كل حدب وصوب، ولا سيما بعد الفتح الإسلامي. ثم إنَّ الحياة الاجتماعية في تلك المدينة، قد تغيرت مع مرور الزمن؛ إذ أصبحت البصرة تعجُّ بمختلف الأجناس التي لم تستطع إتقان أساليب اللغة العربية في المرحلة الأولى من مجدها. كما أنَّ الجزيرة العربية أصبحت مرتدًا للأعاجم؛ فحاضرة الإسلام، في عهد الخلفاء الراشدين، هي المدينة، ومقصد المسلمين كلهم في الحجَّ مكة المكرمة. وكان الناس من جميع الأجناس، يتذفرون للحج لتأدية الفريضة التي أمر الله بها من استطاع إليها سبيلاً، أو يأتون لقضاء بعض مصالحهم في حاضرة الخلافة أحياناً. والمعروف أنَّ عرب الجزيرة، كانوا قد ملكوا رقيقاً كثيراً وأسكنوهم معهم في الحجاز وغيره،

(١) الذُّجي فتحي عبد الفتاح: أبو الأسود الدُّؤلي ونشأة التحرر العربي، وكالة المطبوعات، الكويت، ١٩٧٤، ص ٥٦ - ٥٧.

(٢) الشاعري، عبد الملك بن محمد بن إسماعيل أبو منصور: فقه اللغة وسر العربية، تحقيق مصطفى السقا، ط ٢، ١٩٥٤، المقدمة ص ١. والشاعري من أئمة اللغة والأدب. وهو من نسيابور. وكان فرعاً، يحيط جلود الشعالب، فنسب إلى صناعته. صنف كتاباً كثيرة ممتدة. منها: بحث الدهر، فقه اللغة، سحر البلاغة ومكارم الأخلاق، الأعلام للزركلي، ج ٤، ص ١٦٣.

فضلاً عن اختلاط العجم بالعرب في البيوت، والأسواق والمناسك، والمساجد، ما أدى إلى خلل في لسان العرب. ولم يكن الإختلاط في الأمسار أقل سلباً منه في الجزيرة العربية على اللغة. فقد خالط عرب مصر القبط، وعرب الشام الشاميين، وعرب العراق الفرس والنبط^(١)، فدبّ اللحن إليهم إذ إن اللغة العربية لغة معربة. وهكذا فإن التفاعل الاجتماعي بين مختلف الأجناس من عرب وعجم قد أدى إلى فشو اللحن الذي شكل خطراً هذداً اللغة العربية بالضعف والضياع^(٢).

وذكرت بعض المراجع العربية الأخرى أن مردّ الバاعث الاجتماعي يكمن في أن الشعوب المستشربة وجدت أنها بحاجة ملحة إلى مَنْ يوضح لها مسائل الإعراب والتصريف في اللغة العربية، ليتسنى لها النطق بأساليبها، نظماً سليماً، واتقانها نظماً جيداً^(٣).

بالإضافة إلى ذلك، فقد رأى الداخلون الجدد في المجتمع العربي أنه لا بد لهم من فهم اللغة العربية، ليتعاشروا، ويتكيفوا في هذا المجتمع الجديد؛ لأنهم أحسوا أنَّ مَنْ يتعلم العربية، تقوده إلى المنطق وتقربه من تولّي مقايد الأمور. قال ابن شيرمة^(٤): «إذا سرَّكَ أَنْ تَعْطُّمَ فِي عَيْنِ مَنْ كَنْتَ فِي عَيْنِهِ صَغِيرًا، وَيَصَغِرُ مِنْ كَانَ فِي عَيْنِكَ عَظِيمًا، فَتَعْلُمُ الْعَرَبِيَّةَ؛ فَإِنَّهَا تَجْرِيكَ عَلَى الْمَنْطَقِ، وَتَدْنِيكَ مِنَ السُّلْطَانِ»^(٥).

رابعاً - البااعث السياسي:

ذكر أحمد أمين^(٦) أنه، بعد انتقال السلطة إلى الأمويين وإمساكهم بزمام الخلافة، بدأت ظاهرة التعصب العربي تلوح في الأفق، إذ إنَّ الحكم الأموي لم

(١) النبط جيل من العجم ينزلون بالبطانع، بين العراقيين. وسمُّوا بهذا الاسم لكثرة النبط عندهم. وهو الماء. وسمى أولاد شيت أباطاً لأنهم نزلوا هناك هناك هذا أصله ثم استعمل في اختلاط الناس وعوامهم. ومنه كلمة النبطية، البستاني، بطرس: محبي المحبيط مادة (ن بـ ط).

(٢) الذجني فحي عبد الفتاح: أبو الأسود الدؤلي ونشأة التحو العربي، ص ٤٨.

(٣) ضيف، شوقي: المدارس النحوية، ص ١٢.

(٤) هو عبد الله بن شيرمة بن الطفيلي الكوفي. كان من علماء الفقه والحديث توفي سنة ١٤٤ هـ. دائرة معارف القرن العشرين لمحمد فريد وجدي، ج ٥، ص ٣٦٢.

(٥) ابن قيبة، عبد الله بن مسلم: عيون الأخبار، ج ٢، ص ٥٥.

(٦) هو ابن الشيخ إبراهيم الطباخ. كان عالماً بالأدب، غزير الأطلاع على التاريخ، وبعد من كبار الكتاب. مؤلفاته كثيرة. ولد في القاهرة سنة ١٢٩٥ هـ. وتوفي فيها سنة ١٣٧٣ هـ.

يُكَن حِكْمَة إِسْلَامِيَا قَائِمًا عَلَى قَاعِدَة الْعَدْلِ وَالْمَسَاوَة بَيْنَ فَنَاتِ النَّاسِ، وَفِي ظَلِهِ لَمْ يَكَانَا مَنْ أَحْسَنْ، عَرَبِيًّا كَانَ أَوْ مَوْلَى، وَيَعَاقِبُ فِيهِ مَنْ أَجْرَمْ، عَرَبِيًّا كَانَ أَوْ أَعْجَمِيًّا. وَكَانَت التَّزْرِعَةُ الْجَاهِلِيَّةُ طَاغِيَةٌ عَلَى التَّزْرِعَةِ الإِسْلَامِيَّةِ؛ إِذَا إِنَّ الْحَقَّ وَالْبَاطِلَ يَخْتَلِفانِ بِالْخُلَافَاءِ مَنْ صَدَرَ عَنِ الْعَمَلِ. فَالْعَمَلُ حَقٌّ إِذَا صَدَرَ عَنْ عَرَبٍ مِنْ إِحْدَى الْقَبَائلِ، وَهُوَ بَاطِلٌ إِذَا صَدَرَ عَنْ مَوْلَى أَوْ عَرَبِيًّا مِنْ قَبْيلَةِ أُخْرَى^(١). إِذَا هَذَا التَّعَصُّبُ دَفَعَهُمْ إِلَى الْإِهْتِمَامِ بِكُلِّ مَا هُوَ عَرَبِيٌّ وَبِخَاصَّةِ الْلُّغَةِ. فَتَشْكِيلُ الْقُرْآنِ الْكَرِيمِ تَمَّ فِي عَصْرِ الْأُمَوَيْنِ عِنْدَمَا كَانَ زِيَادُ بْنُ أَبِيهِ عَامِلًا لِمَعَاوِيَةَ عَلَى الْبَصْرَةِ^(٢)

خامسًا – تطوير العقل العربي :

يضاف إلى البواعث الآنفة الذكر، أنَّ مَسْتَوِيَ الْعُقْلِ الْعَرَبِيِّ، مِنْ نَاحِيَةِ التَّطْوِيرِ وَالرُّقِيِّ، قَدْ بَلَغَ حَدًّا بَعِيدًا، اسْتَنادًا إِلَى مَبْدَأِ قَانُونِ الْإِرْتِقاءِ عَنِ الدُّرُّشِ؛ مَا تَسْاعِدُ عَلَى وَضْعِ عِلْمِ النَّحْوِ، بِمَا فِيهِ مِنْ مَسَائِلٍ وَقَوَانِينِ، تَطْوِيرٌ مَعَ تَقْلِيبِ الظَّرُوفِ، وَانْتَظَمَتْ أَقْيَسْتَهَا اِنْتَظَامًا دَقِيقًا^(٣).

تَلَكَ هِي الْبَوَاعِثُ الَّتِي كَانَتْ تَهْدِي إِلَى وَضْعِ النَّحْوِ، لِصُونِ الْلُّغَةِ، وَالْمَحَافَظَةِ عَلَيْهَا، باعتبارِهَا لِغَةُ الْعَرَبِ وَالْإِسْلَامِ.

وَإِذَا كَانَ عَلَيْنَا أَنْ نَعْرِفَ أَسْبَابَ نَشَأَتِ النَّحْوِ الْعَرَبِيِّ، فَعَلَيْنَا أَيْضًا أَنْ نَعْرِفَ، مَتَى وَضَعَ هَذَا الْعِلْمُ، وَفِي أَيِّ مَكَانٍ؟

متى وضع النحو، وأين؟

ذُكِرَتْ بعْضُ الْمَصَادِرِ الْقَدِيمَةُ أَنَّ عِلْمَ النَّحْوِ كَانَ مَوْجُودًا، قَبْلَ الْإِسْلَامِ، لَكِنَّهُ انْدَثَرَ عَلَى كَرَّ الْأَيَّامِ، ثُمَّ مَا لَبِثَ أَنْ جُدِّدَ بَعْدَ الدُّعَوَةِ الْمُحَمَّدِيَّةِ عَلَى أَثْرِ فَشْوِيِّ الْلُّحْنِ وَانْتَشارِهِ بَيْنَ النَّاسِ الَّذِينَ خَالَطُوا الْمَوَالِيَ.

وَفِي ذَلِكَ يَقُولُ أَحْمَدُ بْنُ فَارِسٍ: «نَقُولُ إِنَّ هَذِينِ الْعَلِيمَيْنِ^(٤) قَدْ كَانَا قَدِيمَيْنِ، وَأَنْتَ عَلَيْهِمَا الْأَيَّامِ، وَقَلَّا فِي أَيْدِيِ النَّاسِ، ثُمَّ جَدَّهُمَا^(٥) هَذَانِ الْإِمَامَانِ»^(٦).

(١) أمين، أحمد: ضحى الإسلام، ج ١، ٢٧.

(٢) الذجني، عبد الفتاح: أبو الأسود الدؤلي ونشأة النحو العربي، ص ٥٧.

(٣) ضيف، شوقي: المدارس النحوية، ص ١٢.

(٤) أي: النحو والعروض.

(٥) أي: أبو الأسود الدؤلي، والخليل بن أحمد.

(٦) ابن فارس، أحمد: الصاحبي في فقه اللغة، وسنن العربية في كلامخا، تحقيق مصطفى الشريبي، مؤسسة أ - للطباعة والنشر، بيروت ١٩٦٤ م، ص ٣٨.

ويقدم ابن فارس الأدلة على أنَّ العرب، قبل الإسلام، كانوا يتأملون موقع الكلام، ولم يتكلموا عن طبع سلبيقة؛ إنما كان كلامهم ناتجاً من خبرة عريقة بقانون العربية. يقول في (الصاحب): «ومن الدليل على عرفان القدماء من الصحابة وغيرهم بالعربية، كتابتهم المصحف على الذي يعلمه النحويون في ذوات الروا والياء والهمز والمد والقصر، فكتبوا ذوات الياء وذوات الواو بالواو، ولم يصورووا الهمزة إذا كان ما قبلها ساكناً في مثل: الخبراء والذفء والملء»^(١). والغريب في الأمر أنَّ ابن فارس ينافق نفسه حين يقول في (معجم مقاييس اللغة): «وهذا عندنا من الكلام المولَد، لأن اللحن المحدث، لم يكن في العرب العارية الذين تكلموا بطباعهم السليمة»^(٢) فكيف يكون النحو قائماً في الجاهلية، وعرب هذا العصر، يتكلمون عن سلبيقة وطبع سليم؟

وخلالَ ابن فارس، فقد أجمعَت معظم المصادر القديمة الأخرى أنَّ النحو العربي لم يكن قائماً في العصور التي سبقت الإسلام؛ لأنَّ العرب، في تلك الحقبة الزمنية كانوا ينطقون عن سلبيقة جبلوا عليها. وفي ذلك يقول أبو بكر الزبيدي: «ولم تزل العرب تنطق على سجيتها في صدر إسلامها، وماضي جاهليتها»^(٣).

وتذهب المراجع العربية الحديثة إلى أنَّ الطرق الخاصة بالإداء في اللغة، قد التزمت بإطراد في تراكيبيها وأساليبيها ومررت عليها ألسنة العرب، وتمكنَت من طبائعهم قبل أن توضع لها القواعد النحوية. وبهذا يكون النحو قد نشأ فثأ قبل أن يكون علمًا^(٤).

وهكذا فإنَّ غالبية القدماء والمحدثين يرون أنَّ النحو لم يوضع في العصر الجاهلي، بل وضع في الصدر الأول للإسلام؛ ذلك أنَّ العرب كانوا ينطقون عن سلبيقة فطروا عليها قبل ظهورها للإسلام. ولم يكونوا بحاجة إلى ضابط كلامي يخضعون له. فقانونهم ملكتهم التي نشأت معهم. غير أنَّ الأمر تغير بعد انتشار الدعوة الإسلامية ومخالطة العرب لشعوب الأمصار المفتوحة؛ إذ أصبحت الحاجة

(١) المصدر نفسه، ص ٣٩.

(٢) ابن فارس، أحمد: معجم مقاييس اللغة، ج ٥، ص ٢٣٩.

(٣) أبو بكر الزبيدي: طبقات النحوين واللغويين، ص ١١.

(٤) عمر، أحمد مختار: البحث اللغوي عند العرب، عالم الكتب، القاهرة، ط ٤، ١٩٨٢، ص ٨٠. فتحي عبد الفتاح الدجني: أبو الأسود الدؤلي ونشأة النحو العربي.

ملحة لإيجاد علم يحمي اللغة من الفساد، ويضع لها قواعد تحفظها من الفناء، وتصونها من اللحن، فنشأ علم النحو^(١).

وعلى الرغم من غلبة الرأي القائل بأن النحو العربي لم يكن موجوداً قبل الإسلام بحجة أنَّ العرب كانوا يتكلمون عن سلية طبِّعوا عليها، فإنني أميل إلى رأي أحمد بن فارس الذي هو نقىض الآراء الأخرى. ذلك أنَّ علم النحو بقوانيقه وقواعداته وضوابطه وترابطيه التي تحتاج إلى إجهاد فكر، وكذا ذهن، وشحد عقل، وعمل ذُرُوب متوالٍ، ودراسة وافية معمقة، وتفصيل وتحليل، واستقراءات واستنتاجات إلى ما هنالك من جهود مضنية وأوقات طويلة، كان موجوداً في العصر الذي سبق صدر الإسلام، لأنَّ العرب كانوا يحيطون بكل قواعده وضوابطه. فالمعروف أنَّ أي علم من العلوم أو أي اختراع من الاختراعات لا يتحقق فجأة دون أن تسبقه تحضيرات ومحاولات وأعمال مضنية نتمكن في خلالها حيازته. ومن هنا فإنني أثق في ابن فارس بوجود النحو في العصر الجاهلي.

وقد مَالَ إلى هذا الرأي الشاعر معروف الرصافي^(٢) في محاضرة تناول فيها (تاريخ الأدب العربية) حين قال: «ولا شك أن الإعراب كان موجوداً في كلام جميع طبقات العرب في العصر الجاهلي، بدليل الشعراء حتى العبيد كفتة مثلاً كانت لغتها فصحى»^(٣).

أما مكان وضع النحو فكان مدينة البصرة في العراق، وذلك لقرب تلك المدينة من حدود الbadية، ولكونها ملتقى القبائل العربية التي بلغ عددها مائتين وتسعين قبيلة^(٤)، ومركزاً لطبقة الموالى الذين تکاثروا في المدن الإسلامية كثرة، ظاهرة، ولا سيما في البصرة والكوفة. وكان معظمهم أسرى العرب في الحروب، وكانوا يعملون في حرف ومهن مختلفة كالزراعة والصناعة. فضلاً عن أنَّ تلك المدينة كانت موئلاً للساسانيين الذين حاربوا مع العرب، وللسياجنة والزط من

(١) الطنطاوي، الشيخ محمد: نشأة النحو، ص ٢٠.

الذجني، فتحي عبد الفتاح: أبي الأسود الدؤلي ونشأة النحو العربي، ص ٤٠.

(٢) هو ابن عبد الغني البندادي الرصافي. كان شاعر العراق في عصره، وعضوًا من أعضاء المجمع العلمي العربي بدمشق، ولد ببغداد سنة ١٢٩٤ هـ ونشأ في الرصافة. تلمذ لمحمود شكري الألوسي في علوم العربية. له أروع القصائد في الاجتماع والثورة على الظلم قبل الدستور العثماني. توفي سنة ١٣٦٤ هـ. الأعلام للزرکلي، ج ٧، ص ٢٦٨.

(٣) الرصافي، معروف: دروس في تاريخ أداب اللغة العربية - جامعة بغداد، طبع وتقديم صلاح خالص ص ١٠٩، طبعة بغداد.

(٤) ابن سعد: الطبقات الكبرى، ج ٧، ص ٥.

بلاد فارس، والأتراء الذين أسرروا في الحروب والآحباش الذي أقاموا في البصرة منذ عهد عمر بن الخطاب . وكان العراق بشكل عام ، والبصرة بشكل خاص مركزاً لإقامة القبائل العربية ، وتلك الطبقات والعناصر من الموالي ، لرخاء الحياة هناك . وقد أدى امتزاج هذه الأجناس إلى جعل المدن العراقية وبخاصة البصرة منها ظهر بلد انتشر فيه وباء اللحن الذي دفع العلماء إلى وضع التحو ، في الوقت الذي لم يكن لعرب الجزيرة حاجة لهذا العلم باعتبار لغتهم فصيحة^(١) .

وإذا كان العرب بحاجة ملحة إلى التحو لحماية لغتهم من الرطانة ، وحسن قرائهم من كل شائبة تفسد معانيه ، وتخلُّ بقراءة آياته البيانات ، لكونه منبع شريعتهم ، فمن أين أقتبسوه؟ وما أصله؟ ومن الذي وضعه؟

(١) الذجني ، فتحي . أبو الأسود الدؤلي ونشأة التحو العربي ص ٥٤ . محمد الطنطاوي : نشأة التحو ، ص ٢١ .

أصول النحو العربي

تمهيد:

إن حاجة العرب للنحو دفعتهم إلى وضعه، وبعثه من جديد، لصون لغتهم التي أنزل الله، تعالى، بها قرآنهم المجيد، وحافظاً على شريعتهم النابعة من هذا الكتاب العظيم، وعلى دينهم الحنيف الذي نقلهم من الظلمات إلى النور، وحماية لكل ما هو عربي، وفي طليعته اللغة التي يفخرون بها ويغترّون، وتلبية لدعوة الراغبين، من غير العرب الذين هم لهم أخوة في الدين، ليتقنواها إتقاناً سليماً يساعدهم على فهم النص القرآني؛ ذلك لأن الكتاب الحكيم يمثل دستورهم الذي ينظم حياتهم على كل الصعد، وفي كل المجالات.

وبناءً على ما تقدم، فهل يكون النحو، عند العرب، مقتبساً من لغات سواهم أم هو أصيل الطابع؟ ومن الذي أنسنه ووضعه منهم؟

أصل النحو العربي:

تعددت آراء الباحثين في قضية أصل النحو العربي. فبعض المحدثين يرى أنَّ أصل هذا العلم هو اللغة السريانية بفعل اتصال العرب بالسريانيين منذ الجاهلية. وبفضل هذا الاتصال حصل تأثير بين اللغتين العربية والسريانية. وفي ذلك يقول جرجي زيدان^(١): «فالظاهر أنَّ العرب، لما خالطوا السريان في العراق، اطلعوا على أدبهم وفي جملتها النحو، فأعجبهم، فلما اضطروا إلى تدوين نحوهم نسجوا على منواله لأنَّ اللغتين شقيقتان». ويؤيد ذلك أنَّ العرب بدأوا بوضع النحو، وهو

(١) هو جرجي بن حبيب زيدان. ولد في بيروت حيث تعلم فيها، ثم رحل إلى مصر، فأصدر مجلة الهلال. وله تصانيف كثيرة منها: تاريخ مصر الحديث، تاريخ التمدن الإسلامي، تاريخ العرب قبل الإسلام وتاريخ الماسونية العام. توفي سنة ١٣٢٢ هـ. ١٩١٤ م. الأعلام للزركلي، ج ٢، ص ١١٧.

في العراق بين السريان والكلدان، وأنَّ أقسام الكلام في العربية هي نفس أقسامه في السريانية^(١).

ويذهب شوقي ضيف إلى أنَّ العرب اتصلوا بالسريانية قبل الفتح الإسلامي، ثم قوي هذا الاتصال بعد هذا الفتح، إذ كانوا يقيمون في حوض دجلة الأعلى، وفي الجنوب حول الحيرة، وفي الحيرة نفسها. وكانوا يدينون بال المسيحية، وتتأثر هؤلاء بالسريانية وتعلم الكثير منهم اللسان السرياني^(٢).

كذلك يصرح أمين بأُدب السريانية كانت في العراق قبل الإسلام، وكان لها قواعد نحوية؛ ما ساعد على وضع قواعد عربية على نمط «أَدَبِ رَاعِدِ السريانية، ذلك أنَّ اللغتين من أصل سامي واحد»^(٣).

أما الأب إسحاق ساكا، فقد كتب بحثاً عن النحو وأهله، نشرته مجلة العربي يقول فيه: إنَّ معظم العلماء الثقة يعتقد أنَّ أباً الأسود الدؤلي، اقتبس نحوه من السريان من جهة تقسيم الكلمة إلى ثلاثة أقسام التي هي الاسم والفعل والحرف^(٤). وهذا التقسيم مفتاح النحو وأساسه الذي تفرع منه أبوابه وتنوع شعابه، ومن جهة النقاط السريانية التي تتغير بها الكلمات. وتمثل هذه النقاط الحركات^(٥) التي ابتكرها قبل ذلك المطران يعقوب الراهوي.

كذلك رأى كل من أحمد حسن الزيات^(٦) وحسن عون أنَّ العرب اقتبسوا نقاط النحو السرياني إلى النحو العربي^(٧).

وقد ذهب فريق آخر من المحدثين زاعماً أنَّ العرب اقتبسوا نحوهم من

(١) زيدان، جرجي بن حبيب: تاريخ أداب اللغة العربية، منشورات دار مكتبة الحياة - لبنان، ج ١، ص ٢١٩.

(٢) ضيف، شوقي: التطور والتجدد، ص ٤٠.

(٣) أمين أحمد: فجر الإسلام، ص ١٨٣.

(٤) ساكا، الأب إسحاق: مجلة العربي، العدد ١٠٦، عام ١٩٦٧، ص ٥١.

(٥) الذجني، فتحي عبد الفتاح: أبو الأسود الدؤلي ونشأة النحو العربي، ص ٦١.

(٦) هو أديب من كبار الكتاب المصريين. ولد سنة ١٣٠٢ هـ، ١٨٨٥ م في قرية كفر دميرة القديم، في طلخا. ودخل الأزهر قبل الثالثة عشرة. درس في اللغة العربية في جميع المراحل التعليمية. من مؤلفاته: العراق كما عرفته. وأنشأ مجلتي الرسالة والرواية. وكان عضواً في مجمع اللغة العربية. توفي في القاهرة سنة ١٣٨٨ هـ، ١٩٦٨ م، الأعلام للزركلي ج ١، ص ١١٤.

(٧) الزيات، أحمد حسن: تاريخ الأدب العربي ص ٢٠٦ ط ٢٥ القاهرة.

عون، حسن: اللغة والنحو، ط (١) ١٩٥٢، الإسكندرية، ص ٢١٥.

اليونانيين مباشرة ومن هؤلاء إبراهيم مصطفى الذي قال، نقلًا عن غيره، إن أبو الأسود أخذ النحو عن اليونانية، وهي لغة كان قد قرأها^(١). كذلك ذكر محمد السعران أنَّ النحو العربي كان قد تأثر بمنطق أرسطو في مراحله الأولى^(٢).

بعد هذا العرض للأراء القائلة إنَّ النحو العربي مأخوذ عن السريانية واليونانية، يظهر لي أنَّ تلك الآراء تجاذب الواقع وتبتعد عن الحقيقة؛ ذلك أنَّ جرجي زيدان وأحمد أمين لم يقفا عند هذه القضية وفقة الدارس المحقق؛ فالأستاذ زيدان تعرض لتلك القضية عرضاً، وأحمد أمين لم يدرسها دراسة جيدة وافية. بل كانت دراسته يغلب عليها الاضطراب والتخييب. فهو في كتابه (فجر الإسلام)، عندما ما يتحدث عن الاختلاط البشري بين العرب وغيرهم من شعوب البلاد المفتوحة، يشير إلى النحو العربي من حيث أنَّ الآداب السريانية كانت في العراق، قبل الإسلام، وكان لها قواعد نحوية. وقد سهل ذلك في وضع قواعد عربية على طريقة القواعد السريانية، ذلك أنَّ اللغتين تتحدران من أصل واحد؛ وهو الأصل السامي.

كذلك قرن نشأة النحو الهندي بنشأة النحو عند العرب أي أنَّ الهنود قالوا في أذلية النحو أنَّ ملوكهم كان يوماً في حوض نع نسائه، فقال لإحداهن بالهندية (ماودكندهي) بمعنى: لا ترشني على الماء. فتوهمت أنه يقول لها: (مودكندبي) بمعنى: إحملي حلوى. فجلبت الحلوى. فامتعض الملك من فعلها، فخاشتبه في الخطاب، فانكمش على نفسه وامتنع عن الطعام. ثم احتجب فترة إلى أن جاءه أحد الملوك وسلمي عنه بأنَّ وعده تعليم النحو والصرف. وقد ذهب هذا العالم إلى (مهاديyo) مصلياً مسبحاً وصائمًا متضرعاً، إلى أن ظهر له وأعطاه قوانين يسيرة، كما وضعها في العربية أبو الأسود الدؤلي. ووعده التأييد فيما بعدها من الفروع. ثم رجع العالم الهندي إلى ملكه ليعلمها إياها. وذلك هو مبدأ هذا العلم. ثم يتبع أحمد أمين قوله بأنه يخشى أن تكون حكاية أبي الأسود، قد وضعت في العربية على نمط الحكاية الهندية. وممَّا يرجع ظنه أنَّ الحكاية العربية مختلفة الأشكال، متعددة الرواية، تساؤله حين قال: من قائل إنَّ علي بن أبي طالب هو الذي أوعز إلى أبي الأسود بوضع النحو؟ ومن قائل إنه عمر بن الخطاب؟ ومن قائل إنه زياد بن أبيه؟ ثم من قائل إنَّ سبب الوضع أنَّ قارئاً قرأ «لا يأكله إلا

(١) مصطفى، إبراهيم: مجلة كلية الآداب، جامعة القاهرة، المجلد العاشر، ج ٢، ص ٤، ١٩٤٨.

(٢) السعران، محمد: علم اللغة، دار المعارف، القاهرة ص ٣٦، ١٩٦٢.

الخاطئين؟ ويسترسل أحمد أمين في ترجيح الشك في القصة ليصل إلى نتيجة مفادها أن هناك شيئاً بين ذهاب العالم الهندي إلى (مهاديو) مصلياً مسبحاً، وذهاب أبي الأسود إلى على بن أبي طالب يسأله المساعدة على وضع النحو^(١).

واللافت أن الاضطراب والتخطيط باديان في ما يدللي به أحمد أمين حول الشبه القائم بين النحو العربي والنحو الهندي حين يذهب مذهب الوسط الذي يقوم على أن العرب أبدعوا النحو في الابتداء، وأنه لا يتضمن سوى ما اخترعه صاحبه والذين تقدموا. غير أن العرب تعلموا شيئاً من النحو بعد تعلمهم الفلسفة اليونانية من السريان في بلاد العراق. والنحو الذي تعلموا منه هو ما كتبه أرسطوطاليس^(٢) الفيلسوف. ودليل أحمد أمين على ما يقول هو أن تقسيم الكلمة مختلف. قال سيبويه: «فالكلم اسم و فعل و حرف جاء لمعنى ليس بالإسم ولا فعل»^(٣). وهذا تقسيم أصلي: أمّا الكلام في الفلسفة فيقسم إلى اسم ورباط، أي: الاسم. والكلمة هي الفعل، والرباط هو الحرف الذي يقال له في اللغات الأوروبية (conjonction) أي: ارتباط.

والكلمات اسم وكلمة، ورباط ترجمت من اليوناني إلى السرياني، ومن السرياني إلى العربي. فسميت هكذا في كتب الفلسفة لا في كتب النحو. أمّا كلمات اسم و فعل و حرف، فإنها اصطلاحات عربية، ما ترجمت ولا نقلت^(٤).

إن التناقض في تصريحات أحمد أمين دفع الدكتور فتحي عبد الفتاح الدجني إلى القول: إن: «أحمد أمين نراه يعترف أخيراً بأن النحو عربي أصيل العربية، كما أن التقسيم الذي أثار ضجة المستشرقين وغيرهم، واعتبروه سريانياً تارة، ويونانياً تارة أخرى، وإنما هو عربي الأصل والنشأة معاً»^(٥).

(١) أمين، أحمد: فجر الإسلام، ص ١٨٣.

ضحى الإسلام، ج ١، ص ٢٤٥ ط ٦، ج ٢ ص ٢٨٥.

(٢) هو أشهر فلاسفة اليونان الأقدمين. ويمثل أكبر عقل ظهر في السابقين. ولد في إسطاغيرا من Macedonia سنة ٣٨٤ قبل الميلاد، وتوفي سنة ٣٢٢ ق. م. مارس، في بداية حياته صناعة الطب. وفي عصر إزدهار الفلسفة ظاعت فلسفته فلسفه أستاذة أفلاطون ونقطتها، حتى يخيل للمرء أن هذا الفيلسوف تعمد فلسفة أستاذة لغرض في نفسه. الأعلام للزركلي، ج ١، ص ١٦٤.

(٣) سيبويه، عمرو بن عثمان بن قنبر: الكتاب، تحقيق عبد السلام هارون، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ١٩٧٧، ج ١، ص ١٢.

(٤) أمين، أحمد: ضحى الإسلام، ج ٢، ص ٢٨٥ - ٢٩٣.

(٥) الدجني، فتحي عبد الفتاح: أبو الأسود الدؤلي ونشأة النحو العربي، ص ٧١.

أما رأي الأب إسحاق ساكا القائل إن النحو العربي سرياني الأصل بدليل التقسيم المنطقي الموجود في النحو العربي الذي ينقسم فيه الكلام إلى اسم و فعل و حرف، وهو التقسيم نفسه موجود في السريانية، فهو رأى نجله و نقدره، لكنه لم يبلغ حدود حقيقة أصل هذا النحو. قوله في تقسيم الكلام قول صحيح. لكن المعروف أن معظم لغات العالم تتضمن التقسيم الكلامي نفسه الموجود في اللغة العربية^(١). و صحيح أيضاً أن الرواة العرب ذكروا هذا التقسيم عند حديثهم عن نشأة النحو العربي بقولهم إن الإمام علياً ألقى لأبي الأسود صحيفة فيها (بسم الله الرحمن الرحيم)، والكلام كله اسم و فعل و حرف؛ فالاسم ما أنشأ عن المسمى، والفعل ما أنشأ عن حركة المسمى، والحرف ما أنشأ عن معنى ليس باسم ولا فعل^(٢). ففي هذه الرواية لم يذكر الرواة أن هذا التقسيم الكلامي الذي ألقاه علي بن أبي طالب عليه السلام على أبي الأسود أخذه عن السريان أو اليونان، بل هو نحوٌ عربيٌ من ابتكار الإمام نفسه.

والسؤال الذي نطرحه: كيف أتى الأب إسحاق بتلك الأخبار؟ وعلى أي شيء اعتمد حتى يصرح بأن النحو، عند العرب، مقتبس من السريان؟ فإذا كان اعتماده على الظاهرة التي تخص الأفعال، من حيث الصيغة الزمنية بقوله: إن نظام الفعل في العربية هو نفس نظام الفعل في السريانية؛ ففي العربية نقول: بعثك الدار. فالفعل (باع) في هذه الجملة يشير إلى الحاضر في حين أنه في صيغة الماضي. ومثل هذا نجده في السريانية. ثم قوله تعالى: «فَلَمْ يَقْتُلُونَ أَنِيَّةَ اللَّهِ مِنْ قَبْلِ إِنْ كُنْتُ مُؤْمِنِيْكَ» [آل عمران: ٩١]^(٣). ففي هذه الآية يرى الأب إسحاق أن الفعل (تقتلون) مضارع، ولكن النص لا يشير إلى الحال أو الاستقبال، وإنما يشير إلى الزمن الماضي^(٤).

ونرد على حجج الأب إسحاق وبراهينه بأن الفعل الذي استشهد به خاطئ في حالة القطع، لأن (باع) فعل ماضٍ دالٍ على الزمن الماضي فقط، ولا يدل على الحاضر؛ لأن البيع انتهى في وقت معين. كذلك كان استشهاده بالآية الكريمة خاطئاً أيضاً لأن الذي جعله يشير إلى الماضي، ليس الفعل، كما يرى، بل

(١) الذجني، فتحي عبد الفتاح: أبو الأسود الدولي ونشأة النحو العربي، ص ٧١.

(٢) القسطي، علي بن يوسف: إحياء الرواة على أنباء النحو، ص ٤.

(٣) الذجني، فتحي عبد الفتاح: أبو الأسود الدولي، ونشأة النحو العربي، ص ٧٢ - ٧٣.

(٤) الذجني، فتحي عبد الفتاح: أبو الأسود الدولي ونشأة النحو العربي، ص ٧٣.

الجملة. فلو استعملنا الفعل منفرداً ما دلَّ على الماضي. فلو قلنا: لِمَ تقتلون هذا الرجل؟ فهنا نشير إلى المضارع، لا إلى الماضي، كما يذهب الأب إسحاق. وبهذا تكون آراؤه مضطربة لا تقترب من الحقيقة كثيراً.

وهناك اتجاه يرى أن طريقة الشكل هي اللبنة الأولى في بناء النحو العربي، فيذهب إلى أن النحو، عند العرب أخذ نقاطه عن السريانية، مرجحاً أنَّ أباً الأسود كان يعرف السريانية بطريق الاتصال المباشر أو عن طريق الترجمة^(١).

وقد مثل هذا الاتجاه حسن عون الذي، يبدو لنا، أنَّ آراءه ينقصها السند التاريخي، وهي قائمة على التخمين ثم الترجيح؛ ذلك لأننا لم نملك أيَّ دليل يثبت أنَّ أباً الأسود كان يعرف السريانية ويتقنها. فكتب التراجم القديمة والحديثة، لم تُثْبِتْ إلى مثل تلك المعرفة؛ علمًا بأنَّ الرواة والمؤرخين الذين عرضوا سيرته وصفاته وما ثُبِّتَ به، لم يذكروا أنه تعلم السريانية. حتى إنَّ أباً الأسود نفسه لم يشر إلى تعلمه تلك اللغة. ومع ذلك لا يجوز الجزم والحكم بأنه لا يعرف السريانية، فربما كان يعرفها بسبب سهولتها، وحتَّى الرسول ﷺ على تعلم اللغة الأجنبية، لمخالطة أبي الأسود السريان في البصرة وملاحظات العلماء والدارسين لتاريخ النحو العربي التي كانت تشير إلى نوع من الاقتباس الذي لم يحدد بل ورد من خلال إشارات معينة أو باجتهاد محدود كإشارات أحمد أمين وجرجي زيدان وأحمد حسن الزيات والأب إسحاق ساكا^(٢).

أما الاتجاه الذي يمثله عدد من المحدثين كالمستشرقين (ليتمان) و(كارل بروكلمان) وأحمد زكي الأنصاري والشيخ محمد الطنطاوي وغيرهم يرى أنَّ النحو عربيٌ محض، وليس منقولاً عن السريانية. وبذلك يصرُّ الشيخ محمد الطنطاوي بأنَّ النحو نشأ في العراق، صدر الإسلام، نشأة عربية على مقتضى الفطرة، ثم تدرج به التطور تمثِّلاً مع سُلَّة الترقى إلى أنَّ كملت أبوابه، غير مقتبس من لغة أخرى، لا في نشأته ولا في تدرجه^(٣). كذلك صرَّح عباس حسن بأنَّ القواعد اللغوية، ومنها التحوية، مستمدَّة من الكلام العربي الأصيل مباشرة. وبها نستطيع أن نحاكي العرب، ونجعل كلامنا مثل كلامهم، ونجريه معه في مضمار واحد، وذلك: هو القياس^(٤) في اللغة وفروعها. وقال بعض المستشرقين إنَّ النحو العربي

(١) المرجع نفسه، ص ٧٤.

(٢) الدجني، عبد الفتاح: أبو الأسود الدؤلي ونشأة النحو العربي ص ٧٣.

(٣) الطنطاوي، الشيخ محمد: نشأة النحو، ص ٢١.

(٤) القياس يعني محاكاة العرب في طرائقهم اللغوية، حمل كلامنا على كلامهم، في صوغ =

لم ينتقل من اليونان إلى بلاد العرب « وإنما، كما تنبت الشجرة في أرضها، كذلك نبت علم النحو عند العرب، وهذا هو الذي روی في كتب العرب من زمن »^(١). وذكر المستشرق كارل بروكلمان أنَّ الذي يتكرر دوماً عند علماء العرب هو أنَّ علم النحو انبثق من العقلية العربية الممحضة، بقطع النظر عن الروابط بين اصطلاحات هذا العلم ومنطق أرسطو، وفيما عدا ذلك لا يمكن إثبات وجوه أخرى من التأثير الأجنبي، لا من القواعد اللاتينية، ولا من الهندية »^(٢).

إنَّ هذا الاتجاه يقابل الاتجاهات التي أسلفنا ذكرها ويرى أنَّ النحو العربي عربِيُّ النشأة، أصيل الطابع، وظهر بداعي عربيِّ أصيل. ولم يتأثر بالسريانية أو اليونانية أو باللغات المجاورة. ويستند هذا الفريق إلى اتفاق معظم الرَّبَّة والمؤرخين القدامى الثقة، على أنَّ النحو العربي، ابتكره العرب ولم يأخذوه عن غيرهم.

قال ابن سلام الجمحي ^(٣): « أول من أسس العربية، وفتح بابها، وأنهج سبيلها، ووضع قياسها أبو الأسود الدؤلي »^(٤). وذكر ابن الأنباري: « أنَّ أول من وضع علم العربية، وأسس قواعده، وحدَ حدوده أمير المؤمنين علي بن أبي طالب، رضي الله عنه، وأخذ عنه أبو الأسود الدؤلي »^(٥).

كذلك صرَّح أبو الطيب اللغوي ^(٦) في (مراتب النحويين) بأنَّ « أول من رسم

= أصول المادة وفروعها، وضبط الحروف، وترتيب الكلمات وغير ذلك. راجع: اللغة والنحو لعباس حسن، ص ٢٢.

(١) محاضرات ليتمان، راجع نشأة النحو للشيخ محمد الطنطاوي، ص ٢٢.

(٢) بروكلمان، كارل: تاريخ الأدب العربي، نقله إلى العربية عبد الحليم البخار، دار المعارف، ط ٤، ج ٢، ص ١٢٤.

(٣) هو محمد بن سلام الجمحي أبو عبد الله. كان إماماً في الأدب من أهل البصرة. له مؤلفات كثيرة، ولد سنة ١٥٠ هـ ٧٦٧ م. وتوفي سنة ٢٣٢ هـ ٨٤٦ م. الأعلام للزرکلی، ج ٦، ص ١٤٦.

(٤) الجمحي، محمد بن سلام: طبقات الشعراء، ص ٥. إحياء الرواية على آباء النحو للفقطي. دار الكتب المصرية ج ١، ص ١٤.

(٥) ابن الأنباري، عبد الرحمن: نزهة الآباء في طبقات الأدباء، ص ٣.

(٦) هو عبد الواحد بن علي، أبو الطيب اللغوي. يعد من أغنى علماء اللغة في القرن الرابع الهجري ثروة لفظية، ومن أوسعهم اطلاعاً. وهو أحد الذين أذوا اللغة العربية ودارسيها خدمة عظيمة بما صنفوه من كتب وموسوعات. ولد ونشأ في عسکر مكرم. مولده سنة ٢٦١ هـ ووفاته سنة ٣٤٥ هـ. راجع (أبو الطيب اللغوي وآثاره في اللغة) تأليف عادل أحمد زيدان، مطبعة العاني، بغداد ط ١ سنة ١٩٧٠.

النحو أبو الأسود الدؤلي الذي أخذه عن أمير المؤمنين علي بن أبي طالب^(١).
ويبدو لأصحاب هذا الاتجاه أنَّ العرب لم يقتبسوا النحو من آية لغة أخرى،
بل ابتكروه واحتزروه بأنفسهم، نظراً للحاجة الماسة إليه. وليس لدلل على ذلك،
عندهم، مما ذكره الرواة والمُؤرخون القدماء الموثوق بهم.

ويبقى الاتجاه الأخير الذي يمثل المذهب الوسط. وقد ضمَّ هذا الاتجاه
عدهاً من المستشرقين والمحدثين العرب. ولعل المستشرق (ليتمان) كان أبرزهم.
وكان الدكتور فتحي عبد الفتاح الدجني قد عدَّ في الفريق الذي ينفي اقتباس النحو
العربي من آية لغة أجنبية^(٢)، وهو في الواقع كان يقف موقفاً وسطاً من قضية
الاقتباس. فقد قال في إحدى محاضراته: «ونحن نذهب في هذه المسألة مذهبنا
وسطاً؛ وهو أنه أبدع العرب علم النحو في الابتداء، وأنَّه لا يوجد في كتاب سيبويه
إلا ما اخترعه هو والذين تقدموا، لكنَّ لما تعلم العرب الفلسفة اليونانية من
السريان في بلاد العراق تعلموا شيئاً من النحو»^(٣). ولعله يقصد بـ(شيئاً من
النحو) النقاط التي أخذها العرب من السريانية؛ وهي نقاط تشبيه دائرة الخمسة أو
السكون. وتلك النقاط لا تدل على أنها عربية كما ذكرها الرواة^(٤). ويمضي ليتمان
في الكشف عن رأيه مظهراً البراهين والأدلة على كلامه حين يقول:

«وبرهان هذا أنَّ تقسيم الكلمة مختلف. قال سيبويه فالكلم اسم و فعل
وحرف جاء لمعنى. وهذا تقسيم أصلي. أما الفلسفة فیننقسم فيها الكلام إلى اسم
وكلمة ورباط، وهذه الكلمات ترجمت من اليوناني إلى السرياني، إلى العربي،
فسميت هكذا في كتب الفلسفة، لا في كتب النحو. أما كلمات اسم و فعل
وحرف، فإنها في اصطلاحات عربية ما ترجمت ولا نقلت»^(٥).

ومن أنصار هذا الاتجاه فتحي عبد الفتاح الدجني الذي لا ينكر أنَّ العرب
أخذوا عن السريانية النقاط المعروفة اليوم بالحركات. وذلك لا يضرir النحو
العربي، ولا يحط من قدره، أو يقلل من قيمته. فبرأيه أنَّ أبو الأسود أخذ نقاطه
عن السريان ويبذر هذا الرأي بأنه لو كان أبو الأسود هو مبتكر الحركات لكان

(١) أبو الطيب اللغوي: مراتب النحوين ص ٦.

(٢) الدجني فتحي عبد الفتاح: أبو الأسود الدؤلي ونشأة النحو العربي، ص ٧٤.

(٣) محاضرات ليتمان. راجع (نشأة النحو لمحمد الطنطاوي)، ص ٢٢.

(٤) الدجني فتحي عبد الفتاح الدجني: أبو الأسود الدؤلي ونشأة النحو العربي ص ٧٥.

(٥) محاضرات ليتمان: راجع (نشأة النحو) للشيخ محمد الطنطاوي، ص ٢٢.

ابتكرها عربية خالصة، وأشار إلى أنها عربية على الأقل، كما فعل للخليل بن أحمد عندما طورها. وتشبه نقاط أبي الأسود الخمسة أو السكون. وشكلها هذا لا يدل على أنها عربية، في حين أنَّ حركات الخليل فهي عربية؛ فالضمة من الواو، والفتحة من الألف، والكسرة من الياء، فضلاً عن أنَّ النقط (الإعجام) نشأ متأخراً عن عصر أبي الأسود، ظُهر العصر الذي نما فيه النحو العربي وازدهر^(١).

وعلى الرغم من إقرار الدكتور فتحي الدجني بأخذ النحو العربي النقاط السريانية، فهو، في الوقت نفسه يقر بعروبة النحو أصلاً ونشأة. نافياً يونانيته أو تأثيره بها، لأنَّ العرب لم يتصلوا باليونان مباشرة، بل كان الاتصال بهم عن طريق السريان^(٢).

ولكي تكون منصفين في حكمنا، لا ننسَ أنَّ عدو التفكير الأرسطو طالبىي الذي يخلط بين الدراسات اللغوية والدراسات المنطقية والميتافيزيقية^(٣) قد انتقل إلى اللغة العربية ودراساتها، وبخاصة دراسات أصل اللغة والدراسات النحوية، على أثر ترجمة اللغة اليونانية إلى العربية عن طريق السريان.

ويظهر أثر المنطق اليوناني في النحو العربي، وأضحاً من خلال المقولات العشر^(٤)، وتطبيقاتها في التفكير النحوي العام. فقد نظر النحاة إلى اللغة نظرتهم إلى الأشياء والمحسوسات، فجعلوا الكلمة جوهراً، كما جعلوا للمادة، وذهبوا إلى أنَّ جوهر الكلمة لا يتغير إلا بإعمال أو إيدال. «فالأصل أو الجوهر في (قال) (قول)

(١) الدجني، فتحي عبد الفتاح: أبو الأسود الدؤلي ونشأة النحو العربي، ص ٧٥.

(٢) الدجني، فتحي عبد الفتاح، أبو الأسود الدؤلي، ص ٧٦.

(٣) ذكر تمام حسان أنَّ «هذه الدراسات اللغوية القديمة تختلط إلى حد كبير جداً بالنظريات المنطقية والميتافيزيقية. ولقد اعتر كثاب اللغة من الإغريق الجملة حكماً منطقياً، واعتبروا طريق الإسناد النحوي بنفس الطريق التي اعتبروا بها الموضع والمحمول في المنطق. وإن من يقرأ ما كتبه أرسطو في المقولات والعبارة والتحليلات الأولى والثانية ليجد لها ملينة بالنظريات التي تختلط بين التفكير اللغوي والفلسفى؛ خذ مثلاً من كلامه في مقوله (الكم): ويقال نفس الشيء عن الكلام. فمن الواضح أنَّ الكلام ذو كمية لأنَّ يفاس بالمقاطع الطوال والقصار؛ وأقصد بذلك الكلام المنطوق. ويقول في الفصل العاشر من المقولات: إنَّ الأزواج المتناظرة التي تنتهي تحت مقوله الإضافة تتضمن كل فرد منها إلى الآخر وهذه النسبة تدلُّ عليها علامة الإضافة، أو أي حرف آخر.

حسنان، تمام: منهج البحث في اللغة، ص ٢٢.

(٤) هي: الجوهر، الكم، الكيف، الزمان، المكان الإضافة، الوضع، الملك، الفاعلية والمفعولية.

وفي فعل الأمر من (وفي) (إوف)... وفي (قاضٍ) (قاضي)^(١).

وب شأن تأثر العربية بالسريانية، ولو بشكل محدود، فهو أمر واقع، نظراً لمبدأ الافتراض من اللغات بفعل تأثر بعضها ببعض؛ ذلك أنّ اللغة الانكليزية استعارت طريقة الجمع اللاتينية في بعض استعمالاتها. Formula جمعها Formula جنباً إلى جنب مع Formulas.

وكذلك اللوائح اللاتينية التي أضافتها اللغة الانكليزية إلى كثير من الكلمات التي أصلها جرمانى مثل: Shortage Hin drame و Bewil drment و Shortage Hin drame و وكذلك قياساً على Agréable الفرنسية Bearab le extable.

وانطلاقاً من هذا المبدأ، فلا تستغرب تأثر نحو العربية بنحو السريانية، ولو قليلاً، ذلك أنّ اللغة السريانية كانت فيما مضى، أقدم اللغات السامية وأشهرها، وأوسعتها انتشاراً. واستطاعت، بفعل شهرتها، التغلب على جميع اللغات في القرن الخامس قبل الميلاد، وبقيت محافظة على مكانتها حتى الفتح الإسلامي، ثمّ بدأت تضعف شيئاً فشيئاً، بسبب مخالطة أهلها العرب؛ فقامت على أنقاضها اللغة العربية^(٢). ولا ننسَ أنّ العربية والسريانية من أصل واحد.

واللغة العربية لغة سامية كالسريانية، لها قواعدها النحوية والصرفية. كذلك للسريانية أصولها في النحو والصرف؛ فبعد اطلاعنا على عدد من الكتب العربية النحوية، كالكتاب لسيبوه، والمقتضب للمبرد وغيرهما، وعلى عدد من الكتب التي عالجت النحو السرياني، كفرامطيق اللغة الآرامية السريانية للقس بولس الخوري، واللغة السريانية بأجزاءه الثلاثة لغبريا وكميل أفرام البستاني، ظهر أنها تحتوي أموراً تكاد تكون متشابهة؛ إن لجهة الحرف، أو لجهة الحركات، مثل الفتح، والخفض، أو لجهة النقط، كوضع نقطة للدال من تحت، ونقطة للزاء من فوق^(٣)، أو لجهة المضمون الدائر حول الكلمات المفردة، أي الصرف، وتركيب الكلام؛ أي: النحو، أو لجهة تقسيم مادة النحو إلى أبواب وفصول، كتاب (اسم النكرة والمعرفة) وباب في (حرروف الإضافة الداخلة على المفرد)؛ أي حروف المعاني، كمعاني (الباء) و (اللام) و (إلى)^(٤).

(١) حنان، تمام: مناهج البحث في اللغة، ص ٢٦.

(٢) أنيس، إبراهيم: من أسرار اللغة، ص ١١٢. وهذا رأي جابر من نقله إبراهيم أنيس.

(٣) الخوري، القس بولس: غرامطيق اللغة الآرامية السريانية ص ٦ وما بعدها.

(٤) الخوري القس بولس: غرامطيق اللغة الآرامية السريانية، ص ٦ وما بعدها.

(٥) المرجع نفسه، ص ٤٥٨. راجع فهرس هذا المرجع، ص ٤٥٨.

والمعروف أن عملية التأثير والتاثير بين لغتين يحتمل شعبهما بعضه بعض أمر واقع ومسلم به، بفعل التفاعل الحضاري. لكن هذا لا يقودنا إلى التسليم بأن النحو، عند العرب، كلّه أو بغالبيته مقتبس من اليونانيين أو السريان.

فعلى الرغم من تأثر هذا النحو بالمنطق اليوناني من خلال المقولات العشر، وبالنحو السرياني من خلال النقاط التي تشبه السكون، أو من خلال التقسيمات لأبواب النحو وفصوله، فإن النحو هو الإعراب من فعل ومفعول وغير ذلك من الأقسام، وليس متوقفاً على التقسيمات وغيرها. ويبقى بمعظمه عربي الطابع، عربي الأصلية في نشأته وتسميته معاً.

وهذا رأينا الذي يمثل موقفاً وسطاً من قضية أصل النحو العربي، ويتوافق مع الاتجاه الذاهب إلى أن هذا العلم عريق بالعروبة، لأن الدافع إلى وصفه كان نابعاً من حاجة العرب الماسة إليه، لدرء خطر اللحن الذي هدد لغتهم بالزوال وقرآنهم بالانغلاق على الأفهام، والذاهب أيضاً إلى أن العرب استعنوا بالنقاط التي أخذها أبو الأسود عن السريانية، لتساعد على جودة القراءة لمدة قصيرة، بالرغم من كونها، في بدايتها، نقاطاً صغيرة، إلى أن ظهر الخليل بن أحمد، فطورها من خلال تحويلها إلى نقاط عربية خالصة ما زلت نستعملها إلى يومنا هذا.

ونرى أن هذا الاتجاه هو الاتجاه المعقول والمقبول؛ لتجربة من الانكار المطلق بعربية هذا النحو، ومن التعصب المطلق لها من خلال عدم الإقرار بمبدأ التأثير والتاثير والتفاعل الحضاري بين الشعوب.

وإذا كان النحو، عند العرب، من صنيعهم وابتكر لهم بغالبيته، فمن الذي وضعه وأئسنته.

الإمام علي عليه السلام مؤسس النحو العربي

تعدد الآراء واختلفت في قضية مؤسس النحو العربي وواضعه، بين القدماء أنفسهم، وتبينت وتضاربت أيضاً بين الباحثين والدارسين المحدثين. ونتج هذا التباين من روایات المتقدمين وأراء المحدثين الذين نسبوا وضع النحو إلى غير عالم قديم.

وتوضيحاً للأمر، رأينا أنه من المفيد عرض هذه الروایات مقسمة على ثلاثة أنواع، إضافة إلى هذه الآراء، لعلنا، من خلالها، نتوصل في النهاية، إلى معرفة المؤسس الحقيقي للنحو العربي.

فالثوع الأول يمثل روايات تسد هذا العلم، من حيث النشأة والابتكار، إلى أبي الأسود الدؤلي؛ ذكر السيرافي أنَّ الناس اختلفوا في أول مَنْ رسم النحو، فقال بعضهم: «أبو الأسود... وأكثر الناس على أبي الأسود الدؤلي»^(١).

وأشار هذا العالم إلى رواية وردَّ فيها أنَّ أباً الأسود جاء إلى عبيد الله بن زياد يستأذنه في أنْ يضع العربية^(٢)، فرفض. وقد جاءه قوم، فقال أحدهم: «أصلحك الله، مات أبانا وترك بنونا». فقال: علىِّ بأبي الأسود وضع العربية»^(٣).

وأورد السيرافي نقلًا عن يحيى بن آدم، رواية أخرى جاء فيها أنَّ «أول مَنْ وضع العربية أبو الأسود الدؤلي»^(٤).

أما أبو بكر الزبيدي فنقل روايات توضح السبب الذي دفع أباً الأسود إلى وضع النحو حين قال: «وهو أول مَنْ أَسَسَ العربية، ونهج سبلها، ووضع قياسها؛ وذلك حين اضطرب كلام العرب، وصار سراة الناس ووجوههم يلحتون؛ فوضع باب الفاعل والمفعول به، والمضاف، وحرروف التصب والرفع والجز والجزم»^(٥) ومما رواه هذا العالم، نقلًا عن غيره، قوله: «قال أبو علي إسماعيل بن القاسم بن عيدون بن هارون القالي، ثُمَّ البغدادي حدثنا أبو إسحاق إبراهيم بن السري الزجاج التحوي، قال: حدثنا أبو العباس محمد بن يزيد بن عبد الأكابر الأزدي، قال: أول مَنْ وضع العربية ونقط المصاحف أبو الأسود ظالم بن عمر»^(٦).

وممَّا ذكره الزبيدي من الروايات رواية تُظهر أنَّ ما أوجب على أبي الأسود وضع النحو، هو أنَّ ابنته كانت معه في يوم قائه شديد الحر. فشاءت أنْ تتعجب من الحر الشديد. فقالت: «ما أشدُّ الحر». فقال أبوها: القيظ؛ وهو ما نحن فيه يا بنتي، جواباً عن كلامها لأنَّه استفهم. فتحيزت، وظهر لها خطؤها، فعلم أبو الأسود أنها أرادت التعجب. فقال لها: قولي يا بنتي: ما أشدُّ الحر؟؛ فعمل بباب التعجب وباب الفاعل والمفعول به وغيرها من الأبواب»^(٧).

(١) السيرافي، الحسن بن عبد الله: أخبار النحوين البصريين، ص ١٣.

(٢) المقصود بالعربية النحو. راجع (طبقات النحوين واللغرين) للزبيدي، ص ٢١.

(٣) السيرافي، الحسن بن عبد الله: أخبار النحوين البصريين، ص ١٧.

(٤) المصدر نفسه، والصفحة نفسها.

(٥) أبو بكر الزبيدي، محمد بن الحسن: طبقات النحوين واللغرين، ص ٢١.

(٦) المصدر نفسه، والصفحة نفسها.

(٧) المصدر نفسه، والصفحة نفسها.

يضاف إلى هذا ما ورد من روایات في (نزهة الألباء) لأبي البركات ابن الأنباري، تنسّب وضع النحو إلى أبي الأسود الدؤلي. فقد روي أنّ هذا العالم جاء إلى زياد بالبصرة، فقال: «إنّي أرى العرب قد خالطت الأعاجم، وتغيّرت لغتهم. فجاء رجل إلى زياد فقال: أصلح الله الأمير! ثُوفى أبيانا وترك بنونا. فقال زياد: توفى أبيانا وترك بنونا؟ أدعُ لي أباً الأسود! فقال: ضع للناس الذي نهيتك أن تضع لهم»^(١).

ورُويَ عن بعضهم أنه قال: «أول من وضع التحْزِيز أبو الأسود الدؤلي»^(٢).

ووردت رواية أخرى في (نزهة الألباء في طبقات الأدباء) تتناول اللغو في الآية^(٣) من سورة (براءة). فرُويَ أنّ أعرابياً قدم في خلافة أمير المؤمنين عمر بن الخطاب (رضي الله عنه) فقال: «مَنْ يُقْرَئِنِي شِيشاً مَمَا أَنْزَلَهُ اللَّهُ عَلَى مُحَمَّدٍ؟ فَأَقْرَأَهُ رَجُلٌ سُورَةً (براءة) فَقَالَ: إِنَّ اللَّهَ بِرِبِّيَّ مِنَ الْمُشْرِكِينَ وَرَسُولُهُ بِالْجَزِّ. فَقَالَ الْأَعْرَابِيُّ: أَوْ قَدْ بِرِّيَ اللَّهُ مِنْ رَسُولِهِ؟ إِنَّ يَكْنَ اللَّهَ بِرِّيَّا مِنْ رَسُولِهِ، فَإِنَّا أَبْرَأُ مِنْهُ». فبلغ عمر (رضي الله عنه) مقالة الأعرابي، فدعاه، فقال له: يا أعرابي، تبرا من رسول الله^ﷺ? فقال: يا أمير المؤمنين، إني قدمت المدينة، ولا علم لي بالقرآن، فسأّلتَ مَنْ يُقْرَئِنِي؟ فاقرأني هذا سورة (براءة). فقال: إِنَّ اللَّهَ بِرِبِّيَّ مِنَ الْمُشْرِكِينَ وَرَسُولُهُ. فقلت: أَوْ بِرِّيَ اللَّهُ تَعَالَى مِنْ رَسُولِهِ؟ إِنَّ يَكْنَ اللَّهُ تَعَالَى بِرِبِّيَّ مِنْ رَسُولِهِ فَإِنَّا أَبْرَأُ مِنْهُ». فقال عمر (رضي الله عنه) له: ليس هكذا يا أعرابي! فقال: كيف هي يا أمير المؤمنين؟ فقال: إِنَّ اللَّهَ بِرِبِّيَّ مِنَ الْمُشْرِكِينَ وَرَسُولُهُ. فقال الأعرابي: وأنا وآله، أَبْرَأُ مِنْ بِرِّيَ اللَّهُ مِنْهُمْ. وأمر عمر أن لا يقرأ القرآن إلا عالم باللغة، وأمر أباً الأسود الدؤلي أن يضع النحو»^(٤).

وبشأن قراءة هذه الآية الكريمة، رُويَ أيضاً، نقاًلاً عن القفطي، في كتابه (إنباء الرواية على إنباء النحاة) أنّ زياداً سمع بشيءٍ مما عند أبي الأسود، ورأى اللحن قد فشا على اللسان العربي بسبب الموالى. فقال لأبي الأسود: «أظهر ما عندك لتكون للناس إماماً. فامتنع من ذلك وسأله الإعفاء، حتى سمع أبو الأسود قارئاً: (إِنَّ اللَّهَ بِرِبِّيَّ مِنَ الْمُشْرِكِينَ وَرَسُولُهُ)^(٤) بالكسر. فقال: ما ظنت أmer

(١) ابن الأنباري، عبد الرحمن بن محمد بن عبيد الله: نزهة الألباء في طبقات الأدباء، ص ٢١.

(٢) المصدر نفسه، ص ٢٣.

(٣) ابن الأنباري: عبد الرحمن بن محمد بن عبيد الله: نزهة الألباء، ص ٢٠.

(٤) سورة التوبة، أو براءة، الآية ٣.

الناس آل إلى هذا! فرَّجع إلى زياد، فقال: أنا أفعل ما أمر به الأمير. فلَيُبْغِنِي كاتباً لَقِنَا يفعل ما أقول. فأتي بكاتب من عبد القيس، فلم يرضه. فأتي بكاتب آخر... فقال له أبو الأسود: إذا رأيتني قد فتحت فمي بالحرف، فانقطع نقطة فوقه على أعلاه، وإن ضمت فمي، فانقطع نقطة بين يدي الحرف، وإن كسرت، فاجعل أمارة ذلك نقطتين. فعل ذلك؛ وكان أول ما وضعه لهذا الباب^(١).

كذلك روى النديم^(٢) أنَّ أبي الأسود هو أول من استنبط النحو، وأخرجه من العدم إلى الوجود، وأنَّ رأى بخطه ما استخرجه، ولم يعزه إلى أحد قبله^(٣).

ويمثل النوع الثاني الروايات التي تسبُّب وضع النحو العربي إلى نصر بن عاصم الليثي، وعبد الرحمن بن هرمز. غير أنَّ هذه الروايات قليلة جداً، ولقلتها تكاد لا تذكر. وأشار إليها السيرافي في كتابه (أخبار التحويين البصريين)^(٤)، وأبو بكر الزبيدي في (طبقات التحويين واللغويين)^(٥).

لكنَّ ابن الأباري نفى أن يكون هذان العالمان أول من أسس النحو، حين قال: «فَأَنَا زعمَ مَنْ زعمَ أَنَّ أَوْلَ مَنْ وضعَ النحوَ عبدُ الرَّحْمَنُ بْنُ هَرْمَزَ بْنُ الْأَعْرَجِ، وَنَصْرُ بْنُ عَاصِمٍ، فَلَيْسَ بِصَحِيحٍ؛ لِأَنَّ عَابِدَ الرَّحْمَنَ أَخْذَ عَنْ أَبِيهِ الْأَسْوَدِ، وَكَذَلِكَ أَخْذَ عَنِهِ أَيْضًا ابْنَ عَاصِمٍ الْلَّيْثِيَّ، وَيَقَالُ عَنْ مِيمُونَ الْأَقْرَنِ»^(٦).

أما النوع الثالث من الروايات فينسب استنباط النحو إلى علي بن أبي طالب عليه السلام. فقد رُوِيَّ أنَّ أبي الأسود الدُّؤُلي أخذ هذا العلم عن علي عليه السلام، وكان لا يخرج شيئاً مما أخذه عن هذا الإمام حتى بعث إليه زياد قائلاً له: «إعمل شيئاً تكون فيه إماماً يتقن الناس به، وتعرب كتاب الله»^(٧).

(١) القسطي، علي بن يوسف: إحياء الرواية على أبناء النحاة، ج ١، ص ٥.

(٢) النديم هو واضح الفهرست وليس ابن النديم. راجع ترجمة (الفهرست) إلى الفرنسي، وكتاب ثريا ملجن (محمد بن الحسين البندادي) المعروف بأبيه، الفتح كشاجم. دار الكتاب اللبناني، ط ١، ١٩٨٠.

(٣) المصدر نفسه، ج ١، ص ٧.

(٤) السيرافي، السنن بن عبد الله: أخبار التحويين البصريين، ص ١٣.

(٥) أبو بكر الزبيدي، محمد بن الحسن: طبقات التحويين واللغويين، ص ٢٦.

(٦) ابن الأباري، عبد الرحمن بن محمد: نزهة الأنباء في طبقات الأدباء، ص ١٦ وما بعدها.

(٧) السيرافي، الحسن بن عبد الله: أخبار التحويين البصريين، ص ١٥.

ورُوِيَ أَيْضًا أَنَّ أَبَا الْأَسْوَدَ سُئِلَ عَمَّنْ فَتَحَ لَهُ الطَّرِيقَ إِلَى الوضِيعِ فِي النَّحْوِ، وَأَرْشَدَهُ إِلَيْهِ، فَقَالَ: «تَلَقَّيْتُهُ مِنْ عَلَيِّ بْنِ أَبِي طَالِبٍ رَحْمَةِ اللَّهِ»^(١) وَذُكِرَ أَيْضًا أَنَّ أَبَا الْأَسْوَدَ قَالَ فِي حَدِيثٍ لَهُ: «أَلْقَى إِلَيَّ عَلَيِّ أَصْوَلًا احْتَذَنِتُ عَلَيْهَا»^(٢).

وتسرد المصادر العربية القديمة الكثير من هذه الروايات؛ فقد جاء في (إنباء الرواة) للقفطي أنَّ الجمَهُورَ مِنْ أَهْلِ الرَّوَايَةِ يَصْرَحُ بِأَنَّ أَوَّلَ مَنْ وَضَعَ النَّحْوَ أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ عَلَيِّ بْنِ أَبِي طَالِبٍ عَلَيْهِ السَّلَامُ. وَذُكِرَ هَذَا الجمَهُورُ أَيْضًا أَنَّ أَبَا الْأَسْوَدَ الدَّؤْلَيَّ قَالَ: «دَخَلْتُ عَلَى أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ عَلَيِّ، عَلَيْهِ السَّلَامُ، فَرَأَيْتُهُ مُطْرَقاً مُفْكَراً. فَقَلَّتْ: فِيمَ تَفْكِرُ يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ؟ فَقَالَ: سَمِعْتُ بِيَدِكُمْ لَحْنَا، فَأَرْدَتُ أَنْ أَضْعِفَ كِتَابًا فِي أَصْوَلِ الْعَرَبِيَّةِ. فَقَلَّتْ لَهُ: إِنَّ فَعْلَتْ هَذَا أَبْقَيْتَ فِينَا هَذِهِ الْلُّغَةِ الْعَرَبِيَّةَ. ثُمَّ أَتَيْتُهُ بَعْدَ أَيَّامٍ، فَأَلْقَى إِلَيَّ صَحِيفَةً فِيهَا: بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ، الْكَلَامُ كُلُّهُ اسْمٌ وَفَعْلٌ وَحْرَفٌ؛ فَالاَسْمُ مَا أَبْنَأَ عَنِ الْمَسْمَىِ، وَالْفَعْلُ فِيهِ مَا وَقَعَ لَكَ. وَاعْلَمُ أَنَّ الْأَشْيَاءَ ثَلَاثَةٌ: ظَاهِرٌ، وَمَضْمُرٌ وَشَيْءٌ لَيْسَ بِظَاهِرٍ وَلَا مَضْمُرٌ؛ وَإِنَّمَا يَتَفَاضَلُ الْعُلَمَاءُ فِي مَعْرِفَةِ مَا لَيْسَ بِمَضْمُرٍ، وَلَا بِظَاهِرٍ. فَجَمِعْتُ أَشْيَاءً، وَعَرَضْتُهَا عَلَيْهِ؛ فَكَانَ مِنْ ذَلِكَ حُرُوفُ النَّصْبِ، فَذَكَرَتْ مِنْهَا: إِنَّ وَأَنَّ وَلَيْتَ وَلَعْلَ، وَكَانَ، وَلَمْ أَذْكُرْ لَكَنْ فَقَالَ: لَمْ تَرْكَتْهَا؟ فَقَلَّتْ: لَمْ أَحْسَبْهَا مِنْهَا. فَقَالَ: بَلَى هِيَ مِنْهَا، فَزَدَهَا فِيهَا»^(٣). وَصَرَحَ الْقَفْطَنِيُّ بِأَنَّ «هَذِهِ الرَّوَايَةُ تَعْدُ الْأَشْهَرَ مِنْ أَمْرِ ابْتِداءِ النَّحْوِ»^(٤).

وَرُوِيَ أَيْضًا عَنْ أَبِي الْأَسْوَدِ قَالَ: «دَخَلْتُ عَلَى أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ عَلَيِّ بْنِ أَبِي طَالِبٍ عَلَيْهِ السَّلَامُ، فَأَخْرَجَ لِي رُقْعَةً فِيهَا: الْكَلَامُ كُلُّهُ اسْمٌ وَفَعْلٌ وَحْرَفٌ جَاءَ لِمَعْنَى. قَالَ: فَقَلَّتْ: مَا دَهَاكَ إِلَى هَذَا؟ قَالَ: رَأَيْتَ فَسادًا فِي كَلَامِ بَعْضِ أَهْلِهَا، فَأَحَبَّتِ أَنْ أَرْسِمَ رَسْمًا يُعْرَفُ بِهِ الصَّوَابُ مِنَ الْخَطَا. فَأَخْذَ أَبَا الْأَسْوَدَ النَّحْوَ عَنِ عَلَيِّ عَلَيْهِ السَّلَامُ، وَلَمْ يَظْهُرْ لِأَحَدٍ»^(٥).

وَذُكِرَ أَيْضًا أَنَّ أَهْلَ مَصْرَ قَاطِبَةً، يَرَوْنَ، بَعْدَ النَّقلِ وَالتَّصْحِيحِ، أَنَّ أَوَّلَ مَنْ وَضَعَ النَّحْوَ هُوَ عَلَيِّ بْنِ أَبِي طَالِبٍ عَلَيْهِ السَّلَامُ، وَأَنَّ أَبَا الْأَسْوَدَ الدَّؤْلَيَّ أَخْذَهُ عَنْهُ^(٦) وَرُوِيَ أَنَّهُ قَيلَ لِأَبِي الْأَسْوَدَ: «مَنْ أَيْنَ لَكَ هَذَا الْعِلْمَ؟ فَقَالَ:

(١) أَبُو بَكْرَ الزِّيْدِيُّ، مُحَمَّدُ بْنُ الْحَسَنِ: طَبَقَاتُ النَّحْرِيِّينَ وَاللَّغْوِيِّينَ، ص ٢٠.

(٢) الْمَصْدَرُ نَفْسُهُ، ص ٢١.

(٣) الْقَفْطَنِيُّ، عَلَيِّ بْنِ يُوسُفَ: إِنْبَاءُ الرَّوَايَةِ عَلَى أَبْنَاءِ النَّحَاءِ، ج ١، ص ٤.

(٤) الْمَصْدَرُ نَفْسُهُ، ج ١، ص ٥.

(٥) الْقَفْطَنِيُّ، عَلَيِّ بْنِ يُوسُفَ: إِنْبَاءُ الرَّوَايَةِ، ج ١، ص ٥.

(٦) الْمَصْدَرُ نَفْسُهُ، ج ١، ص ٦.

لقيت^(١) حدوده من علي بن أبي طالب عليه السلام»^(٢) وكان أبو الأسود قرأ على أمير المؤمنين علي عليه السلام^(٣).

وزوبي أن أباً الأسود كان كلما وضع باباً من أبواب النحو عرضه على علي عليه السلام، إلى أن حصل ما فيه الكفاية. قال له: «ما أحسن هذا النحو الذي قد نحوت»^(٤).

وقد صرخ ابن الأباري بأن علياً أزلَّ من وضع النحو فقال: «إعلم أيديك الله بال توفيق، وأرشدك إلى سوء الطريق، أن أزلَّ من وضع علم العربية، وأؤسس قواعده، وحدَّ حدوده، أمير المؤمنين علي بن أبي طالب (رضي الله عنه) وأخذ عنه أبو الأسود الذؤلي»^(٥).

وقال أبو عبيدة معمراً بن المثنى وغيره أن علياً عليه السلام هو الذي وضع النحو، وأن أباً الأسود أخذَ عنه. كذلك حكى أبو حاتم السجستاني.

أن أباً الأسود أخذَ النحو عن علي عليه السلام^(٦).

وكان ابن الأباري قد عرض للروايات المختلفة في (نزهة الأدباء) متوصلاً في النهاية إلى القول: «والصحيح أن أزلَّ من وضع النحو علي بن أبي طالب (رضي الله عنه)، لأنَّ الروايات كلُّها تسند إلى أبي الأسود، وأباً الأسود يستندها إلى علي عليه السلام، فإنه رُويَ عن أبي الأسود أنه سُئلَ، فقيل له: من أين لك هذا النحو؟ قال: لفقت^(٧) حدوده من علي بن أبي طالب»^(٨).

يضاف إلى هذا أنَّ ابن خلدون ذكر في مقدمته المشهورة أنَّ أباً الأسود كتب في النحو بإشارة علي عليه السلام الذي شعر بتغيير الكلمة، بعد مخالطة العرب الأعاجم؛ ما دفعه إلى ضبطها بالقوانين الحاضرة المستقرة، ثمَّ استأنف الناس

(١) يقال: لقِنَ الكلام من فلان، تلقنه، أخذَه من لفظة وفهمه. راجع محيط المحيط لبطرس البستاني، مادة (لـ قـ نـ).

(٢) القفيطي، علي بن يوسف: إنباه الرواة، ص ١٥.

(٣) المصدر نفسه والصفحة نفسها.

(٤) ابن الأباري، عبد الرحمن بن محمد: نزهة الأدباء في طبقات الأدباء، ص ١٨ - ١٩.

(٥) المصدر نفسه، ص ١٧.

(٦) ابن الأباري، عبد الرحمن بن محمد: نزهة الأدباء في طبقات الأدباء، ص ٢٠ - ٢١.

(٧) يقال: لفَنَ الشيء، أي: أخذَه وأصابَه. راجع (محيط المحيط) لبطرس البستاني، مادة (لـ فـ قـ).

(٨) ابن الأباري، عبد الرحمن بن محمد: نزهة الأدباء، ص ٢٢.

الكتابة فيها من بعده، إلى أن انتهت إلى الخليل بن أحمد الفراهيدي أيام الرشيد^(١).

بعد هذا العرض لتلك الروايات المتضاربة، نلاحظ أن المصادر التي أوردتها اكتفت بسردها وعرضها من دون مناقشتها، لتصل في النهاية، إلى تحديد واضح النحو الأصيل، بعد تحليل وتحليل. ولم تكلف نفسها عناء هذا الجهد إلا قليلاً. ولعل ذلك راجع إلى طريقة القدماء في عرض الروايات، أو إلى منهجهم الذي اعتادوه.

غير أن المراجع الحديثة نقلت هذه الروايات، واطلعت عليها، ودرستها، وناقشتها، لتصل، في نهاية الأمر، إلى تحديد واضح النحو. وكانت آراء الباحثين فيها متغيرة إلى حد ما. لكن الغالبية منهم تجمع على أن أبي الأسود هو أول من وضع النحو، وأن قليلاً منهم يرى أن سواه أخرج هذا العلم من العدم. كما أنهم أنكروا جمياً أن يكون عبد الرحمن بن هرمن، أو نصر بن عاصم الليثي أول من أسس العربية، متفقين بآرائهم مع القدماء في هذا الشأن.

والامر الذي حدا المحدثين إلى عدم الأخذ بغالبية هذه الروايات الإضطراب فيها، والتناقض الواضح بين العلماء والمؤرخين. فمعظم المصادر القديمة، من (أخبار النحويين البصريين) للسيرافي، و(طبقات النحويين واللغويين) لأبي بكر الزبيدي، مروراً بـ(نזהة الألباء في طبقات الأدباء) لابن الأباري، و(إنباه الزواة على أنباه النخاعة) للقفطي، وصولاً إلى (المقدمة) لابن خلدون، يغلب عليهما التناقض؛ فال المصدر الواحد منها يشتمل على عدة روايات مختلفة في ما يتعلق بواضع النحو؛ ما حمل الباحثين على الشك والريبة؛ لذا توصل كل باحث، بأسلوبه الخاص، إلى استنتاجات معينة اقتتن بها، بعد دراسات وتحليلات استند إليها في ما وصل إليه من حقائق.

فمن القائلين والمقطعين بأنَّ أبي الأسود أول من وضع النحو، الدكتور فتحي عبد الفتاح الذجني الذي قال: «لن أبالغ إذ أقول: إنَّ النحو العربي افترن باسم أبي الأسود الدُّؤلِي، وأصبح اسمه يتربَّد على ألسنة الملايين من العلماء والمثقفين في أنحاء العالم»^(٢) ويقول في موضع آخر: «إنَّ أبي الأسود الدُّؤلِي هو الذي أسس النحو العربي، وغرس بذوره الأولى في فجر الإسلام الحنيف»^(٣).

(١) ابن خلدون، عبد الرحمن: كتاب العبر، المقدمة، ص ١٠٥٧.

(٢) الذجني، فتحي عبد الفتاح: أبو الأسود الدُّؤلِي ونشأة النحو العربي، ص ١٦٠.

(٣) المرجع نفسه والصفحة نفسها.

ويذهب الدجني إلى أنه اعتمد في إقرار هذا الرأي، على آراء القدماء الموثق بهم، والمشهود لهم بغزارة العلم وفيض المعرفة والاستقامة والصدق ثم يزعم أنه اعتمد على الروايات التي تجمع على أن أباً الأسود هو منشئ النحو العربي، إما بداعٍ شخصي، أو بداعٍ ديني أو قومي. ومن هذا المنطلق يؤكد الدكتور فتحي أن أباً الأسود هو الذي وضع علم النحو، وتغرس بذوره الأولى لاعتبارين: أولهما اتفاق جمهور الرواة من القدماء على أنه وضع النحو، وأخرجه من العدم. والثاني اعتراف التدبر بأنه رأى نحو أبي الأسود بنفسه، وتحدّث عن فقدانه بنفسه، بالإضافة إلى شهادة القبطي الذي يذكر أن أباً الأسود استنبط النحو وأنه رأى بخطه ما استخرجه ولم يعزه إلى أحد قبله، فضلاً عن شهادة أولاد أبي الأسود. قال ابنه حرب: «أول باب رسمه أبي باب التعجب وقيل: باب الفاعل والمفعول»^(١).

أما عبد العال سالم مكرم فقد رأى أن أباً الأسود هو الذي وضع الأساس الأولى للنحو. ويقصد بالأسس الأولى تنقيط المصحف، تنقيط إعراب. وبهذا التنقيط وضع الأساس الأول. ونحو أبي الأسود ليس، بنظره، المصطلحات التي سجلتها الروايات الآتية الذكر، بل نحوه «هو، في الواقع، ثبيت للنطق العربي حين قراءة القرآن»^(٢).

وذكر الشيخ محمد الطنطاوي أيضاً أن أباً الأسود هو واسع هذا الفن مستنداً، مثل الدكتور الدجني، على رواية التدبر الذي يريانه موضع ثقة. وتفيد هذه الرواية أن رجلاً يدعى محمد بن الحسين كان يجمع الكتب فيراها التدبر، ويقلّبها فيجد لها عجباً، إلا أن الزمان قد أخلفها، وعمل فيها عملاً أدرسها. وقد رأى فيها صاحب (الفهرست) دليلاً على أن النحو من صنع أبي الأسود^(٣).

ويذهب شعبان عوض إلى أن أباً الأسود لم يضع النحو بالطريقة نفسها التي تتحدث عنها هذه الروايات. ولكنه وضعه بنقطه للمصحف لأن نقط المصحف قضية تعود إلى الإعراب بالدرجة الأولى الذي هو أساس في النحو العربي. ومعنى هذا أن «أباً الأسود هو الذي وضع النواة للنحو العربي على الصورة التي نعرفها اليوم»^(٤).

(١) الدجني، فتحي عبد الفتاح: أبو الأسود الدؤلي ونشأة النحو العربي، ص ١٦٠.

(٢) مكرم، عبد العال سالم: القرآن الكريم وأثره في الدراسات النحوية، ص ٥٦.

(٣) الطنطاوي، الشيخ محمد: تاريخ نشأة النحو، ص ٢٨.

(٤) العيدى، شعبان عوض محمد: النحو العربي ومتاجع التأليف والتحليل، ص ٤٩.

وبذلك يؤكد شعبان عوض أن أبي الأسود وضع النحو من خلال نقطه المصحف «حتى ينطق القرآن، ويقرأ بصورة مغربية سليمة»^(١).

أما شوقي ضيف فيذهب إلى أنَّ عمل أبي الأسود وتلاميذه الذين هُم قراء الذكر الحكيم، ومنهم نصر بن عاصم، وعبد الرحمن بن هرمز وميمون الأقرن وغيرهم، لا يخرج عن كونه نقطاً للمصحف، ونقطاً جديداً للحروف المعجمة في المصاحف، تمييزاً لها من الحروف المهملة. ومن هذا كان يؤخذ عنهم النقطان جمِيعاً: نقط الإعراب، ونقط الإعجام. وبذلك أحاط لفظ القرآن الكريم بسياج منيع يدفع عنه اللحن، ومعنى هذا أنَّهم رسموا بدقة نقط الإعراب، وليس قواعده. كما رسموا نقط الحروف المعجمة في مثل الباء والتاء والثاء والنون^(٢).

أما الذي وضع النحو، برأي شوقي ضيف فهو عبد الله بن أبي إسحاق الحضرمي من دون سواه؛ لذلك فهو يرفض الروايات التي تنص على أنَّ علياً أو أبي الأسود، مع تلاميذه، هم الذين وضعوا علم النحو لكنه يعترض بأنَّ عملهم كان باعثاً لهم ولمعاصريهم على التساؤل عن أسباب الإعراب، وتفسير ظواهره؛ ما هيئاً للبعض الأنظار التحويية. كذلك يرفض أن يكون كُلُّ من علي عليه السلام وأبي الأسود وآخرين من وضع النحو، ولكنَّ عملهما ينحصر في نظرات متباينة هنا وهناك كالاختلاف في كلمات اللغة. فمنها ما يقبل الحركات الثلاث، كالفتحة والضمة والكسرة، وهو الأسماء المعرفة. ومنها ما يلزم حركة واحدة، وقد يلزم السكون، وهو الأسماء المبنية^(٣).

ويرى شوقي ضيف أنَّ واضح النحو الحقيقي هو مَنْ أتيح له أنَّ يصوغ تلك النظارات صياغة عملية تقرُّم على اتخاذ القواعد، وما فيها من أقىسة وعلل. وهذا ما فعله، برأيه، عبد الله بن أبي إسحاق الحضرمي الذي كان أولَ نحوياً بصرىً وضع علم النحو. ولم يكن هذا النحوي من تلاميذ أبي الأسود، بل كان من القراء^(٤).

ولتأكيد دور ابن أبي إسحاق في وضع النحو، يذكر شوقي ضيف أنه حرص،

(١) المرجع نفسه، ص ٥٢.

(٢) ضيف، شوقي: المدارس التحوية، ص ١٧.

(٣) ضيف، شوقي: المدارس التحوية، ص ١٨.

(٤) المرجع نفسه، والصفحة نفسها.

مع تلاميذه البصريين، على صياغة امتازت بالدقة واطراد القواعد القائمة على الاستقراء الدقيق والتعليق^(١)، كي تصبح كل قاعدة أصلاً مضبوطاً تقياس عليه الجزئيات قياساً دقيقاً^(٢).

واللافت للانتباه أنَّ الدكتور شوقي يطعن في الأخبار والروايات التي سردناها سابقاً، لاضطرابها حيناً، وتناقضها أحياناً، كما يرى هو؛ ما حمله على الشك والريبة فيها، بقطع النظر عن صدق المؤرخين، ومكانة علي بن أبي طالب عليه السلام، وأبي الأسود الدؤلي الدينية والعلمية، وعما يتحلىان به من مكارم الأخلاق، ومن عنة ومروءة وشهامة وإجلال الناس لهم.

ومع تقديرنا لأراء القدامى والمحدثين الذين يغلب عليهم الميل إلى أنَّ أباً الأسود هو واضح النحو، باستثناء شوقي ضيف، فإنَّنا نخالفهم ونميل إلى أنَّ علي بن أبي طالب هو مؤسس علم النحو العربي كما يبدو لنا من التحليل الآتي.

بعد أن تطرقنا إلى عرض شامل للروايات التي تتحدث عن واضحي علم النحو، نلاحظ أنَّ المنسوبة لكلِّ من الإمام علي عليه السلام وأبي الأسود تقاد تكون متساوية تقريباً، وأنَّ المنسوبة لغيرهما قليلة جداً، ولا يؤخذ بها للعدم وجود أدلة وبراهين يستند إليها رواتها. وبعد عرضنا لآراء عدد من المحدثين يبدو لنا أنَّ معظمهم يذهب المذهب القائل: إنَّ أباً الأسود هو واضح النحو العربي لأسباب وعلل دعموا بما وجهة نظرهم.

أما نحن فقد تبين لنا، من خلال الروايات القديمة، أنَّ علي بن أبي طالب عليه السلام هو أول من وضع النحو لأسباب كثيرة. منها أنَّ المؤرخين والرواة لم يجزموا أو يؤكدوا أنَّ أباً الأسود هو المؤسس الأول لهذا العلم، في حين أنَّ ابن الأنباري يرفض المزاعم القائلة إنَّ أباً الأسود أو نصر بن عاصم، أو عبد الرحمن بن هرمز أتسوا النحو؛ وإنما الصواب أنَّ علياً عليه السلام أزلَّ من وضع هذا العلم. ويصرح معلملاً رأيه بقوله: «والصحيح أنَّ أول من وضع علم النحو علي بن أبي طالب (رضي الله عنه)، لأنَّ الروايات كلها تسند إلى أبي الأسود أنه سُئلَ، فقيل له: من أين لك هذا النحو؟ قال: لفقت حدوده من علي بن أبي طالب

(١) يقصد باطراد القواعد التشدد بعدم قبول الشاذ أو التعويل عليه، ويقصد بالاستقراء معرفة صحة المادة التي تشتبه منها القواعد النحوية. ويتطلب ذلك رحيلًا إلى أعماق الصحراء، من نجد وببرادي الحجاز وتهامة حيث البنایع الصافية للغة.

(٢) ضيف، شوقي: العدars النجوية، ١٨.

عليه السلام»^(١) حتى إن كلمة (حدوده) التي استعملها أبو الأسود تعني، برأينا، أبعاده، وأنه ينطوي على موضوعات كثيرة وأبواب عديدة، وضعها على عليه السلام ثم أخذها عنه أبو الأسود وتلاميذه من بعده. وتقترن كلمة (حدوده)، فضلاً عن لفظة (قواعد) بتصریح آخر يخبرنا فيه صاحب (نزهة الآباء) أن علياً عليه السلام أول من وضع هذا العلم، وأن أبو الأسود نقل عنه فيقول: «إعلم أينك الله بال توفيق، وأرشدك إلى سوء الطريق، أن أول من وضع علم العربية، وأنسس قواعده، وحدّ حدوده أمير المؤمنين علي بن أبي طالب (رضي الله عنه) وأخذ عنه أبو الأسود الدؤلي»^(٢).

أو لينت لفظة (قواعد) التي عبر بها ابن الأنباري، تعني أن علياً عليه السلام لا ينحصر عمله في إطار نظرات نحوية بسيطة متباينة، كما يزعم شوقي ضيف، وإنما تشمل قوانين كثيرة كانت مرتكزاً مهماً لعلم التحو وأساساً له؟.

وماذا تعني الفاظ عبارة علي عليه السلام الموجهة لأبي الأسود والممثلة بقوله له: «فأردت أن أضع كتاباً في أصول العربية»^(٣) أو ليست تعني كلمة (كتاباً) المصطف الذي يودعه صاحبه فضولاً تتناول مسائل كثيرة متعلقة بموضوع ما؟ وما المقصود بـ (أصول العربية)؟ أو ليست هي المفاهيم التي تساعد على بناء القواعد، وتمكن النحويين من تثبيت الأحكام المتعلقة بموضوعات كثيرة؟ والمعروف أن أبرز هذه الأصول النحوية السمع، القياس، الاجماع، واستصحاب الحال^(٤).

والغريب في الأمر أن بعض المحدثين، كفتحي عبد الفتاح الدجني وغيره، ذكروا أن القدماء ردوا وضع التحو إلى أبي الأسود، كالنديم، على سبيل المثال هم المشهود لهم بالسيرة الحسنة والثقة الكبيرة، والمكانة العالية في الثباته ورجاحة العقل، وغير ذلك من الصفات التي تجعل صاحبها موثوقاً به. ونسأل هؤلاء: أليس أبو البركات ابن الأنباري موثوقاً به؟ أو لم يكن صدوقاً، ديناً، خيراً فاضلاً؟ أو لم يكن أعلم أهل عصره بالتحو والأدب، وأكثرهم حفظاً؟ قيل: إنه كان يحفظ مائة وعشرين تفسيراً بأسانيدها، وكان ي ملي من حفظه وليس من كتاب. أو لم يكن زاهداً متواضعاً^(٥)؟

(١) ابن الأنباري، عبد الرحمن بن محمد: *نزهة الآباء*، ص ٢٠ - ٢١.

(٢) ابن الأنباري، عبد الرحمن بن محمد: *نزهة الآباء*، ص ١٧.

(٣) الققطي، علي بن يوسف: *إنماء الرواية*، ج ١، ص ٤.

(٤) راجع (مع الأدلة) لعبد الرحمن بن الأنباري، ص ٨١ وما بعدها. و (الاقتراح في أصول التحو) لجلال الدين السيوطي، ص ١٤ وما بعدها.

(٥) السيوطي، جلال الدين: *بنية الوعاة*، ج ١، ص ٢١٢. الزركلي: *الأعلام*، ج ٦، ص ٢٢٢.

أما أبو حاتم السجستاني الذي حكى أن أباً الأسود أخذ النحو عن علي عليه السلام، أو لم يكن إماماً في علوم القرآن واللغة والشعر، وأعلمهم في العروض واستخراج المعنى^(١)? ومعمر بن المثنى الذي صرّح بأن علياً عليه السلام هو من وضع النحو وأن أباً الأسود أخذ عنه، أليس صحّحاً ما ذكره الجاحظ في حفته حين قال: «لم يكن في الأرض خارجي أعلم بجميع العلوم منه»^(٢)؟

والمثير للاستهجان أن الدكتور فتحي عبد الفتاح يغزو ووضع أبي الأسود النحو، لدافع شخصي أو ديني أو قومي. ونحن، بدورنا، نسأل: ألم يكن عند أمير المؤمنين عليه السلام إحساس شخصي، أو شعور ديني، أو دافع قومي، لوضع هذا العلم؟ أو ليس هو ابن عبد المطلب الهاشمي القرشي، وأحد العشرة المبشرين، وأبن عمّ الرسول ﷺ، وصهره، وأحد الأبطال البواسل في الحروب التي وقعت بين المسلمين والمشركين، لنشر دين الإسلام الحنيف، وجعل كلمة الله، تعالى، هي العليا دائمة؟ أو ليس هو أول من أسلم، بعد السيدة خديجة^(٣) أم المؤمنين، على يدي الرسول ﷺ، صبياً قبل أن يمس قلبه عقيدة سابقة، أو يخالط عقله شوب^(٤) من شرذك موروث؟ أو لم يرب في حجر النبي ﷺ؟ ألم يبق ملازمته، ولا يفارقه؟ ألم يكن اللواء في يده في أغلب المشاهد؟ ألم يؤاخ خاتم الأنبياء الذي قال له: أنت أخي؟ ألم يكن كاتب وحيه وأقرب الناس إلى مصاحبه وبلايته، وأحفظهم لقوله وجوابه كلّمه^(٥)؟

نعم... إن سيرة الإمام علي عليه السلام الذي لازم الرسول ﷺ فتياً يافعاً في غدوه ورواحه وسلمه وحربيه، حتى تخلق بأخلاقه، وتأتّم بصفاته، وفقّه عنه الذين، وثقف ما نزل به الروح الأمين، لا ريب في أنها بعثت فيه الغيرة على لغة

(١) المصدر نفسه، ج ١، ص ٦٠٦.

(٢) المصدر نفسه، ج ٢، ص ٢٩٥.

(٣) هي بنت خوبيلد من أسد بن عبد العزى، من قريش. كانت الزوجة الأولى للرسول ﷺ، وأكبر منه سناً. ولدت بمكة سنة ٦٨ قبل الهجرة/٥٥٦ م. وقد نشأت في بيت شريف، وورثت أموالاً كثيرة قبل زواجهما من محمد ﷺ، أتاحت لها العمل في التجارة في بلاد الشام، وأنجحت للرسول ﷺ القاسم، وعبد الله، وزينب، وأم كلثوم وفاطمة. وكانت أول من أسلم من الرجال والنساء. توفيت بمكة سنة ٣ قبل الهجرة/٦٢٠ م.

أما علي عليه السلام فقد ولد سنة ٢٢ قبل الهجرة/٦٠٠ م، وتوفي سنة ٤٠ هـ/٦٦١ م. راجع (الأعلام) للزركلي، ج ٢ ص ٣٠٢ و ٤ ص ٢٩٥.

(٤) شوب لها عدة معانٍ، منها غلاف القرآن والعمل. وهنا معناها الخلط والمزج.

(٥) عبد، الشيخ محمد: نهج البلاغة، المقدمة تحت عنوان: مَنْ هُوَ الْإِمَامُ عَلَيْهِ السَّلَامُ؟

القرآن الكريم، والدين الحنيف، لدرء خطر اللحن المشين؛ وذلك بوضع علم العربية قبل أى كان، لحمايتها وصونها من الرطانة والتحريف.

ولا شئًّ أيضاً، في أنَّ هذا الإمام الهاشمي القرشي رغب في أن يسارع، قبل غيره إلى وضع هذا العلم لصون اللغة باعتبارها لغة قومه.

أما الحججة التي قدمها الدكتور فتحي، ليدعم بها رأيه؛ وتفييد أن جمهور الرواة متفق على أنَّ أبي الأسود هو أول من وضع النحو العربي، فهي حجة واهية؛ لأنَّها تقىض لـما قاله القبطي نفسه؛ فقد جاء في (إحياء الرواة) أنَّ الجمهور من أهل الرواية يصرح بأنَّ أول من وضع النحو أمير المؤمنين علي بن أبي طالب عليه السلام، وذكر هذا الجمهور أيضاً، أنَّ أبي الأسود قال: «ذَخَلْتُ عَلَى أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ عَلَيْهِ السَّلَامُ، فَرَأَيْتَهُ مُطْرَقاً مُفْكَرَاً». فقلت له: فِيمَ تَفَكَّرُ بِأَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ؟ فقال: سمعت بيلدكم لـحنا، فأردت أن أضع كتاباً في أصول العربية. فقلت له: إنَّ فعلت هذا أبقيت علينا هذه اللغة العربية. ثمَّ أتيته بعد أيام، فألقى إلى صحفة فيها: بسم الله الرحمن الرحيم. الكلام كله اسم و فعل و حرف... ثمَّ قال: تتبعه وزد فيه ما وقع لك. واعلم أنَّ الأشياء ثلاثة: ظاهر، ومضرمر، وشيء ليس بظاهر ولا مضرمر... فجمعت أشياء وعرضتها عليه؛ فكان من ذلك حروف النصب فذكرت منها: إنَّ وَأَنَّ وَلَيْتَ، ولعلَّ وَكَانَ، ولم ذكر (لكنْ) فقال: لِمَ تركتها؟ فقلت له: لم أحسبها منها. فقال: بلى، هي منها، فزدتها فيها»^(١).

كذلك صرَّح القبطي بأنَّ هذه الرواية «تعذر الأشهر من أمر ابتداء النحو»^(٢).

وممَّا يدحض حجَّة الدكتور فتحي أيضاً إجماع أهل مصر قاطبة؛ إذ يَرَوْنَ، بعد النقل والتصحيح، أنَّ أول من وضع النحو هو علي بن أبي طالب عليه السلام، وأنَّ أبي الأسود الذي أخذه عنه^(٣).

ويبدو أنَّ الدكتور فتحي يستند إلى أدلة وبراهين تدعم رأي القائلين. إنَّ الإمام علياً عليه السلام هو واضع النحو، بدلاً من أن يدعم رأيه القائل: إنَّ علم النحو من صنع أبي الأسود.

أما دليل الشيخ الطنطاوي الذي يلتقي دليلاً آخر أدى به فتحي عبد الفتاح

(١) القبطي، علي بن يوسف: إحياء الرواة على أنباء النحوة، ج ١، ص ٤.

(٢) المصدر نفسه، ج ١، ص ٥.

(٣) المصدر نفسه، ج ١، ص ٦.

الدجني، وهو الاستناد إلى رواية النديم الذي هو موضع ثقة بنظرهما، فهو دليل ضعيف وأنه ليس من الإنصاف والنزاهة والموضوعية، الحكم على صاحب (الفهرست) بتلك الأحكام، وعلى غيره من الرواية بالشك والريب والانحياز من دون أن نملك ما يثبت حكمنا.

وأدلة كل من عبد العال سالم، وشعبان عوض، لا تقل ضعفاً عنها عند الدجني والطنطاوي، ذلك أنهما رأيا نقطاً أثبياً الأسود المصحف الأساس الأول للنحو العربي. في حين أنَّ مثل هذا النقط، للدلالة على الرفع والنصب والجز والتنوين، يعد «عملًا منطقياً فلسفياً حصرياً»^(١). كما أنَّ هذا العمل لا يبيح لنا التسليم بأنَّ أباً الأسود أولَ مَنْ وضع النحو؛ فلعلَّ هذا النقط كان باعثاً لتلاميذ أبي الأسود، وللناس، على التساؤل عن أسباب هذا الإعراب، وتفسير ظواهره؛ ما هيئ البعض أنظاراً نحوية بسيطة لا تعدُّ، بالمطلق، أساساً للنحو أو قوانين له^(٢).

أما إنكار شوقي ضيف على علي عليه السلام، وضع النحو، فليس في محله؛ إذ إنَّ براهينه وحججه غير مقنعة، لأسباب أبرزها تصريح الجمهور من أهل الرواية بأنَّ أولَ مَنْ وضع النحو، أمير المؤمنين علي بن أبي طالب عليه السلام، واعتراف هذا الجمهور بأنَّ أباً الأسود قال له الإمام علي عليه السلام: «سمعت ببلدكم لحناً، وأردت أن أضع كتاباً في أصول العربية»^(٣) فتحن نسأل الأستاذ شوقي: ماذا تعني كلمة (كتاباً)؟ لا تعني أنها مؤلف يضم بين دفتيه موضوعات نحوية من مرفوعات ومنصوبات و مجروريات، وأبواباً أخرى؟ حتى ولو لم يكن يجمع بين مطابيق كل الأبواب نحوية والصرفية، ألم يشتمل على قسم كبير منها يعدُّ نواةً للنحو؟ فلو كانت هذه اللفظة لا تعني ذلك؛ لما وردت بهذا التعبير؛ وإنما كان من الممكن أن ترد بتعبير آخر. ونسأله أيضاً: ألم يكن تصريح الإمام علي عليه السلام بأنَّ «الكلام كله اسم و فعل و حرف؛ فالاسم ما أنشأ عن المسمى، والفعل ما أنشأ عن حركة للمسمى، والحرف ما أنشأ عن معنى ليس باسم ولا فعل... وأنَّ الأشياء ثلاثة: ظاهر ومضمر، و شيء ليس بظاهر ولا مضمر...»^(٤) تعريفاً لأهم ما يرد في ميدان النحو، والأساس الذي يرتكز عليه هذا العلم؟.

(١) نور الدين، عاصم: مجلة الغدير، العدد الثاني، كانون الثاني، ص ٩٤.

(٢) ضيف، شوقي: المدارس نحوية، ص ١٢، ١٧ - ١٨.

(٣) القبطي، علي بن يوسف: إنباء الرواية على أنباء النحاة، ج ١، ص ٤.

(٤) المصدر نفسه، ج ١، ص ٤ - ٥.

وانتلاقاً مئا تقدّم، فإننا نرى تسويغ شوقي ضيف لوجهة نظره القائلة: إن عبد الله بن أبي إسحاق الحضرمي أول من وضع النحو، أمراً يجافي الواقع، وبخاصة حين ذهب إلى أن ما وضعه على عليه السلام وغيره بمثيل مصطلحات المبتدأ والفاعل والمفعول، أو ربما كان بعض ما وضعه اختلافاً في كلمات اللغة، وأن منها ما يقبل الحركات الثلاث^(١)، وتسمى الأسماء، المعرفة، وأن منها ما يلزم حركة واحدة، وقد يلزم السكون؛ وهو الأسماء المبنية وهذه المصطلحات والاختلافات في اللغة ما هي، بنظر ضيف، إلا نظارات متباينة هنا وهناك، ثم تمكّن ابن إسحاق الحضرمي من أن يصوغها صياغة علمية تقوم على اتخاذ القواعد، وما يطوي فيها من أقيسة وعلل^(٢). على العموم، يتجذر بنا أن نتعرّف بأنّ ابن إسحاق الحضرمي، دوراً فاعلاً بالنهوض في صياغة علم النحو صياغة دقيقة قائمة على الاستقراء والتحليل، لكنه لم يكن أول من وضع هذا العلم، للأسباب التي عرضناها سابقاً. كذلك كان لأبي الأسود فضل كبير في تنقيط المصحف وإعجامه. لكن عمله هذا لا يدفعنا إلى القول: إنه الواضع الأول لعلم النحو لدوع آشرنا إليها آنفاً. غير أن الخطوات الأولى التي خطها الإمام علي عليه السلام على طريق النحو هي اللبنة الأساس في مداميك صرح هذا العلم. وبهذه الخطوات يكون هذا الإمام قد شق الطريق لمن جاء بعده، ومهده له، ثم فتح باب هذا العلم على مصراعيه لمن خلفه من العلماء الذين جالوا في رحابه، وصالوا في ميدانه، فأقاموا صرحاً بالصورة التي بين أيدينا في وقتنا الحاضر.

وفضلاً عن ذلك، فقد كان للإمام علي عليه السلام اليد الطولى على أبي الأسود في الإرشاد، والإشراف عليه، وتقريره لما صح في استنتاجه، كما أشرنا سابقاً.

ولعل أبرز البراهين التي نستطيع بها القول إنّ علياً عليه السلام هو المؤسس الأول للنحو العربي، والتي تدحض مزاعم القائلين إنّ أبي الأسود هو الواضع لهذا العلم، السعي لفهم النص القرآني؛ ذلك أن القرآن الكريم يعد مناط الأحكام التي تنظم الحياة بجميع نواحيها الاجتماعية والاقتصادية والشرعية والسياسية بشكل خاص؛ إذ إن السياسة كانت تتمحور بطريقة مباشرة أو غير مباشرة حول النصوص القرآنية التي كان يستشهد بها ويستفيد منها الطامحون إلى الحكم والسلطة.

(١) يقصد بها الفتحة والضمة والكسرة.

(٢) ضيف، شوقي: المدارس التحوية، ص ١٧ - ١٨.

ولما كانت الغاية من النحو، بالدرجة الأولى، ضبط النص وفهمه، فإن اهتمام علي عليه السلام بوضع النحو لم يكن بعيداً عن المسرح السياسي؛ لأنَّه يخدم محور السياسة الإسلامية، وإن كان الصراع، عند علي عليه السلام، قد أخذ دائمًا الجانب الديني، «حفظاً له كما رسمه القرآن الكريم، وكما طبَّقه الرسول الأعظم»^(١).

من هنا يمكننا القول: إنَّ علياً عليه السلام هو مؤسس النحو العربي؛ لأنَّ ما قام به يعُدُّ الحجر الأساس في بناء صرح هذا العلم، وخطوة أولى على سبيله تتمشى مع قانون التطور والارتفاع؛ وهذا يلفت الانتباه إلى النحو، ويقود إلى التفكير في الإعراب، ووضع الأبواب النحوية كلها لاحقاً. فالإمام علي عليه السلام وضع مبادئه وتعاليم من الممكن الاستضاءة بنورها، والنسيج على منوالها.

أما ما بقي من تعريفات ومصطلحات وتقسيم وأبواب، فهي من عمل من جاء بعده كابن أبي إسحاق الحضرمي، والخليل بن أحمد الفراهيدي وغيرهما.

من هنا نستنتج أنَّ علي بن أبي طالب عليه السلام يعُدُّ الواضع الأول للنحو العربي الذي تطور مع مرور الزمن، ثمَّ جعله من جاء بعده علمًا مستكملاً الدعائم، مرتب الأبواب، منظم التقسيم، غنياً بالتعريفات والمصطلحات العلمية الخاصة المتجلية على صفحات الموضوعات النحوية.

وإذا كان الإمام علي عليه السلام واسع النحو العربي، فما هو أول ما وضع من هذا العلم؟

أول ما وضع من النحو:

وقف العلماء تجاه هذه القضية موقفين متعارضين. فذهب الفريق الأول إلى أنَّ أول ما وضع من أبواب النحو ما أصابه اللحن. فعند ما سمع علي عليه السلام أعرابياً يقرأ من سورة (الحقة) «لَا يَأْكُلُه إِلَّا خاطئُونَ»^(٢) أدرك وقوعه في اللحن بقوله (الخاطئون). وهذا اللحن هو الخطأ في الإعراب؛ إذ أنت هذه الكلمة، في قراءة الأعرابي منصوبة على الاستثناء في حين أنَّ القاعدة تقضي بأن ترتفع، باعتبارها فاعلاً لـ(يأكل). وبذلك تصبح القراءة الصحيحة «لَا يَأْكُلُه إِلَّا خاطئُون». لأنَّ الاستثناء مفرغ. واستناداً إلى ما يذهب إليه هذا الفريق، ربما يكون

(١) نور الدين، عصام: مجلة دراسات عربية، العدد ٥، آذار ١٩٨٨، ص ٤٩ وما بعدها.

(٢) سورة الحقة، الآية ٣٧.

أول ما وضع من أبواب النحو باب (الاستثناء)، وربما يكون غيره من الأبواب. فالأمر متوقف على أول لحن يقع فيه اللحن، ثم يستمر الوضع فيما بعد ذلك على هذا النمط.

لكن يشير كل من الشيخ محمد الطنطاوي والدكتور محمد عبد الكريم إلى أنَّ الباب الموضوع أولاً منوط بالرواية التي قويَّ سندُها من بين الروايات لأنَّ جمهور النحاة يرى أنَّ روايات كثيرة ومستفيضة اقترنت فيها الوضع باللحن^(١).

أما الفريق الثاني فيرى أنَّ أول باب نحوٍ وضع ما كثُر جريانه على اللسان؛ لأنَّ هذا الوضع مبنيٌ على أساس من التفكير في استخراج الفراغ من الكلام، واستنباط القوانين الداعي فشو اللحن. وبذلك يكون الموضوع الأول من النحو ما كثُر دورانه على اللسان، ثمَّ ما يليه، وهكذا؛ ولذلك قالوا: إنَّ الموضوع الأول يكون الفاعل، والثاني المفعول به، والثالث المبتدأ ويليه الخبر وهكذا^(٢).

وإذا كانت أصول النحو العربي من وضع الإمام علي عليه السلام، وأنَّ أول ما وضع منها ما كثُر دورانه على اللسان، فهل تناهى في علم العربية وتطور بعد التأسيس؟ وما المراحل التي تطور فيها؟

(١) الطنطاوي، الشيخ محمد: *نشأة النحو*، ص ٢١، الأسعد، محمد عبد الكريم، الوسيط في تاريخ النحو العربي، ص ٢٧.

(٢) المرجعان السابقان نفسهما: ص ٢١، ص ٢٧.

الباب الثاني مراحل تطور النحو العربي

الفصل الأول :

تطور النحو العربي
في المراحلتين الأولى
والثانية

الفصل الثاني :

تطور النحو العربي
في المراحلتين الثانية
والرابعة

تطور النحو العربي في المراحلتين الأولى والثانية

تمهيد:

مئا لا شك فيه أن لكل علم من العلوم مراحل وأطواراً، يمر بها، قبل بلوغه حد الاتمام، كما يمر الإنسان بأطوار ومراحل، نشأ خلالها، ويتردج، فيكون وليداً، فناشناً وشاباً، ثم كهلاً. وينضج عقله، ويتطور تفكيره، وتوسع أفق معارفه ومداركه. كذلك نشأ علم النحو، في بدايته الأولى، صغيراً شأن الإنسان، ثم نما وترعرع، وتطور وازدهر عبر الزمان، وذلك بإضافة ما استدركه اللاحقون وما ابتدعواه إلى ما وضعه السّابقون. ومن ثم دُون وصنُّف شيئاً فشيئاً في كتب وتصانيف النّحّاة.

وانطلاقاً من هذه المسلمات، يمكن القول إنَّ علم النحو العربي لم ينشأ أولَ مرَّة ناضجاً مفرعاً الأصول، مقعد القواعد، في مرحلة واحدة، وإنما نشأ فكرة عامة، تقوم في بادئ الأمر على استنكار اللحن، واستهجان الخطأ ورده إلى الصواب من دون تفسير أو شرح، أو تعليل وسرعان ما اتضحت هذه الفكرة بعض الوضوح في الأذهان. ولا ريب في أنَّ الدافع إلى التفكير بهذه الفكرة والعنابة بها، كان ناتجاً من كثرة الخطأ، وانتشار اللحن، كما أشرنا آنفاً، وعدم التمرس الكافي باللغة، والوقوف على أسرارها واستعمالاتها؛ ما دفع العلماء إلى ضرب المثل وسوق الدليل، لبيان صحة ما ذهبوا إليه، وإثبات ناصله في اللغة، وجريانه على نمط أسلوب العرب^(١).

ومن هنا نستطيع القول إنَّ اللغة العربية كانت قد مرّت بمراحل من الاضطراب وعدم الاستقرار ثم جاءت الضوابط المتّبعة في الإداء لتسلك طريقاً طبيعياً في التكوين، فكانت تلك الضوابط، أول الأمر، بسيطة غير مطردة، لكن مع مرور الأيام أتيح لها أن تنمو، وتنتشر، وتستقر في النفوس على وجه يجعلها ملكة

(١) الطنطاوي، الشيخ محمد: نشأة النحو، ص ٣٤ وما بعدها.

ومن الشواهد النحوية على الخطأ في اللغة العربية، في مراحلها الأولى قبل أن تنضج، إهمال الأعراب الممثل بحذف التنو من المثنى من غير إضافة في قول الشاعر :

والجدير بالذكر، أنَّ علم النحو اكتمل وضعه قبل سائر العلوم؛ وذلك لشعور العرب بالحاجة الماسة إليه، لدرء خطر اللحن المتفشٍ على الألسنة. وقد تمَّ وضعه في العصر الأموي، لأنَّ اللغة العربية، بعد قيام الدولة الأمية، لم تُعذَّ لغة تخصُّ العرب داخل جزيرتهم، بل أصبحت لغة لدولة ناشئة قوية قامت على أنقاض دولتين كبريتين هما دولتا الفرس والروم. وقد نتج من الفتوحات تدفق الموالي إلى الجزيرة العربية حيث وجدوا أنفسهم أحوج الناس إلى تلقي النحو، رغبةً منهم في تقويم لسانهم، وتخليصه من رطانة العجمة، وحباً في معرفة لغة الدين الذي اعتنقوه، وطمعاً في رفع مكانتهم ومنزلتهم بين العرب، فعزّموا وصمّموا على دراسته والتزييد منه، فبرعوا فيه دراسةً وتأليفاً، ما دفع البعض إلى القول، في وقت من الأوقات: «إنه علم الموالي»^(٢).

وهكذا أصبحت اللغة العربية، بعد قيام الدولة الأموية لغة دولية يتتسابق العرب والموالي لفهمها، بعد انتشارها وتعاظم نفوذها باعتبارها لغة دين هو الإسلام؛ لذلك، لا عجب على الإطلاق أن يوضع النحو، في تلك المرحلة، بعد أن نضج، ودنا جناه. لدرء خطر اللحن عن القرآن الكريم^(٣).

وفي مطلع العصر العباسى^(٤)، أخذ العلماء يدرسونه دراسة واسعة النطاق في البصرة والكوفة. ثم بلغ غاية الاتكمال في بغداد، وذلك قبل نهاية القرن الثالث الهجري، بعد أن مرّ بمراحل أربع نشأ فيها وتطور.

بعد هذا التمهيد، نعود إلى عرض المراحل الأربع التي نشأ فيها النحو وهي:

(١) عمر، أحمد مختار: البحث اللغوي عند العرب، ص ٨٠ - ٨١.

(٢) الطنطاوي، الشيخ محمد: نشأة النحو، ص. ٣٤.

(٢) عوض، شعبان: النحو العربي، ومناهج التأليف، ص. ٨٩.

(٤) يبدأ العصر الأموي من سنة (٤١ هـ - ١٣٢ مـ)، والعصر العباسى من (١٣٢ هـ - ٧٦٣ مـ).

مرحلة الوضع والتأسيس :

بعد التمهيد لنشأة النحو بصورة عامة، ننتقل إلى البحث في نشأته وتغييره، خلال كل مرحلة من مراحل تطوره، مبتدئين بالمرحلة الأولى التي بدأت من عصر علي بن أبي طالب عليه السلام وأبي الأسود الدؤلي أي: في النصف الأول من القرن الأول للهجرة، إلى أول عصر الخليل بن أحمد، أي: في الربع الأخير من القرن الثاني للهجرة. وفي هذه المرحلة كان النحو قد تم وضعه، وكان ذلك في عهد بني أمية.

وقد استأثرت البصرة بهذه المرحلة؛ إذ لها فضل كبير في وضعه وتعهده في نشأته، في حين كانت الكوفة مشغولة عنه برواية الأشعار والأخبار والنواادر والملاع حوالى مائة سنة^(١).

واستمر علماء هذه المرحلة بتشمير ما نقوله عن علي عليه السلام، وأبي الأسود الدؤلي. وفي هذه المرحلة كان أبو الأسود وعبد الرحمن بن هرمز يمثلان الطبقة الأولى من البصريين. ثم ظهرت الطبقة الثانية، فنشط علماؤها من تلاميذ أبي الأسود كنصر بن عاصم الليثي ويحيى بن يَعْمَر^(٢) بإعجام حروف القرآن الكريم كالجيم والخاء والغين بالنقط لدفع التصحيف، وتمييزاً لتلك الحروف المعجمة من الحروف المهملة؛ وذلك بأمر من الحجاج بن يوسف بعد إعجام القرآن بالشكل من قبل أبي الأسود لدفع التحرير. والمعلوم أنَّ عمل أبي الأسود كان يسمى نقط الإعراب، وعمل تلاميذه المشار إليهم، نقط الإعجام، لتمييز بعضهما عن بعض.

وفضلاً عن ذلك فإن تلك الطبقة البصرية التي أخذت عن أبي الأسود، وفُقت في استنباط كثير من أحكان النحو، وعجلت على نشر هذا العلم، وإذا عنته بين الناس^(٣).

وما كُونَ من النحو في هذه المرحلة، كان قليلاً، ويعتقد أنه كان شبه الرواية للسماع. ولم تظهر معالم الشرح والتفسير والتعليق، والقياس على كلام العرب، في تلك المرحلة إلا بعد ظهور عبد الله بن أبي إسحاق الحضرمي. كذلك لم تظهر خلافات كثيرة بين العلماء، لقلة الأخطاء الشائعة لقرب عهد القوم بسلامة اللغة

(١) الأسعد، عبد الكريم محمد: الوسيط في تاريخ النحو العربي، ص ٣٤.

(٢) ومنهم عتبة الفيل، ويمون الأقرن. طبقات النحوين للزبيدي، ص ٢٧ - ٢٨.

(٣) لم يدرك أحد من علماء هذه الطبقة الدولة العباسية. نشأة النحو للطنطاوي، ص ٣٨.

المعربية، ولم يضع العلماء المؤلفات الكثيرة، بل اعتمدوا على ما حفظوه في صدورهم، وما يروونه بلسانهم: غير أنّ نتفاً، في مواضيع متفرقة من النحو، أثرت عنهم، ولم تكن بمستوى الكتب المنظمة^(١). وذهب بعض المؤرخين إلى أنّ أباً الأسود وضع مختصرًا في النحو^(٢).

ومع مرور الأيام، أخذ النحو في مرحلة الوضع، يتناول عدداً من المسائل، كمسألة خطأ يقع فيه قائل، فيرد السامع العارف باللغة هذا الخطأ إلى الصواب كقول الأعرابي: «مات أبانا وترك بنوة»^(٣)، أو أخذ يتوهם بعضهم أنّ عربياً فصحاً وقع فيه، فيحاولون أخذة به. فيأتي هذا الفصيح ليبين لهم وجه خطئهم، ويرشدهم إلى الصواب.

وببدأ النحو، في هذه المرحلة، يتناول مسائل تمثل بأسئلة عن ضبط معين، أو عن استعمال خاص. وكانت تلك الأسئلة توجه إلى من يحيط بأمور اللغة إحاطة واسعة؛ فقد روي عن أبي الأسود أنه قال: «من العرب من يقول: لو لاي لكان كذا وكذا... ويستوحى من هذا الخبر أنّ الكلام هو رد على سؤال وجّه إلى أبي الأسود عن جواز استعمال الضمير بعد (لولا) فأجاب بأن ذلك جائز مستشهدًا بالقول الآتي:

وكم موطن لو لاي طحت^(٤) كما هو^(٥)

وبذلك يكون النحو قد خطأ خطوة إلى الأمام، غير أنّ مدارسته، في هذه المرحلة، قبل ظهور، ابن أبي إسحاق الحضرمي، ظلت سائرة، على هذا النمط من دون تعليل، أو شرح أو تفسير ومن دون اللجوء إلى القياس^(٦).

(١) الطنطاوي، الشيخ محمد: نشأة النحو، ص ٣٧ - ٣٨. عبد الكريم محمد: الوسيط في تاريخ النحو، ص ٣٤. طبقات النحويين: أبو بكر الزبيدي ص ٢١ وما بعدها.

(٢) الطنطاوي، الشيخ محمد: نشأة النحو، ص ٣٨.

(٣) السيرافي، الحسن بن عبد الله: أخبار النحويين البصريين، ص ١٧.

(٤) طحت بمعنى: تهت أي: ضعت. الفيروزآبادي: القاموس المحيط، ج ١، فصل الطاء بباب الحاء، ص ٢٤٦.

(٥) سيريه: الكتاب، ج ٢، ص ٣٧٤. والبيت بكامله يكون:

وكم موطن لو لاي كما هو^(٦) بأجرامه من قلة الشيق منهوي

(٦) القياس في اللغة هو مقارنة كلمات بكلمات، أو صيغ بصيغ، أو استعمال باستعمال. ثار شأنه خلاف طوبل بين البصريين والковفيين. فذهب البصريون إلى جوازه على المشهور الشائع من كلام العرب، وجوزه الكوفيون على كل ما سمع عن العرب، ولو كان شاهداً =

ومن ذلك ما روى عن الحجاج أتَه سأَل يحيى بن يعمر قائلًا: «أتَجْدِنِي أَلْخَن؟» قال: نعم، في كتاب الله. قال: ذاك أشنع له، ففي أي شيء من كتاب الله؟ قال: قرأت «قل إِنْ كَانَ آبَاؤُكُمْ وَأَبْنَاؤُكُمْ وَإِخْوَانُكُمْ وَأَزْوَاجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ وَأَمْوَالَ افْتَرَقْتُمُوهَا، وَتِجَارَةً تَخْشُونَ كِسَادَهَا وَمَسَاكِنَ تَرْضُونَهَا أَحَبَّ إِلَيْكُمْ مِنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ»^(١) فترفع (أَحَبَّ)، وهو منصوب قال: إذا لا تسمعني أَلْخَن بعدها»^(٢). وكان جزاؤه التغبي إلى خراسان. والملاحظ أن يحيى بن يعمر كشف خطأ الحجاج، ثم صوبه بقوله: وهو منصوب من دون أي تعليل أو شرح وتفسير ويتبيّن لنا أيضًا أنَّ الحجاج الحريص على سلامة لسانه راغب في تقويته، لا يريد أن يتتبّع أحد سقطاته، أو يقف على أخطائه. ودليل ذلك نفيه يحيى إلى خراسان. ويشير عمل الحجاج إلى أنَّ مدارسة النحو، في هذه المرحلة، كانت تواجهه، في بدايتها، بطئاً في تطورها.

وروى أيضًا أنَّ نصر بن عاصم الليثي كان يقرأ **﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ اللَّهُ الصَّمَدُ﴾** [الإخلاص: ١ - ٢] من غير تنوين. فلَمَّا أخْبَرَ أَنْ عَزْوَةً^(٣) يَشُونَ، قال: بِسْمِ اللَّهِ قَالَ، وَهُوَ لِلْبَشَرِ أَهْلٌ^(٤).

وهكذا كانت مدارسة النحو، من عصر علي وأبي الأسود ما تلاه، إلى الوقت الذي ظهر فيه عبد الله بن أبي إسحاق الحضرمي، آراء وإجابات غير معللة، أو مقيسة على الشائع الاستعمال في كلام العرب. وبظهور هذا العالم تطور النحو؛ إذ ازدادت مسائله، ومباحته، وأضيف عدد من القواعد، وجرت مناقشات بين العلماء حول بعض المسائل حين جدَّ العلماء في تنبع النصوص واستخراج الضوابط، ثم دُوِّنت بعض الكتب ككتاب (الهمز) لابن أبي إسحاق الذي كان «أوَّلَ مَنْ بَعَثَ النَّحْوَ وَمَدَ الْقِيَاسَ وَشَرَحَ الْعُلُلَ، وَكَانَ مَائِلًا إِلَى الْقِيَاسِ بِالنَّحْوِ»^(٥) وورد في أخبار

= واحداً شاذًا. فقد أجاز الكوفيون حذف (أن) المصدرية في مثل: تسمع بالمعنىidi خير من أن تراه. ومنه البصريون وأعتبروه شاذًا لا يقاس عليه.

(١) سورة التوبة، الآية ٢٤.

(٢) السيرافي، الحسن بن عبد الله: أخبار النحوين البصريين، ص ٢٣.

(٣) هو عروة بن الزبير بن العوام الأسدي القرشي. كان أحد الفقهاء السبعة بالمدينة، عالماً بالدين صالحًا كريماً. ولد سنة ٢٢ هـ ٦٤٣ م وتوفي سنة ٩٣ هـ ٧١٢ م. الأعلام للزرکلی، ج ٤، ص ٢٢٦.

(٤) أبو بكر الزبيدي: طبقات النحوين واللغويين، ص ٢٧.

(٥) المنذر نفسه، ص ٣١.

النحوين البصريين أنه «أشد تجريدًا للقياس، وكان أبو عمرو^(١) أوسع علمًا بكلام العرب»^(٢).

وكان ابن أبي إسحاق بمثيل مع ابن أبي عقرب^(٣) الطبقة الثالثة من البصريين. وقد لمع نجمه وتألق بعد أن غلب أبو عمرو بن العلاء الذي قال: «فغلبني ابن أبي إسحاق يومئذ بالهمزة فنظرت فيه بعد ذاك»^(٤) كذلك اعترف له المشاهير من العلماء كيونس بن حبيب، فقال^(٥): «هو والنحو سواء، أي: هو الغاية»^(٦) ثم سأله رجل يونس عن ابن أبي إسحاق وعلمه قال: «فأين علمه من علم الناس اليوم؟ قال: لو كان في الناس اليوم من لا يعلم إلا علمه لضحك به، ولو كان فيهم أحد له ذهنه ونفاذه، ونظر نظره كان أعلم الناس»^(٧).

ومن المظاهر التي تشير إلى أنَّ ابن إسحاق طور النحو، في هذه المرحلة، بروز فكرة التعليل والقياس عند هذا العبراني الذي قال عنه أبو الطيب اللغوي: «وكان يقال: عبد الله أعلم أهل البصرة وأعقلهم، ففرغ النحو وقاده»^(٨). وقد أشرنا آنفًا إلى أنه أول من بعَجَ النحو ومَدَ القياس وشرح العلل.

وتتجلى فكرة القياس عنده عند ما خطَّ الفرزدق لورود بعض الشواذ في أشعاره، حيث عابه في قوله:

وعُضْ زمَانِيْ يَا ابْنَ مَرْوَانَ لَمْ يَدْعُ مِنَ الْمَالِ إِلَّا مُشَحَّةً أَزْمَجَلَفَ^(٩)

(١) هو أبو عمرو بن العلاء بن عمار بن العريان بن عبد الله بن الحصين التيمي العازني. راجع طبقات الزبيدي، ص ٣٥.

(٢) السيرافي، الحسن بن عبد الله: أخبار النحوين البصريين، ص ٢٥.

(٣) هو معاوية بن عمر الديلي، أبو نوبل. كان فقيهاً نحوياً. السيوطي: بغية الوعاة، ج ٣، ص ٢٩٤.

(٤) أبو بكر الزبيدي: طبقات النحوين، ص ٣١.

(٥) هو أبو عبد الرحمن البصري. كان بارعاً في النحو. سمع عن العرب، وروى عن سيبويه. وله قياس في النحو ومذاهب يتفرد بها. ولد سنة تسعين للهجرة وتوفي سنة اثنين وثمانين ومائة. السيوطي: بغية الوعاة، ج ٢، ص ٣٦٥.

(٦) السيرافي، الحسن بن عبد الله: أخبار النحوين البصريين، ص ٢٦.

(٧) أبو بكر الزبيدي: طبقات النحوين واللغويين، ص ٣١. السيرافي: أخبار النحوين، ص ٢٦.

(٨) أبو الطيب اللغوي: مراتب النحوين، ص ٦ الزركلي: الأعلام، ج ٤، ص ٧١.

(٩) الطنطاوي، محمد: نشأة النحو، ص ٧٣. وعُضْ زمان، أي: شدته والمسحة المستأصل والمجلف أي: الباقي منه بقية. أبو بكر الزبيدي: طبقات النحوين ص ٣٢.

فقد رفع الفرزدق (مجلف) علمًا بأئٍ من حقها النصب، باعتبارها معطوفة على (مسحة) والسبب أن القياس يحتم ذلك ويوجبه.

وفي موضع آخر عاب ابن أبي إسحاق الحضرمي الفرزدق مرة ثانية، حين سمعه ينشد شعراً من قصيدة يمدح فيها عبد الملك بن مروان قائلاً:

مستقبليين شِمال الشَّام تضرِبنا بِحاصلِ كنديفِ القطنِ منتشر
على عُمَانِيْنَا يلْقَى وَأَرْخَلُنَا عَلَى زَوَاحِفِ تُزَجَّى مُخْهَا رِيزُ
وَذَلِكَ لَأَنَّهُ جَرْ (رِيز)، وَالصَّوابُ رفعُها، باعتبارها خبراً لـ (مخها)؛ لأنَّ
القياس يقضي برفع خبر المبتدأ. وبسبب استمرار ابن إسحاق في مراجعة الفرزدق
فإنَّ هذا الأخير هجاه بقوله:

ولو كان عبد الله مولى هجوته ولتكن عبد الله مولى مواليا^(۱)
فأخذ عليه ابن أبي إسحاق، وعاشه لقوله (مواليا)؛ والصواب: مولى موال،
لأنَّ أجرى الكلمة (موال) المضافة مجرى الممنوع من الصرف؛ إذ جرها بالفتحة،
والمفترض حذف الياء والتعریض منها بتنوين العوض لتصبح الكلمة موالاً قياساً
على ما بنطق به العرب في مثل (جوار).

إلى جانب ابن أبي إسحاق، تمسك نحويون آخرون بفكرة القياس، في هذه المرحلة. منهم عيسى بن عمر^(۲) الذي عنده أبو بكر الزبيدي من الطبقية الرابعة البصرية مع أبي عمرو بن العلاء. فقد قاس النصب في الكلمة (مطراً) الواردَة في هذا البيت:

سلام الله يا مطرًا على بها وليس عليك يا مطر السلام^(۳)
على النصب في عبارة (يا رجلاً)؛ إذ جعل مطراً في تنوينها ونصبها كالنكرة
غير المقصودة بالنداء.

وقد حذا عيسى خذل ابن أبي إسحاق في الطعن على العرب إذا خالفوا
القياس. ومن ذلك تخطيته النابغة الذبياني^(۴) حين قال:

(۱) السيرافي، الحسن بن عبد الله: أخبار النحوين البصريين، ص ۲۱ - ۲۲. أبو بكر الزبيدي: طبقات النحوين، ص ۳۲ - ۳۳.

(۲) هو مولى خالد بن الوليد بن المخزومي. نزل في ثقيف، وأخذ عن ابن أبي إسحاق. توفي سنة ۱۴۹ هـ. أبو بكر الزبيدي. طبقات النحوين، ص ۴۰ وما بعدها.

(۳) ضيف، شوقي: المدارس النحوية، ص ۲۵.

(۴) هو زياد بن معاوية بن ضباب الذبياني المصري، أبو أمامة. كان من فحول الشعراء =

فبُثِّ حِينَ سَاوَرْتَنِي ضَثِيلَةً من الرُّقْشِ فِي أَنْيابِهَا السُّمْ تَاقِعُ^(١)
وَالْقِيَاسُ يَقْضِي بِأَنْ يَقُولَ: السُّمْ نَاقِعًا. لَأَنَّ (نَاقِع) حَقُّهَا النَّصْبُ عَلَى الْحَالِ؛
ذَلِكَ أَنَّ الْمُبْدِأَ قَبْلَهَا تَقْدِمُهُ الْخَبْرُ الَّذِي هُوَ الْجَارُ وَالْمُجْرُورُ (فِيهَا). فِي حِينَ أَنَّ
النَّابِغَةَ أَلْغَى شَبَهَ الْجَمْلَةِ لِتَقْدِمِهِ وَجْعَلَ (نَاقِعًا) الْخَبْرَ.

وَالْجَدِيرُ بِالْقَوْلِ أَنَّ عَيسَى بْنَ عُمَرَ سَاهِمٌ فِي تَطْوِيرِ النَّحْوِ، فِي مَرْحَلَةِ الْوَضْعِ
وَالْتَّكْوِينِ، وَذَلِكَ مِنْ خَلَالِ مَا دَوَّنَهُ مِنْ كُتُبٍ، وَمَا أَحَدَثَهُ مِنْ إِبْدَاعٍ فِي مَضْمَارِ هَذَا
الْعِلْمِ؛ مَا دَفَعَ الْخَلِيلَ بْنَ أَحْمَدَ إِلَى قَوْلِ فِيهِ هَذِهِ الْأَبْيَاتِ:

ذَهْبُ النَّحْوِ جَمِيعًا كُلُّهُ غَيْرُ مَا أَحَدَثَ عَيسَى بْنَ عُمَرَ
ذَاكُ الْكَمَالُ وَهَذَا جَامِعٌ فَهُمَا لِلنَّاسِ شَمْسٌ وَقَمَرٌ
وَهُمَا بَابَانِ صَارَا حِكْمَةً وَأَرَاحَا مِنْ قِيَاسٍ وَنَظَرٍ^(٢)

وَالْكَتَابَانِ اللَّذَانِ وَضَعُوهُمَا عَيسَى هُمَا: (الْجَامِعُ) وَالْآخِرُ (الْمُكَمَّلُ). وَقَيْلُ:
الْكَاملُ أَوِ الْإِكْمَالُ^(٣). وَيَعْتَقِدُ أَنَّهُ جَمَعَ مَسَائِلَ النَّحْوِ وَقَوَاعِدَهُ فِي الْكِتَابِ الْأَوَّلِ،
ثُمَّ أَكْمَلَ تِلْكَ الْقَوَاعِدَ وَالْمَسَائِلَ فِي الْكِتَابِ الثَّانِي. وَقَدْ أَفَامَ أَكْثَرَ قَوَاعِدَ (الْجَامِعِ)
عَلَى الْأَكْثَرِ فِي كَلَامِ الْعَرَبِ. وَسُمِّيَّ مَا شَدَّ عَنِ ذَلِكَ لِغَاتِ.

وَهُنَّاكَ مَسَائِلُ نَحْوِيَّةٍ كَانَ عَيسَى بْنَ عُمَرَ يَطْرُحُهَا عَلَى غَيْرِهِ مِنَ الْعُلَمَاءِ
لِلْاستِنْسَاصِ بِأَرَائِهِمْ، وَمِنْهَا مَسَائِلُ حُكْمِ الْإِسْمِ بَعْدَ (إِلَّا) فِي عِبَارَةٍ: (لَيْسَ الطَّيِّبُ إِلَّا
الْمَسْكُ). فَقَدْ رُوِيَ أَنَّ عَيسَى جَاءَ إِلَى أَبِي عُمَرِ بْنِ الْعَلاءِ وَسَأَلَهُ قَائِلًا: «مَا شَيْءٌ
بِلْغَنِي أَنْكَ تَجِيزَهُ؟ قَالَ: وَمَا هُوَ؟ قَالَ: بِلْغَنِي أَنْكَ تَجِيزَ (لَيْسَ الطَّيِّبُ إِلَّا الْمَسْكُ)
بِالرَّفْعِ، فَقَالَ أَبُو عُمَرَ: نَمْتَ يَا أَبَا عُمَرَ، وَأَدْلِجْ^(٤) النَّاسَ! لَيْسَ فِي الْأَرْضِ
حِجَازِيٌّ إِلَّا وَهُوَ يَنْصُبُ وَلَيْسَ فِي الْأَرْضِ، تَعْمِيَ إِلَّا وَهُوَ يَرْفَعُ»^(٥)، وَكَأَنَّهُ يَشَاءُ

= الجاهليين، وأحد الأشراف في الجاهلية. وكان خطيباً عند التعمان بن المنذر، ثم ما لبث أن
انقلب عليه التعمان بعد تغزله بزوجته. توفي سنة ١٨ ق. هـ، ٦٠٤ م. الأعلام للزركي، ج
٣، ص ٥٤.

(١) أبو بكر الزبيدي: طبقات النحوين، ص ٤١. وساورتنى: واثبتي، ضثيلة: حيَّةُ دُقِيقَةٍ قَلِيلَةٍ
لِلْلَّحْمِ. الرُّقْشُ جَمْعُ رَقْشٍ وَهِيَ الْتِي فِيهَا نَقْطَةٌ بَيْضٌ وَسُودٌ. النَّاقِعُ الثَّابِتُ وَالْقَاتِلُ.

(٢) السيرافي، الحسن بن عبد الله: أخبار النحوين البصريين، ص ٣١ وما بعدها.

ووردت لفظة (بطل) بدل (ذئب). أبو بكر الزبيدي: طبقات النحوين، ص ٤٢.

(٣) ضيف، شوقي: المدارس النحوية، ص ٢٦.

(٤) الأدلاج: السير آخر الليل. محيط المحيط مادة (دل ج).

(٥) أبو بكر الزبيدي: طبقات النحوين واللغويين، ص ٤٣.

أن يظهر أنَّ الاسم بعد (إلا) في مثل هذا التعبير منصوب وجوباً عند الحجازيين لأنَّه خبر ليس، أو مرفوع وجوباً، عندبني تميم، باعتباره خبر المبتدأ وأنَّ ليس للنفي مثل (ما) التميمية.

ورأى قومُ أنَّ الرفع بعد (إلا) في مثل العبارة السابقة نوع من اللحن. فقد قيل: ليس ملِكُ الأمر إلا طاعة الله والعمل به، بالرفع بعد (إلا). فلم يجيزوه، وقال أحدهم: «ليس هذا من لحنني ولا لحن قومي»^(١).

وكان عمرو بن العلاء من الذين نشطوا في هذه الرحلة فنظروا في النحو والتصريف وتدرّبوا وقايسوا. وقد تشدّد أبو عمرو بالقياس كابن أبي إسحاق؛ فقال له بعض معاصريه: «أخبرني عما وضعت مما سمعته عربة. أيدخل فيها كلام العرب كلَّه؟» فقال: لا. فقلت كيف تصنع في ما خالفتك فيه العرب وهم حجّة؟ قال: أعمل على الأكثر، وأسمِي ما خالفني لغات»^(٢).

وفي أواخر هذه المرحلة خطأ النحو خطوات متقدمة، عندما بدأ الشحنة يفسرون نظرياتهم، وأراءهم، ويشرّحونها، ويعلّلونها. فقد روى الأصمسي فقال: قال عيسى بن عمر لأبي عمرو بن العلاء: أنا أفصح من معد بن عدنان فقال له أبو عمرو: لقد تعديت. فكيف تنشد هذا البيت:

قد كنْ يخْبِئَ الوجوه تَسْرَأَ فَالليِّوم حِينْ بَدَأَ لِلنَّظَارِ
أَوْ بَدَيْنَ لِلنَّظَارِ؟ فَقَالَ عِيسَى: بَدَأَنِي. فَقَالَ لِهِ أَبُو عَمْرُو: أَخْطَأَتِي،
يَقَالُ: بَدَا يَبْدُوا، إِذَا ظَهَرَ، وَبَدَأَ يَبْدُوا إِذَا شَرَعَ فِي الشَّيْءِ. وَالصَّوابُ: حِينْ
بَدَوْنَ لِلنَّظَارِ.

وممَّا يؤكِّد ظاهرة الشرح والتفسير والتعليل التي اعتمدتها العلماء قبيل نهاية هذه المرحلة، ما حكاه الأصمسي^(٣) عن أبي عمرو بن العلاء قال: «سمعت رجلاً من اليمن يقول: فلان لغوب^(٤)، جاءته كتابي فاحتقرها. فقلت له: أنتول: جاءته

(١) أَبْرَ بَكْرُ الزَّبِيدِي: طبقات النحوين واللغويين، ص ٤٣.

(٢) المُصْدَرُ نَفْسَهُ، ص ٣٩.

(٣) هو عبد الملك بن ثُرِيب بن علي بن أصمع الباهلي، أَبْرَ سعيد. بعد أحد أئمة العلم باللغة والشعر والبلدان. وكان الرشيد يسميه (شيطان الشعر). من تصانيفه: الإبل، الأضداد، خلق الإنسان والخيل وغيرها. ولد ١٢٢ هـ ٧٤٠ م وتوفي سنة ٢١٦ هـ ٨٣١ م. الأعلام للرزكلي ج ٤، ص ١٦٢.

(٤) لغوب: أعياء التعب. معحيط المعحيط للستاني جادة (لغ ب).

كتابي؟ قال: نعم، أليس بصحيفة^(١). فحمله على المعنى؛ وقد جاء ذلك في
كلامهم.

وهكذا يردد أبو عمرو قول الأعرابي متعجبًا (جاءته صحيفة). ويظهر من
كلام أبي عمرو أنه معتبر على كلام الأعرابي، ويريد منه تفسيرًا لهذا الكلام.
غير أن الرجل يجيئه بأن الكتاب صحيفة في المعنى. ولهذا السبب لحقت تاء
الثانية الفعل:

ومن الأمثلة على شروحات العلماء وتعليقاتهم، ما قاله عيسى بن عمر وأبو
عمر بن العلاء في قراءة قوله تعالى: ﴿يَجِأُ أَوْيَ مَعَهُ وَالظَّيْرَ وَالنَّا﴾ [سما:
١٠]^(٢). فهما يقرآن بالنصب، لكنهما يختلفان في التأويل. ولكل منهما حجته
المغايرة لحججة الآخر. فعيسى ينصب الطير باعتبارها معطوفة على محل المنادى.
أما أبو عمرو فيخالف هذا الرأي؛ لأنّه يرى أنّ المعطوف يأخذ حكم المعطوف
عليه. فكان يجب أن يرفع؛ وإنما الوجه بالنصب على إضمار فعل مناسب هو
(سخّرنا) ويستدل لوجهة نظره بقول تعالى: ﴿وَلِسُلَيْمَانَ الْرِّيحَ﴾ [سما: ١٢] أي:
سخّرنا لسليمان الريح^(٣).

وجملة القول إنّ مرحلة الوضع والتكوين، كانت تمثل المدخل إلى النحو
العربي بكل أبعاده، ومسالكه. ففيها وضعت طائفة كبيرة من أصول هذا النحو
وقواعده توجّت بفكرة التعليل، وظاهرة القياس اللتين تمكّن بهما ابن أبي إسحاق
وعيسى بن عمر وسرعان ما أنيس الناس إلى هذا العلم، ففضلوا القول فيه،
ووضعوا فيه الكتب التي تضمّ بين دفنهما، إلى جانب النحو والصرف، اللغة
والأدب، وغير ذلك من العلوم، وذلك مسايرةً لروح العصر، إذ كان النحوي،
حينذاك، أدبياً ولغويّاً وصرفياً، والأديب لغويّاً ونحوياً وصرفياً، وهكذا^(٤):

وسرعان ما لبست هذه العلوم تتفرع، وراح يستقل بعضها عن بعض، ابتداء
من أوائل المرحلة الثانية، فاشتهر بعض العلماء بال نحو، وبؤز آخرون باللغة.

مرحلة النشوء والنمو:

إذا كانت مرحلة وضع النحو وتأسيسه، قد بدأت من عصر الإمام علي عليه

(١) ابن جنّي: *الخصائص*، ج ١، ص ٢٤٩.

(٢) معنى (أوبي) رجعي.

(٣) أبو بكر الزبيدي: *طبقات النحوين واللغويين*، ص

(٤) الطنطاوي، الشيخ محمد: *نشأة النحو*، ص ٣٩.

السلام، وأبي الأسود الدؤلي، وانتهت أول عصر الخليل، فإن مرحلة النشوء والنمو، بدأت من عهد الخليل بن أحمد البصري، وابن الحسن الرئاسي^(١) الكوفي، إلى أول عصر المازني^(٢) البصري، وابن السكikt الكوفي^(٣).

وقد أشرنا آنفاً إلى أنَّ علماء هذه المرحلة الأولى، كانوا من البصريين، ولم يكن لعلماء الكوفة أي دور فيها؛ وذلك لأنَّ مدارسَ النحو إلى روایة الأشعار، والمليح والأخبار مدة لا تقل عن مائة عام^(٤). وفيما لانشغلهم عن كل ذلك بالفقه ووضع أصوله ومقاييسه وفتواه، وبالقراءات وروایتها رواية دقيقة؛ ما جعلهم يحظون بمذهب فقهي هو مذهب أبي حنيفة^(٥).

أما في المرحلة الثانية، فقد تغير الأمر؛ إذ اشتركت الكوفيون مع البصريين جنباً إلى جنب بالنھوض بهذا العلم، ونافسوا في طلبه والإقبال على تعلمه، والنظر في مشكلاته ومسائله، وكثرة التأليف فيه؛ وذلك للظفر بشرف هذا العلم، من خلال تلاقي علماء البصرة والكوفة، وطبعاً بجوائز الخلفاء الذين جعلوا من بغداد حاضرة للخلافة، ومرتاداً للعلماء من الكوفيين والبصريين.

والجدير بالذكر أنَّ علماء المرحلة الأولى، كانوا يركِّزون، في مباحثهم، على النواحي الإعرابية المتمثلة بحركات أواخر الكلمات. وقلما تناولت تلك المباحث النواحي الصرفية المتعلقة بأبائية الكلمة، خلافاً لعلماء المرحلة الثانية الذين تناولوا مسائل صرفية، تراعي أحوال الأبدنية؛ إذ هالهم ما أصابهم من أخطاء دفعتهم إلى تصويبها.

(١) هو محمد بن الحسن بن أبي سارة الرئاسي، أبو جعفر. نشأ بالكوفة، ثم جاء إلى البصرة. وسمى بالرئاسي لكبر رأسه. وهو أول من وضع من الكوفيين كتاباً في النحو اسمه الفيصل. وكان أستاذ الكسائي والفراء. ومن تصانيفه: الإفراد والجمع. بغية الوعاة للسيوطى ج ١، ص ٨٢.

(٢) هو بكر بن محمد بن بقية بن حبيب أبو عثمان. ولد بالبصرة، ونسب إلىبني مازن. كان إماماً في العربية. وكان لا يناظره أحد إلا قطعه لقدرته على الكلام. ومن تصانيفه: علل النحو، وكتاب في القرآن الكريم، وتفاسير كتاب سيوطى والتصريف. توفي سنة ٢٤٩ هـ. بغية الوعاة للسيوطى، ج ١، ص ٤٦٣.

(٣) هو يعقوب بن إسحاق أبو يوسف بن السكikt، كان عالماً بنحو الكوفيين، وعلم القرآن واللغة والشعر، له تصانيف كثيرة في النحو ومعاني القرآن، وتفسير دواوين العرب. توفي سنة ٢٤٤ هـ. واللهجة. بغية الوعاة، ج ٢، ص ٣٤٩.

(٤) الطنطاوى، الشيخ محمد: نشأة النحو، ص ٣٧.

(٥) ضيف، شوقي: المدارس النحوية، ص ١٥٣.

فالفراء يرى أنَّ أصل (اللهُمَّ) «يا اللهُ أَنْتَ بِخَيْرٍ». وقد طرأ عليها اختزال لكثرة دورانها على لسانهم^(١). في حين أنَّ الخليل يرى أنَّ الأصل (يا اللهُ) فحذفت (يا) ثم لزمتها الميم المشددة عوضاً منها. ومن ذلك (لن) التي أصلها في نظر الخليل (لا أنَّ) فحذفت الهمزة تخفيفاً والألف لالتقاء الساكين. لكنَّ الأصل في نظر الفراء (لا) وأبدلت الألف نوناً فيها على نحو ما أبدلت ميمَا في (لَمْ)^(٢). كذلك ذهب الفراء إلى أنَّ أصل (الآن) (أوان)، فحذفت منها الألف الوسطى وغيّرت واوها إلى الألف، وأدخلت عليها الألف واللام. ويقول: «وإن شئت جعلت (الآن) أصلها من قولك: آن لك أنْ تفعل، أدخلت عليها الألف واللام، ثم تركتها على مذهب (فَعَلَ) أي: على أصلها الفعلي، فأنها النصب من نَصْبَ فَعَلَ، وهو وجه جيد»^(٣).

لذلك اتجه العلماء إلى تناول المباحث الصرفية إلى جانب المسائل الإعرابية، فأصبح النحو يضمُّ هذين العلمين.

وقد امتازت مرحلة النشوء والنمو عن سابقتها، بنشاط علماء البصرة والكوفة معاً، في تقضي المأثور عن العرب واستقراره، وإعمال الفكر فيه، واستنباط القواعد والقوانين منه. فما هي أسباب ذلك النشاط؟

أسباب نشاط البصريين والковيين في المرحلة الثانية:

لعلَّ أسباب نشاط البصريين والkovيين في مدارسة النحو وتطويره تعود إلى الأمور الآتية:

١ - التغضب البلدي: إنَّ الاختلاف السياسي بين البصريين والkovيين ولد في نفوسهم التغضب البلدي؛ فكانت الكوفة مقرأً لعلني عليه السلام وأتباعه، في حين كانت القصرة موئلاً لعائشة^(٤)، رضي الله عنها، إلى أعلنَت الحرب ثاراً لعثمان، رضي الله عنه، فحدثت معركة الجمل بعد أن استنكرت أم المؤمنين قتل الخليفة

(١) الفراء: معاني القرآن، ج ١، ص ٢٠٣.

(٢) السيوطي: جمع الهمام، دار المعرفة، بيروت ج ٢، ص ٣.

(٣) الفراء: معاني القرآن ج ١، ص ٤٦٧.

(٤) هي بنت أبي بكر الصديق. تزوجها النبي محمد ﷺ. فكانت من أكثر النساء عقلاً وأغرزهن فضلاً وأعلاهن في الدين كعباً. استنكرت مقتل عثمان؛ ما حملها على المطالبة بقتله من علي عليه السلام. لكنَّ علّي لم يستطع ذلك فوقعَت معركة الجمل وانتصر فيها علي. وجدي، محمد: دائرة القرن العشرين، ج ٦، ص ٧٩٢. وذكر خير الدين الزركلي أنَّها ولدت سنة ٩ ق. هـ، ٦١٣ م وتوفيت سنة ٥٨ هـ، ٦٧٨ م. الأعلام: ٣، ص ٢٤٠.

عثمان استنكاراً حملها على المطالبة بقتلته من على عليه السلام للاقتصاص منهم. غير أنَّ علياً لم يستطع تسليم المتهمين البالغ عددهم عدةآلاف نفر، علمًا أنهم عملوا على توليه الخلافة. فلو أمر علي بتسليمهم وقتلهم لكانوا فضوا هذا الأمر، ولا يسلمون حتى تسفك آخر قطرة من دمائهم؛ ما يؤدي إلى صدع لوحدة المسلمين؛ لذلك امتنع علي عليه السلام عن تسليمهم فشارت ثانية عائشة وأنصارها، ووقعت المعركة التي انتهت بهزيمة أم المؤمنين. ثم أعقبها اختلاف عنيف في سياسة البلدين. وتعمق هذا الاختلاف، وتفاقهم على مز الأ أيام. وسرعان ما اشتدَّ بعد أن ناصر الأمويون أهل البصرة وناهضوا أهل الكوفة؛ إلى أن قامت دولة بنى العباس، فعطفت على الكوفيين؛ فعَزَّ جانبهم بعد ذلٍ، وأفل نجم البصريين بعد تألق^(١).

وقد أدى هذا الاختلاف بين البلدين إلى التباري والمفاخرة، وجرَ السكان فيما إلى تطاول بعضهم على بعض، مُؤلِّداً في نفوسهم إيذان المخالفة في المسائل العلمية على الموافقة عليها. ثمَّ قويت المنافسة بين البصرة والكوفة في المسائل النحوية، بعد أن عملت عوامل الخلاف عملها، ووضعت الحدود الفاصلة، حائلة دون الوفاق بينهما؛ ما أدى إلى ازدهار التحو وتطوره خلقاً وإبداعاً^(٢). وكانت الغاية من هذا التنافس البلدي تحقيق كل فريق النصر على الآخر ليظهر عليه^(٣).

٢ - الرغبة في الوصول إلى الحقائق العلمية، للإعتزاز بالنفس، والتباكي أمام الرأي العام. فقد أذكت تلك الرغبة زوح النشاط بين البصريين والkovيين وألهبت حماستهم؛ لأن الفريق الذي يتذكر ويبدع متوصلاً إلى إيجاد قواعد وقوانين، سيعتزز ويعد بما أوجده من حقائق علمية. لذلك، فلا عجب أن يكتب هذان الفريقان على معالجة النحو والنهوض به.

٣ - الطمع في نائل الخلفاء الذين شجعوا علماء المدينتين على دراسة هذا العلم. فالجوائز والكافآت التي كان الخلفاء يعدون بها من يبدع ويختار من قوانين نحوية كانت تشجع البصريين والkovيين على الاهتمام بال نحو لسفر أغواره وكشف أسراره، واستخراج ضوابطه وقوابعه، فضلاً عن أنَّ أحكام الخلفاء

(١) وجدي، محمد: دائرة معارف القرن العشرين، ج ٦، ص ٧٩٢.

(٢) الطنطاوي، الشيخ محمد: نشأة التحو، ص ١٢٣ وما بعدها.

(٣) عمر، أحمد مختار: البحث اللغوي عند العرب، ص ١١٤.

والأمراء في المجالس، التي كانوا يعتمدونها، بحضور علماء من البصريين والковيين، كانت تزيد من اهتمام الفريقين بدراسة النحو، وثبت فيهم، روح العزم والتصميم على تطوير هذا الفن تهيباً من تعليقات الخلفاء والإمراء الذين كانوا ينصرون ويختذلون، ويرفعون وينزلون.

وهناك سبب جوهري دفع الكوفيين إلى مواجهة البصريين في ميدان هذا العلم يتمثل في التخلف الذي لحق بهم على ما فاتهم من شرف النحو. فغلب على بحوثهم الناجية الصرفية؛ إذ استنبتوا للصرف كثيراً من القواعد التي سبقوا بها البصريين حتى عذهم المؤرخون الواضعين للصرف الذي كان عند البصريين في المرتبة الثانية بعد النحو^(١). ولدفع هذا التخلف اللاحق بهم، تهالك الكوفيون على النحو، وتزاحموا بالمناقب، شأن المفترط الذي يحاول تلافي خطئه؛ فبرز منهم العلماء الذين سارعوا إلى التأليف. وكان (الفيصل) أرل مؤلف تداولوه بينهم.

ولانشغال الكوفيين بالصرف، في هذه المرحلة، ظهرت مباحثه في أبواب الكتب والتصانيف النحوية؛ ما دفع العلماء إلى إطلاق اسم (النحو) على العلمين معاً، وظلّ هذه الإنداخ قائماً حتى تداولته بعض كتب المتأخرین. لذلك صار معنى النحو، في نظر البعض، علمًا تعرف به أحوال الكلم العربية إفراداً وتركيبةً، ليشمل الأمرين أي: النحو والصرف^(٢) ولا يغب عن البال أنّ الأمور التي لا تتصل اتصالاً وثيقاً بالنحو كاللغة والأدب والأخبار، قد انفصلت عن النحو وتكلّمت عن كتبه، في أوائل هذه المرحلة، خلافاً للصرف الذي يختلف عن سائر علوم اللغة العربية بقربه الدنيا بالنحو. لكنَّ الخليل الذي كان يمثل غرزة جبين تلك المرحلة. جمع بين اللغة والنحو^(٣).

وإذا كان النحو، في هذه المرحلة، قد قفز قفزة نوعية في الإزدهار والتطوير، فمن هم العلماء البصريون والkovيون الذين يعود لهم الفضل الكبير بالنهوض بهذا الفن؟ وما الأعمال التي قاموا بها حتى لمعت أسماؤهم في كتب المؤرخين؟

(١) الططاوي، الشيخ محمد: نشأة النحو، ص ٤٢.

(٢) المرجع نفسه، ص ٤١.

(٣) الفراميدي، الخليل بن أحمد: معجم العين، مطبعة العاني، بغداد، ١٣٨٧ هـ، ١٩٦٧ م، الجزءان: الأول والثاني، معظم الصفحات.

مشاهير علماء البصرة والكوفة في المرحلة الثانية:

نبدأ أولاً بالمشاهير من البصريين الذين نشطوا بالنهوض بهذا العلم. وأول نجم تألق بينهم هو الخليل بن أحمد الفراهيدي الذي تجلّى نشاطه بالذهاب إلى الbadia لمقابلة العرب هناك، والاستماع إلى أحاديثهم، واستجمام كل ما سمعه عنهم، ثم العودة إلى البصرة ليشحذ ذهنه، ويتعمق بدراسة هذا الفن، فحقق غايتها «في استخراج مسائل النحو وتصحيح القياس فيه.. . وعمل أول كتاب العين الذي به يتهيأ ضبط اللغة»^(١).

وليس بغرير أن يقوم الخليل بهذا العمل الجليل، فهو عالم ذكيٌ فطن، وأول من استخرج العروض وحصر أشعار العرب بها، واستطاع أن يستنبط منها «من علل النحو ما لم يستتبّه أحد، وما لم يسبقه إلى مثله سابق»^(٢). سئل ابن المفع^(٣) عن الخليل فقال: «رأيتَ رجلاً عقلاً أكثر من علمه»^(٤) وكان الناس يقولون: «لم يكن في العربية بعد الصحابة أذكي منه»^(٥) وبعد أول من جمع حروف المعجم في بيت واحد وهو:

صِفْ خَلْقَ خَزَدَ كَمِيلَ الشَّمْسِ إِذْ بَرَغَتْ يَخْتَلِي الصَّجِيجُ بِهَا ظَبَلاءَ مَعْطَازُ^(٦)
إِنْ كُلَّ مَا وَرَدَ فِي كِتَابِ سِيبَوِيْهِ هُوَ مِنَ الْخَلِيلِ . وَرَدَ فِي (أَخْبَارِ النَّحْوِيْنِ
البصريين) أَنَّ «الخليل أَسْتَاذَ سِيبَوِيْهِ وَعَامَّةَ الْحَكَايَةِ فِي كِتَابِ سِيبَوِيْهِ عَنِ الْخَلِيلِ ،
وَكُلُّ مَا قَالَهُ سِيبَوِيْهِ: سَأْلَهُ أَوْ قَالَ مِنْ غَيْرِ أَنْ يَذْكُرْ قَاتِلَهُ فَهُوَ الْخَلِيل»^(٧) .

وبهذا يكون الخليل بن أحمد جمع أصول النحو، وفرع فروعه، وضرب المثل وساق الدليل، وعلل الأحكام. فقد استطاع هذا العالم أن يكتشف القوانين

(١) السيرافي، الحسن بن عبد الله: أخبار النحويين البصريين، ص ٣٨.

(٢) أبو بكر الزبيدي: طبقات النحويين واللغويين، ص ٤٧. السيرافي: أخبار النحويين، ص ٣٨.

(٣) هو عبد الله بن المفعع المعد من أئمة الكتاب. أصله فارسي. ولد في العراق ١٠٦ هـ، ٧٢٤ م وتوفي سنة ١٤٢ هـ ٧٥٩ م. هو أول من عني في الإسلام بترجمة كتب المتنطق. وترجم عن الفارسية كتاب (كليلة ودمنة). ورسائله آية في الإبداع. خبر الدين الزركلي: الأعلام، ج ٤، ص ١٤٠.

(٤) أبو بكر الزبيدي: طبقات النحويين، ص ٤٩.

(٥) السيوطي: بغية الوعاء، ج ١، ص ٥٥٨.

(٦) المصدر نفسه، ج ١، ص ٥٥٩.

(٧) السيرافي، الحسن بن عبد الله: أخبار النحويين البصريين، ص ٤٠.

العربية في النحو والصرف اكتشافاً دقيقاً، وبئها في رسائل نذكر منها: رسالة في معنى الحروف، ورسالة في جملة آلات الإعراب، ورسالة ثالثة في العوامل، ورابعة سمّاها «شرح صرف الخليل» يعتقد أنه أودع فيها أبنية كلام العرب المستعمل والمهمل على مراتبها الأربع من الثنائي البالغ سبعمائه وستة وخمسين ألفاً، والثلاثي البالغ تسعه عشرألفاً وستمائة وخمسين، والرابعى والخامسى البالغين مئات الألوف من الأبنية^(١) بالإضافة إلى تلك الرسائل فإنّ له بحوثاً نحوية، يجعّ بها كتاب سيبويه، كما أشرنا، فالأصول والمسائل نحوية مبثوثة في مطابوي الكتاب.

وإذا كان عبد الله بن أبي إسحاق الحضرمي، وعيسي بن عمر، قد سبقاً الخليل في وضع مسائل صرفية ومباحث نحوية، فإنَّ الخليل قد خطأ خطوات واسعة بعدهما في النحو والصرف؛ إذ وضع قواعدهما وأركانهما، وشاد صرحهما، ووضع المصطلحات لهما وشعب فروعهما، بعد أن ورث هذين العلمين ساذجين عن أسلافه، وما زال بهما حتى استويا في صورتهما التي ثبتت على الزمن. ثم جاء، بعده، سيبويه ليكمل ما خطّط وما رسم من أصول النحو والتصريف وقواعدهما، ومن المصطلحات والأبواب نحوية التي كانت تدور في محاوراته مع تلميذه سيبويه: المبتدأ والخبر، كان وأخواتها، إنَّ وأخواتها، الأفعال اللازمية، والمتعددة، الفاعل والمفاعيل، تصريف الأفعال، المقصور والممدود والمهموز، المذكر والمؤنث، والمغرب والمبني^(٢)، وغير ذلك من المصطلحات التي وضعها كتسميه علامات الإعراب في الأسماء باسم الرفع والنصب والخفض، وحركات المبنيات باسم الضم والفتح والكسر. أما سكونها فسمّاه الوقف، والخليل هو الذي سمي الكسرة غير المنونة، من مثل: مررت بعد الأمير، باسم الجر. كذلك سمي السكون الواقع في أواخر الأفعال المضارعة المجزومة باسم الجزم^(٣). إلى ذلك ذكر أنَّ الألف والياء والواو في الثنوية، وجسم المذكر السالم، هي نفس حروف الإعراب^(٤). كما أنه أشار إلى أنَّ أسماء الأفعال مبنية ولا محل لها من الإعراب^(٥) مثل: أُفْ وآمين.

(١) السيرطي: بغية الوعاة، ج ١، ص ٥٥٩.

(٢) سيبويه: الكتاب، ج ١، ص ٢٤ و ٢، ص ٧٨. وراجع (دليل الفهارس)، ج ٥ ص ٧ وما بعدها.

(٣) ضيف، شوقي: المدارس نحوية، ص ٣٥.

(٤) المرجع نفسه، ص ٣٥.

(٥) ابن هشام: المغني ص ٥٥٠، طبعة دار الفكر بدمشق.

إلى جانب ذلك تناول بحوثاً صرفية تعالج بنية الكلمة، وما لحروفها من زيادة وأصالة^(١). ويعدُ أول من وضع الميزان الصرفي للأبنية المجردة والمزيدة. ولاحظ أن حروف الزيادة عشرة تجمع في كلمة (سألتمنيها).

ويعود الفضل للخليل في وضع قوانين الإعلال والقلب. ومن الأمثلة على ذلك صيغة اسم المفعول من الفعل الأجوف مثل (مقول) و (مبعث). فكان يرى أن واو مفعول الزائد هي التي تحذف من الصيغتين، باعتبار أنَّ الحرف الزائد أولى بالحذف من الأصلي. وبذلك يصبح وزن الكلمة الأولى، عنده، (مفعُل) وزن الثانية (مفعَل). في حين يرى الذين جاءوا بعده أنَّ عين صيغة اسم المفعول هي المحذوفة. وبذلك يكون وزنها (مقوَل)^(٢).

وكان صاحب كتاب العين يحلل صيغ القلب والإعلال تحليلًا دقيقاً رائعاً في مثل كلمة (أشياء) التي جاءت عن العرب متنوعة من الصرف، مع أنها جمع شيء، وصيغة جمعها وهي أفعال لا تمنع من الصرف؛ لذلك ذهب الخليل إلى أنه حدث فيها قلب، وأنها ليست على وزن أفعال، كما يتوهם بعضهم، وإنما جمعها (شيئاء) على وزن فعلاء الممنوع من الصرف مثل صفراء بسبب ألف التأنيث الممدودة. فالكلمة إذاً إسم جمع لا جمع، وحدث فيها قلب مكاني حين قدمت الهمزة الأولى التي هي لام الكلمة على فائها وبذلك أصبح وزنها (لفاء) لا فعلاء، وظلت متنوعة من الصرف^(٣).

وعلى هذا النسق من التحليل للإعلال والقلب في ما ذكرنا، كان الخليل يحلل تحليلًا واسعًا عبارات اللغة، كما كان يحلل أدواتها وصيغها اللفظية، تحليلًا جعله يلتفت فيها إلى أنه من الممكن أن تكون بعض الكلمات مستخلصة من كلمتين. ككلمة (هلْم)^(٤) التي رأى أنها مركبة من (ها) التنببيهية، وفعل (لُمْ) الذي يعني (لُمْ بنا). ولकثرة الاستعمال حذفت ألف من (ها) للتخفيف لأنَّ اللام بعدها، وإن كانت متحركة، فهي في حكم

(١) الخليل: كتاب العين، (الصفحات الأولى). ولاحظ أنَّ المجردة لا تزيد على خمسة ولا تقل عن ثلاثة.

(٢) ابن جنني: الخصائص، ج ٢، ٦٦.

(٣) ابن الأثيري، عبد الرحمن: الإنصاف في مسائل الخلاف ج ٢، ص ٨١٢. ضيف، شوقي: المدارس التحوية: ص ٣٦.

(٤) هي اسم فعل أمر. راجع (الكتاب) لسببوه، ج ٥، ص ٢٥٢، ج ١، ص ٢٤١. وما بعدها. الهيئة المصرية العامة للكتاب.

الساكنة، وكأنها حذفت لالتقاء الساكنين، فصارت (هلْمٌ) ^(١).

وبحكم حسه اللغوي المرهف الدقيق استطاع أن يفقه أسرار العربية ودقائقها في العبارات والألفاظ فقهاً، يعتقد أن أحداً من معاصريه لم يبلغه. ومما يصور مدى هذا الحس اللغوي الحاد، ملاحظته حكاية العرب لصوت الجندي بقولهم: (صرّ)، وحكاياتهم لصوت البازي بقولهم: (صرّ صرّ). وما لاحظه الخليل أنَّ العرب توهموا، في صوت الجندي استطالة ومدّاً، فقالوا (صرّ) في حين أنَّهم توهموا في صوت البازي تقطيعاً، فقالوا: (صرّ صرّ) ^(٢).

ثبيته أصول نظرية العوامل:

من مظاهر تطور النحو، في مرحلة التشوّه والتمو ثبّيت أصول نظرية العوامل على يد الخليل بن أحمد الذي مدَّ فروعها وأحکمها إحكاماً إلى أنَّ أخذت شكلها النهائي الثابت على مرِّ الدهور. فقد أرسى قواعد تلك الأصول لنظرية العوامل، مشيراً إلى أنه لا بدُّ مع كل رفع لكلمة، أو نصب، أو خفض، أو جزم من عامل يعمل في الأسماء والأفعال المعرفية، ومثلهما الأسماء المبنية. ومن العوامل ما هو لفظي مثل المبتدأ العامل في الخبر الرفع، والفعل العامل في الفاعل الرفع، وفي المفعولات النصب. ومنها ما هو معنوي كالابتداء العامل في المبتدأ. ومنها ما يكون أدوات وحرفاً كجازم الفعل مثل (لم وإن) وأخواتهما، أو ناصبة كـ(أنْ ولنْ) وبابهما. ومنها ما ينصب ما بعده ويرفعه كال فعل مثل (إنْ وأنْ ولكنْ ولكنْ ولست ولعلَّ) التي لا تصرف تصريف الأفعال، ولكن هي بمنزلة الأفعال فيما بعدها، وليس بأفعال ^(٣).

وإذا كان الخليل قد ثبّت أصول نظرية العوامل، فعلام اعتمد في تأصيله القواعد التحوية؟

علام اعتمد الخليل في تأصيله القواعد التحوية؟

إنَّ تأصيل القواعد التحوية لدلالة واضحة على ما بلغه النحو العربي من تطور وتنام على يد الخليل، وذلك من خلال اعتماده، في هذا التأصيل على السماع من نبعين رئيسين، أولهما التقل عن القراء للذكر الحكيم، والثاني العرب الخلص

(١) ابن جنّي: *الخصائص*، ج ٣، ص ٣٥.

(٢) المصدر نفسه، ج ٢، ص ١٥٢.

(٣) سيريه: الكتاب، ج ١، ص ١٣٤، ج ٣، ص ١١٩، وص ٥، ج ٤، ص ٢٢٣.

الموثق بفصاحتهم؛ إذ كانت الجزيرة العربية التي يقطنون في رحابها، تمثل البنابع الصافية للغة السليمة. سئل الخليل: من أين أخذت علمك هذا؟ فأجاب: «من بوادي العجاز ونجد وتهامة»^(١). لذلك يذهب بعضهم إلى التصرير بأنَّ الخليل بن أحمد هو الذي ثبَّت فكرة عدم الاستشهاد بالحديث النبوي الشريف لأنَّ معظم حملته كانوا من الأعاجم غير الموثوق بفصاحتهم بسبب اللحن الدائر على ألسنتهم^(٢).

كذلك اعتمد الخليل في تصميمه القواعد النحوية على التعليل؛ إذ كان يسند دائمًا ما يبتكره من قواعد وأحكام بالعلل الدامنة والحجج القوية والبراهين القاطعة؛ قال أبو بكر الزبيدي: « واستنبط من العروض ومن علل النحو ما لم يستتبظه أحد»^(٣).

وتتعجب المصادر النحوية بتعليلاته؛ ومن ذلك أنه يرى عدم جواز دخول الألف واللام على المنادى فيعملل رأيه بأنه لا يصح أن يقال: يا الحارث، بل يجب القول: يا أيها الحارث بتوسط (أي)، فالألف واللام لم يدخلان في النداء من قبل أنَّ كل اسم في النداء مرفوع معرفة، وذلك أنَّ المتكلِّم إذا قال: يا رجل. فيكون المعنى كمعنى: يا أيها الرجل، وصار معرفة لأننا أشرنا إليه، وأصبح مقصوداً بالنداء وقصد الشيء بعينه، يستغني به، في النداء، عن الألف واللام، ويكون بدلاً منها كما تكون الكاف في رأيتك) بدلاً من رأيت إياك. والمعروف أنَّ الغاية من دخول الألف واللام على الإسم هو معرفة شيء بعينه قد رأينا أو سمعنا به، فإذا قصدنا قصد الشيء بعينه من دون غيره، وعندها، ولم نجعله واحداً من أمة، فقد استغينا عن الألف واللام. كذلك لم ندخلهما في اسم الإشارة (هذا) ولا في النداء. ويمضي الخليل معللاً عدم جواز دخول الألف واللام على النداء، وأنَّ (رجلًا) المقصود بالنداء معرفة مستدلاً بقولنا: يالكاع^(٤)

(١) القنطي: إحياء الرواية على أنياب النحاة، ج ٢، ص ٢٥٨.

(٢) ضيف، شوقي: المدارس النحوية، ص ٤٧.

(٣) أبو بكر الزبيدي: طبقات النحوين واللغويين، ص ٤٧.

(٤) يقال: امرأة لكاع أي لثيمة. راجع القاموس المحيط للفيروز بادي، مادة (ل ك ع)، باب العين، فصل الللام، وحذام امرأة بطيئة وكسلة. المصدر نفسه، مادة (ح ذ م) باب الجيم، فضل الجيم وال Hague. وروقاش: اسم علم للنساء. وقيل: اسم لأخت جذيمة الأبرش أحد ملوك الحيرة. راجع القاموس المحيط للفيروز بادي، باب الشين، فصل الرااء، مادة (ر ق ش)، ومحيط المحيط البطرس البستاني مادة (ر ق ش).

أي: يا لکعاء فصارت (لکاع) اسمًا كما صارت خذام ورثا ش اسمًا للمرأة^(١). إلى جانب السماع والتحليل، اعتمد الخليل على القياس في تأصيل القواعد النحوية. وتعد الأقىسة، عنده، أهم مادة شاد بها الصرح النحوي. وقد بني القياس على الكثرة المطردة من كلام العرب، مع ذكر المخالف لهذا القياس، ومحاولة إيجاد تأويل له في أغلب الأحيان. فعلى سبيل المثال يرى الخليل أنَّ القياس في عطف المعرف بالألف واللام على المنادي المرفوع أن يكون مرفوعاً؛ لأنَّه لو كان هو المنادي لتقدّمه (أي) نحو: يا أيها المشير^(٢)، ورفع معها صفة لها، لأنَّها مهمّة يلزمها التفسير؛ فصارت هي والمشير بمنزلة اسم واحد كأننا قلنا: يا مشير^(٣).

وبذلك يكون القياس في مثل يا عليٌّ والمشير الضم. سأله سيبويه الخليل عن قول العرب: (ما أميلحه). فقال: «لم يكن ينبغي أن يكون في القياس، لأنَّ الفعل لا يحقر^(٤)، وإنما تحقر الأسماء؛ لأنها توصف بما يُعظّم ويُهون، والأفعال لا توصف؛ فكرهوا أن تكون الأفعال كالأسماء، لمخالفتها إياها في أشياء كثيرة. ولكتّهم حقرّوا هذا اللفظ، وإنما يعنون الذي تصفه بالملحق؛ كأنك قلت: مُليح. شبّهوه بالشيء الذي تلفظ به وأنت تعني شيئاً آخر نحو قوله: يطّوّهم الطريق، وصيّد عليه يومان، ونحو هذا كثير في الكلام. وليس شيء من الفعل ولا شيء مما سُمّي به الفعل يحق إلاً هذا وحده»^(٥).

وبعد هذا العرض لنشاطات الخليل يمكننا القول إنه، بحق، واضح النحو العربي في شكله المركب من حيث العوامل والمعمولات، أو من حيث الشواهد والعلل والأقىسة.

يونس بن حبيب:

إلى جانب الخليل، نشط يونس بن حبيب البصري في مدارسة النحو، في مرحلة النشوء والنمو، فارتقي بالنحو إلى مستوى عالٍ؛ ذلك أنه فعل ما فعله الخليل؛ فقابل العرب، ونقل عنهم إلى أن صار بارعاً في النحو، وأصبح مرجع النحويين في المشكلات التي تواجهه بعض أهل العلم الذين أفادهم بآرائه في حلقة دراسة كانت تقام في المسجد الجامع. وقد روى عنه سيبويه وأكثر.

(١) سيبويه: الكتاب، ج ١، ص ١٩٨.

(٢) الكتاب: ج ١، ص ١٨٩ وما بعدها.

(٣) أي: لا يصفر.

(٤) سيبويه: الكتاب، ج ٤، ص ٤٧٧، ٤٧٨.

النحو ومذاهب تفرد بها. وقد سمع منه الكسائي^(١) والفراء. وكان ينتاب حلقته، بالبصرة، أهل العلم وطلاب الأدب وفصحاء الأعراب والبادية^(٢).

وكان يملك ذاكرة عجيبة في قدرتها على تخزين العلم وحفظه من دون الاستسلام للنسبان. فقد قيل: مثل ويونس كمثل بوز ضيق الرأس، لا يدخله شيء إلا بعسر. فإذا دخله لم يخرج منه، يعني لا ينسى^(٣). وقال ابن سلامة نقلًا عن غيره: «ما رأيت أبدًا للعلم من يonus»^(٤).

وتقول بعض الروايات إنه كان يشق بنفسه، من جهة امتلاكه ناصية النحو بدليل ما حكاها سيبويه عنه. وقد استغرب حين علم أن صاحب الكتاب روى عن الخليل. تقول الرواية: «ولمَّا مات سيبويه قيل ليونس: إن سيبويه ألف كتاباً من ألف ورقة في علم الخليل، فقال يonus: ومتى سمع سيبويه من الخليل هذا كله؟» جيئوني بكتابه. فلما نظر في كتابه، ورأى ما حكى قال: يجب أن يكون هذا الرجل قد صدق عن الخليل فيما حكاها، كما صدق فيما حكى عنِي^(٥) وليونس مذاهب خاصة بالنحو. منها قول سيبويه في باب (ما يتقدم فيه المستثنى): «وحدثنا يonus أن بعض العرب الموثوق بهم يقولون: مالي إلا أبوك أحد، فيجعلون أحداً بدلاً، كما قالوا: ما مررت بمثله أحد، فجعلوه بدلاً»^(٦).

وهكذا استمر النحو يتناهى ويتتطور إلى أن ظهر سيبويه، فتعزز هذا التطور وبلغ حدًا لا نظير له من قبل.

سيبوه :

وبظهور سيبويه^(٧) البصري تطور النحو تطوراً يدعو إلى الإعجاب؛ إذ أخذ

(١) هو علي بن حمزة بن عبد الله، أبو الحسن. كان مولى بنى أسد، وإمام الكوفيين في النحو واللغة. وسمى بالكسائي لأنَّه أحرم في كسا. هو من أهل الكوفة، واستوطن بغداد. وقد تعلم النحو على كبره. وأدب ولد الرشيد. وقيل إنه أخذ اللغة عن أعراب من الحضمة ينزلون بقطربيل. له مؤلفات كثيرة. منها: مختصر في النحو، الحروف، ومعاني القرآن، توفي سنة ١٨٩ هـ. السيوطي: بغية الوعاة ج ٢، ص ١٦٢ - ١٦٤.

(٢) السيرافي، الحسن بن عبد الله: أخبار النحويين البصريين، ص ٣٤. وبغية الوعاة للسيوطى ج ٢، ص ٣٦٥.

(٣) أبو بكر الزبيدي: طبقات النحويين، ص ٥١ وما بعدها.

(٤) المصدر نفسه، ص ٥٢.

(٥) أبو بكر الزبيدي: طبقات النحويين واللغويين، ص ٥٢.

(٦) سيبويه: الكتاب ج ٢، ص ٣٣٥ وما بعدها. الهيئة المصرية العامة.

(٧) معنى سيبويه رائحة التفاح. وسمي بهذا الاسم لأنَّ وجنتيه كائنة نفاثتان. وسيبوه كلمة =

هذا العلم عن أستاذة الخليل، وعيسي بن عمر، وغيرهما، وأخذ اللغات عن أبي الخطاب الأخفش^(١) وغيره وسمع من العرب من يوثق بعريبيته بعد أن رحل إلى وادي نجد والمحجاز حيث ينابيع اللغة والنحو، يستمد منها مادةً وعتاداً فصحيحاً صحيحاً. ثم ما لبث أن وضع كتابه المشهور، وأودعه مباحث نحوية وصرفية، جعلته على مثال لم يسبق إليه أحد قبله، ولم يلحق به من بعده^(٢). وقد أظهر هذا الكتاب أن صاحبه كان أبغز أصحاب الخليل في النحو، وهم النضر بن شمبل، وأبو فيد مؤرخ العجمي؛ وعلي بن نصر الجهمي. ولبراعة سيبويه في النحو كان الأخفش الأكبر يطلب منه المتأخرة للاستفادة منه فيقول: «إنما ناظرتك لاستفيد لغيره»^(٣). علمًا بأن الأخفش كان أكبر سنًا منه.

لقد عدَّ النحويون كتاب سيبويه، لشهرته وفضله عليهم، علَّماً بارزاً عندهم؛ فقد ذكر أبو سعيد السيرافي أنه كان يقال بالبصرة: «قرأ فلان الكتاب فيُغلِّمَ أنه كتاب سيبويه، وقرأ نصف الكتاب، ويشكُّ أنه في كتاب سيبويه»^(٤).

وقد دفعت شهرة هذا الكتاب العجيب المبُرُّد^(٥) إلى القول لمن أراد أن يقرأ عليه كتاب سيبويه، تعظيمًا له واستصعباً لما فيه: «هل ركبت البحر؟»^(٦). وللسبب نفسه كان المازني يقول: «من أراد أن يعمل كبيراً في النحو بعد كتاب سيبويه، فليستَخي»^(٧). وليس أدلى على أهمية هذا الكتاب الذي سحر النحويين وأغراهم،

= فارسية. وقيل لقب بذلك للطافته، لأن التفاح من أطيب الفواكه. السيوطي: بغية الوعاء، ج ٢، ص ٢٢٩ والحادية.

(١) هو عبد الحميد بن عبد المجيد أبو الخطاب الأخفش الأكبر، وأحد الأخافشة الثلاثة المشهورين. كان مولى قيس بن ثعلبة، وكان إماماً في العربية قديماً. أخذه عنه سيبويه والكساني ويرنس. السيوطي: بغية الوعاء، ج ٢، ص ٧٤.

(٢) السيرافي: أخبار النحويين البصريين، ص ٤٨.

(٣) المصدر نفسه، ص ٤٨.

(٤) السيرافي: أخبار النحويين البصريين، ص ٥٠.

(٥) هو محمد بن يزيد بن عبد الأكبر الأزدي البصري، أبو العباس المبُرُّد. كان إمام العربية ببغداد في عصره، وصاحب نوادر وظرافة. والمبُرُّد أي: المثبت للحق. تصانيفه كثيرة؛ أشهرها: معاني القرآن، الكامل، المقتنص، وطبقات النحاة البصريين توفي سنة ٢٨٥ هـ. السيوطي: بغية الوعاء، ج ١، ص ٢٦٩ - ٢٧١.

(٦) السيرافي: أخبار النحويين البصريين، ص ٥٠.

(٧) المصدر نفسه، ص ٥٠، يقال: استحا واستجباً منه، انقبض عنه وامتنع. واستحياء خجل. ومنه في سورة البقرة «أن الله لا يستحب أن يضرب مثلاً». محبط المحيط للبساطي، مادة حي ي.

من تصريح لأبي الطيب اللغوي سفي في الكتاب (قرآن النحو)^(١).

إنَّ هذه التصريحات لقديامي النحاة، إن دلت على شيء، فإنما تدل على أنَّ النحو، في المرحلة الثانية من تطوره، قد بلغ أوجهُ من خلال كتاب سيبويه، وأنَّ ما قام به من سبقه ومن خلفه لا يعد شيئاً قياساً على ما عمله هذا العالم البارع النبيه. حتى إنَّ بعض المحدثين صرَّح بأنَّه كان من سوء حظ النحو العربي أنَّ جاء سيبويه، في وقت مبكر جداً، إذ نتج من براعته وتفوقة، وشدة إعجاب النحاة به، والسرور والإغراء اللذين بثهما الكتاب في نفوسهم «أنَّ أصيب التفكير النحوي بشلل، ودار الجميع في فلك سيبويه، واتخذوه أساساً لدراستهم، ولذا لم يطوروها هذه الدراسة بالقدر الكافي، وتحوَّلت معظم الدراسات النحوية إلى مجرد شروح له أو اختصارات، أو تعليقات عليه، أو جمع لشواهده وشرحها»^(٢).

وتكمِّن أهمية هذا الكتاب في كونه شاملًا وجامعاً لكل ما نطلب من المسائل النحوية والصرفية، مرتبًا مبوبًا بشكل لم يتوفَّر عند من سبقوه. وبعد وفاته أذيع بين الناس باسم (الكتاب) الذي كان له الفضل الكبير في نشر المباحث النحوية والصرفية التي ما زالت دائرة على لساننا حتى اليوم. فالنحو ما زالوا يتداولونها في مؤلفاتهم وأبحاثهم؛ لذلك يرى بعض المحدثين أنَّ سيبويه لم يدع لمن جاء بعده إلا ما يدور حول تمييز بعض المصطلحات، أو إضافة مصطلحات جديدة، لغرض الدقة في التوضيح. ومن ذلك أنَّ صاحب الكتاب جعل التوكيد قسمين: أولاًهما مكرر، والثاني غير مكرر. وسماهما من جاء بعده (التوكيد اللفظي والتوكيد المعنوي)^(٣).

والجدير ذكره أنَّ لا شك في أنَّ كتاب سيبويه يظلَّ أساساً لعلم النحو، ويبقى دستور النحو قديماً وحديثاً، وأنَّ الدارسين والباحثين لا يزالون يحلقون في فلك هذا النابغة الفذ في العربية. ولكن أليست الشروحات والمحاضرات والتعليقات عملاً جديداً في مجال النحو؟ ألم تكن آراء الكوفيين، بقطع النظر عن اختلافها عن آراء البصريين، رافضاً يردد علم العربية بقوانين جديدة غيرت النحو وتطورته؟ أو ليست النظريات التي تطالعنا بها مصنفات البغداديين والمصريين والشاميين

(١) أبو الطيب اللغوي: مراتب النحويين، ص ٦٥.

(٢) عمر، أحمد مختار: البحث اللغوي عند العرب، ص ١١٢. شوقي ضيف: المدارس النحوية ص ٥٩ وما بعدها.

(٣) ضيف، شوقي: المدارس النحوية، ص ٦١.

والأندلسين الذين خلفو سيبويه، تطويراً للنحو وازدهاراً له؟.

من هذا المنطلق لا أميل إلى رأي بعض المحدثين الذاهبين إلى أن النحو أصيب بركود وشلل بعد سيبويه، ولو كان كتاب المشهور الميدان الذي حال فيه النحاة وأخذوا من كل علم به بسبب. وعلى الرغم من رأيي هذا، فإنني لا أنكر على أن الكتاب بحر علم، وصاحبه أعلم نحاة عصره؛ فقد قال بعضهم حين نظر في هذا الكتاب: «فعلمه أبلغ من لسانه»^(١) وقال آخر: «كنت عند الخليل بن أحمد، فأقبل سيبويه، فقال الخليل: مرحباً بزائر لا يمل»^(٢) وذكر بعضهم أيضاً أن الخليل لم يقل هذا الكلام إلا لسيبويه^(٣). ويشهد أبو إسحاق الزجاج^(٤) أنه إذا تأمل الأمثلة في الكتاب تبيّن له أن صاحب هذا الكتاب أعلم الناس باللغة^(٥).

بالإضافة إلى ما تضمنه كتاب سيبويه مما تفرق من أبوالخليل ويونس بن حبيب وعيسي بن عمر، وأبي عمرو بن العلاء، وغيرهم من علماء النحو والصرف، بالإضافة إلى ذلك كله، فقد ضمته أيضاً ما استنبطه وابتكره بنفسه من القواعد والقوانين، معتمداً على ما سمعه من العرب الفصحاء. وقد ورد في الكتاب قوله: «سمعنا العرب الفصحاء يقولون انطلقت الصيف»^(٦).

وقد أكثر سيبويه، في كتابه، من العناية بالتعريفات والعوامل والمعمولات. ففي باب النداء يقول: «إعلم أن النداء كلُّ اسم مضاف فيه فهو نصب على إضمار الفعل المتروك إظهاره، والمفرد رفع وهو في موضع اسم منصوب»^(٧). أمَّا العوامل فهي الأساس الذي يعني عليه حديثه في مباحث النحو. فهو يتحدث عن (ما) التافية عند الحجازيين، ويتناول (إنْ وأخواتها) في فصول كثيرة^(٨). ويتحدث عن نواصب الفعل المضارع وجوازه^(٩). كذلك تحدث عن المعمولات وحذفها. كحذف

(١) أبو بكر الزبيدي: طبقات النحوين واللغويين، ص ٦٧.

(٢) المصدر نفسه، ص ٦٧.

(٣) المصدر نفسه، ص ٦٧.

(٤) هو عبد الرحمن بن إسحاق أبو القاسم الزجاجي المنسوب إلى شيخه إبراهيم الزجاج. صيمرى الأصل. نزل بنداد فبع بالنحو. من مصنفاته. الجمل واللامات. توفي سنة ٣٣٩ هـ. السيوطي: بغية الوعاء، ج ٢، ص ٧٧.

(٥) أبو بكر الزبيدي: طبقات النحوين واللغويين، ص ٧٢.

(٦) سيبويه: الكتاب، الطبعة القديمة ج ١، ص ١١١.

(٧) المصدر نفسه، ج ١، ص ٣٠٣.

(٨) المصدر نفسه، ج ١، ص ٢٧٩.

(٩) المصدر نفسه، ج ١، ص ٣٨٨.

الخبر بعد مرفوع (لولا) نحو: لولا الحرب لازدهر لبنان. ويفهم من الكلام أنَّ جواب لولا أغني عن الخبر^(١) كذلك أكثر سببويه من الأساليب التي ساعدته على تأصيل القواعد النحوية. فما هي تلك الأساليب؟

أساليب سببويه في تأصيل القواعد النحوية:

اعتمد سببويه على أساليب كثيرة كشفت تطوير النحو في هذه المرحلة منها:

١ - **أسلوب التحليل:** اعتمد سببويه، في كتابه **أسلوب التحليل لقواعد اللغة**؛ إذ لا يكتفي بتسجيل تلك القواعد، بل يفكر أولاً، بالعبارات، ثم يلاحظ ويتأمل، ومن ثم يبتكر، ويستنبط خواصها ومعانيها بحس دقيق مرهف يكشف دقة الفقه بأساليب العربية واستعمالاتها ودلالاتها. وقد ساعدته التحليل على تبيين حروف الجر الزائدة. ومنها(من) الزائدة مع الاستفهام والنفي في المبتدأ نحو أهل من أحد حاضر؟ وما من أحد حاضر. أو الفاعل نحو: ما حضر من طالب. ومنها الباء الزائدة في حسبك نحو: بحسبك فعل الخير؛ وكأنَّ المراد: حسبك فعل الخير^(٢).

وقد هدته هذه التحليلات إلى إظهار الواو في لغة (أكلوني البراغيث) أنها حرف دال على الجماعة، كما أنَّ التاء في (درست) حرف دال على التائيث^(٣). ومن توجيهاته الطريفة تسميتها حروف الجر حروف الإضافة، لأنَّها تضيف معاني الأسماء إلى الأفعال، وعنه أنَّ التنوين في جواهير وفي غيرها من الأسماء المنقوصة في حالي الرفع والجر، عوض عن الباء الممحونة^(٤).

٢ - **أسلوب السمع:** يعتمد سببويه على السمع كسلفة الخليل ومن سبقه؛ فكان يسمع قراء الذكر الحكيم، وعلماء اللغة المؤوثق بفصاحتهم وعربيتهم، وينقل عنهم ما سمعه، وينتزع ما كان شاداً على السنة العرب بالقبح أو الضعف أو الشذوذ. وقد نقل عن الخليل، ويونس، والأخفش الأكبر وغيرهم. وقد ذهب إلى بوادي نجد والحجاج حيث قيد شعر العرب ونشرهم. وسجل الصورة الشائعة على ألسنتهم في التعبير ليعتمد عليها في تقريره قواعد النحو وقوانيمه. كذلك سجل ما ورد شاداً على ألسنتهم بقطع النظر عن مخالفته لقياس الذي يجب الأخذه. ومن

(١) المصدر نفسه، ج ١، ص ٢٧٩.

(٢) المصدر نفسه، ج ١، ص ٣٥٣.

(٣) سببويه: الكتاب الطبعة القديمة، ج ١، ص ٢٣٦.

(٤) المصدر نفسه، ج ١، ص ٢٠٩، ج ٢، ص ٥٧.

ذلك تُصب المضارع بعد الفاء، حتى ولو لم تكن جواباً للطلب، كالأمر والنهي وغيرهما. فقد عَد ذلك شذوذًا وضعفًا بالرغم من وروده للضرورة الشعرية كما في قول الشاعر:

سأترك منزلي لبني تميم وألحق بالحجاز فأستريحا
فقد قال: «وهو ضعيف في الكلام»^(١).

٣ - أسلوب التعليل: ومن الأساليب التي استعملها سيبويه في تأصيل القواعد النحوية أسلوب التعليل. فقد أكثر في كتابه من التعليقات، كسلفة الخليل؛ إذ كان يعلل الأحكام لكل قاعدة يقررها. وبذلك ثبت جذور التعليل في النحو والصرف، وعمّمها على قواعدهما ومسائلهما. وعلى سبيل المثال فهو يعلل لعدم جزم الأسماء بقوله: «وليس في الأسماء جزم لتمكنها وللحاق التنوين. فإذا ذهب التنوين لم يجتمعوا على الإسم ذهابه وذهاب الحركة»^(٢). كذلك نراه يعلل لإعراب الفعل المضارع، وتسميته باسمه بأنه يضارع أو يشابه اسم الفاعل. في معناه ووقوعه موقعه. فقولنا: إنَّ علياً ليدرس، كقولنا: إنَّ علياً لدارس في ما نريد من المعنى. كذلك فإنَّ لام الابتداء تدخل على الفعل المضارع وعلى اسم الفاعل كما لوحظ في المثلين السابقين. والمعروف أنَّ هذه اللام لا تدخل إلَّا على الأسماء، ولا يجوز دخولها على الأفعال الماضية. لهذه الأمور وغيرها يشبه المضارع الإسم، فاستحق الإعراب، وإدخال الرفع والنصب والجزم على آخره^(٣).

٤ - أسلوب القياس: إلى جانب تمسكه بالتحليل والتعليل، تمسك سيبويه بالقياس وأكثر منه باعتباره الأساس الذي يقوم عليه وضع القواعد النحوية والصرفية، وتقريرها واطرادها. فكان يعتمد على الشائع الاستعمال على ألسنة العرب. وكان يمثل بين استعمالاتهم في الأبنية والعبارات المختلفة. فمن ذلك أنه يقيس المستقىات من اسم فاعل، واسم مفعول، وصيغ مبالغة على الفعل المضارع في العمل، ويرتب على ذلك أنه يجوز في المعمولات معها من التقديم، والتأخير والإظهار والإضمار^(٤) وبخصوص استعمال (ما) النافية استعمال (ليس) في رفع اسمها ونصب خبرها نحو: ما خالدُ شاعرًا. فهو يقف عند هذا الاستعمال، ثم

(١) المصدر نفسه، ج ١، ص ٤٢٣.

(٢) المصدر نفسه، ج ١، ص ٣ الطبعة القديمة.

(٣) سيبويه: الكتاب، ج ١، ص ٣. الطبعة القديمة.

(٤) المصدر نفسه، ج ١، ص ٥٥.

يعقب بلغة تميم فيها، وأنها تعملها. وفي ذلك يقول: «وَمَا بُنْتَ تَمِيمٌ فِي جِرْوَانِهَا مَجْرِيًّا أَمَا وَهُلْ، وَهُوَ الْقِيَاسُ، لَأَنَّهَا لَيْسَتْ بِفَعْلٍ، وَلَيْسَتْ مَا، كُلِّيْسٌ، وَلَا يَكُونُ فِي هَا إِضْمَارٌ. أَمَا أَهْلُ الْحَبْجَازَ، فَيُشَبِّهُونَهَا بِلِيسٍ، إِذَا كَانَ مَعْنَاهَا كَمَعْنَاهَا»^(۱).

وهكذا خطأ النحو خطوطاً متقدمة في مرحلة الشوء والنemo ولا سيما على أيدي كل من الخليل وسيبوه؛ لذلك أسهبنا في حديثنا عن نشاطهما ودورهما في تطوير هذا الفن؛ إذ يمثلان أقوى الأركان الأساسية التي قام عليها النحو.

وقد نشط، في هذه المرحلة، بعد سيبوه عدد من مشاهير البصريين نكتفي بذكر بعضهم مع عرض دورهم في تعقيد النحو والصرف.

الأخفش الأوسط^(۲):

أدى الأخفش دوراً بارزاً للنهوض بالنحو، إذ كان أحذق أصحاب سيبوه، ولقي من لقيه صاحب الكتاب من العلماء. وكان يمثل الطريق إلى كتابه المشهور. قال أبو سعيد السيرافي: «إِنَّ كِتَابَ سِيبُويَّهِ لَا نَعْلَمُ أَحَدًا قَرَأَهُ عَلَى سِيبُويَّهِ، وَلَا قَرَأَهُ عَلَيْهِ سِيبُويَّهُ، وَلَكِنَّهُ لَمَّا مَاتَ^(۳) قَرَأَ الْكِتَابَ عَلَى أَبِي الْحَسْنِ الْأَخْفَشَ»^(۴). وذكر السيوطي أنَّ أبا الحسن الأخفش قرأ على الكسانى كتاب سيبوه سراً، ووهد له سبعين ديناراً^(۵). وممَّا يدل على حذاقته بالنحو أَنَّه سأله الكسانى عن مائة مسألة فأجاب بجوابات خطأه في جمعيها؛ ما دفع أصحاب الكسانى إلى الوثوب عليه فمنعهم عنه ثم قال له زعيم الكوفيين: «بَاشَّاهَ أَنْتَ أَبُو الْحَسْنِ سَعِيدَ بْنَ مَسْعِدَةَ؟ فَقَالَتْ: نَعَمْ، فَقَامَ إِلَيْهِ وَعَانَقَنِي، وَأَجْلَسَنِي إِلَى جَنْبِهِ، ثُمَّ قَالَ: لَيْ أُولَادٌ أَحْبَبْتَ أَنْ يَتَأَدَّبُوا بِكَ، وَيَتَخَرَّجُوا عَلَيْكَ، وَتَكُونُ مَعِي غَيْرُ مُفَارِقٍ لِي، فَأَجْبَتَهُ إِلَى ذَلِكَ»^(۶). وقال المبرد عنه: «أَحْفَظَ مِنْ أَخْذِهِ عَنْ سِيبُويَّهِ الْأَخْفَشَ»^(۷). وروي أيضاً أنه، لما دخل بغداد أتاه أحد علماء الكوفة ليُسأله عن مسائل عملها، وفروع فرعها. فلما

(۱) المصدر نفسه، الطبعة الجديدة، ج ۱، ص ۱۴۷، ۳۱۴، ۵۷، ۶۹ - ۵۷، ۱۲۲.

(۲) هو سعيد بن مسعدة، أبو الحسن. كان مولى لبني مجاشع بن دارم من أهل بلخ. اشتهر بالنحو، له مؤلفات كثيرة أهمها (الأوساط بالنحو). توفي سنة ۲۲۱ هـ السيرافي: أخبار

النحوين والبصريين، ص ۵۰. السيوطي: بقية الوعاء، ج ۱، ص ۵۹۰.

(۳) أي: سيبوه:

(۴) السيرافي: أخبار النحوين، ص ۵۰.

(۵) السيوطي: بقية الوعاء، ج ۱، ص ۵۹۰.

(۶) المصدر نفسه، ج ۱، ص ۵۹۰.

(۷) المصدر نفسه، ج ۱، ص ۵۹۰.

رأى الأخفش أنَّ اعتماد هذا العالم وغيره من الكوفيين، على المسائل عمل كتاب (المسائل) الكبير قال: «فلم يعرفوا أكثر ما أوردته فيه»^(١). ويرى أيضاً أنَّ أحد النحويين قصد ثعلباً، فدق عليه الباب. فخرج وبيه جزء من مسائل الأخفش. فقال له: ويحك، أصحابك هذا مجنون، ويتكلم بما لا يفهم؟! فقيل له: وأين شيء، وقفت عليه من هذا؟ فقال: في كثير من المسائل. فقيل له: «هذا رجل أشرف على بحر، فهو يتكلم بما يريد. فسكت»^(٢).

ويفضل براعته ومهاراته صنف الأخفش الكثير من المصنفات ضمنها كل ما أوتي به من علم، ليذيعه على الناس. نذكر من مؤلفاته (الأوساط في النحو، معاني القرآن، المقاييس في النحو، الاستيقان)، وكتاب (المسائل) الكبير الصغير^(٣).

ويفعل نشاط الأخفش الأوسط، يمكن القول إنَّ النحو قطع شوطاً بعيداً على طريق النمو والتطور. علماً بأنَّ النحو وأصوله وقواعدُه الأساسية تكونت بشكل نهائي على أيدي الخليل وتلميذه سيبويه اللذين لم يتركا للأجيال التالية، على ما يبدو، سوى خلافات فرعية تكثر ونقل حسب المدارس وحسب النها.

ولكنَّ ظاهرة التطور التي أبرزها الأخفش تكمن في عنایته بالحدود والتعريفات أكثر من عنایة أستاذه سيبويه بها. فعلى سبيل المثال يكتفي سيبويه، عند تعريفه، الإسم بالتمثيل فقط كقوله: «والاسم رجل وفرس وحائط»^(٤) في حين أنَّ الأخفش يقول: «الإسم ما جاز فيه نفعني وضربني» أي: ما جاز أن يخبر عنه^(٥). وتكون أليضاً في التعليقات؛ فسيبويه يتعلَّم امتناع الفعل المضارع من الخفض بأنَّ المجرور داخل في المضاف إليه وأنَّه يعاقب بالتنوين، والمضارع لا ينون. لكنَّ الأخفش يعني بهذا التعلييل أكثر بالإيضاح والشرح قائلاً: «لا يدخل الأفعال الجر، لأنَّه لا يضاف إلى الفعل، والخفض لا يكون إلا بالإضافة، ولو أضيف إلى الفعل، والفعل لا يخلو من فاعل، وجب أن يقوم الفعل وفاعله مقام التنوين، لأنَّ المضاف إليه يقوم مقام التنوين، وهو زيادة في المضاف، كما أنَّ التنوين زيادة. فلم يجز أن تقييم الفعل والفاعل مقام التنوين؛ لأنَّ الاسم لا

(١) أبو بكر الزيدي: طبقات النحويين، ص ٧٣.

(٢) المصدر نفسه، ص ٧٤.

(٣) السيوطي: بفتح الوعاء، ج ١ ص ٥٩١.

(٤) سيبويه: الكتاب، ج ١، ص ٢.

(٥) الرجاجي: الإيضاح في علل النحو، ص ١١٠ وما بعدها.

يتحمل زياستين، ولم يبلغ من قلة الثنين، وهو واحد، أن يقروا مقامه، كما لا يتحمل الإسم الألف واللام مع الثنين^(١).

ومن ظواهر التطور الأخرى التي أحدثها الأخفش الأوسط مخالفته سيبويه وأستاذه الخليل في كثير من المسائل، ونقضه كثيراً من آرائهم. ومن ذلك تجويفه مجيء (من) الجارة زائدة في الإيجاب كقوله تعالى: «وَلَئِنْ جَاءَكَ مِنْ نَبِيٍّ أَمْرُسَلِينَ» [الأنعام: ٣٤]، «تُكَفِّرُ عَنْكُمْ» من «سَيِّئَاتِكُمْ وَتَذَلَّلُكُمْ»^(٢) [النساء: ٣١]. وكان يذهب إلى جواز إعمال (إن) إذا دخلتها (ما) الكافة نحو إنما زيداً قائم^(٣). كذلك أجاز دخول لام الابتداء على نعم وبش في مثل: إنَّ مُحَمَّداً لَنْعَمْ الرَّجُل^(٤). ورأى أيضاً أنَّ (إلا) الإستثنائية قد تأتي عاطفة بمعنى الواو ومتزلتها في التشريك لفظاً ومعنى كما في قوله تعالى: «إِنَّمَا يَكُونُ لِلنَّاسِ عَيْنَكُمْ حَمْجَةُ إِلَّا الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْهُمْ» [البقرة: ١٥٠] أي: ولا الذين ظلموا^(٥).

وبهذه الآراء التي نقض بها الأخفش آراء سيبويه أتاح للكوفيين أن يفتحوا أبواب الخلاف على زعيم المدرسة البصرية وأستاذه الخليل. فقد أتى زعيم المدرسة الكوفية (الكساني) في كثير من هذه الوجوه التي بسطها. كذلك أتى الفراء في كثير من آرائه التي حاول بها نقض طائفة من آراء سيبويه والخليل؛ ما دفع بعضهم إلى الاعتقاد أنَّ الأخفش هو بحق أستاذ المدرسة الكوفية^(٦). ومن الآراء التي خالف بها سيبويه إنكاره إعمال (لات) إذ ذهب إلى أنها غير عاملة. والمرفوع الذي يليها يكون مبتدأ وخبره ممحوفاً. أمّا إذا تلها، منصوب، كان مفعولاً به لفعل ممحوف مقدر. وتقديره في (ولات حين مناص) ولا (أرى حين مناص)^(٧). والمعلوم أنَّ سيبويه يذهب إلى أنها تعمل عمل (ليس) ويليها، إمّا الإسم مرفوعاً، وإمّا الخبر منصوباً، وهو دائماً (الجين). ومع الرفع يكون الخبر ممحوفاً، ومع النصب يكون اسمها ممحوفاً^(٨).

(١) المصدر نفسه ص ١١٠.

(٢) راجع المعني لابن هشام، المكتبة العصرية ج ١ ص ٣١٨ - ٣٢٤.

(٣) ابن عقيل: شرح ألفية ابن مالك ج ٢، ص ١٧ (المكتبة العصرية).

(٤) السيوطي: همع الهرامع ج ١، ص ١٤٠.

(٥) ابن هشام: المعني، المكتبة العصرية، صيدا، ج ١، ص ٧٣.

(٦) ضيف، شوقي: المدارس التجوية، ص ٩٥ - ٩٦.

(٧) السيوطي: همع الهرامع، ج ١، ص ١٢٦.

(٨) سيبويه: الكتاب، ج ١، ص ٥٧ - ٥٨، ٦٠، ٢٧٥ وج ٢، ص ٢٧٥، الهيئة المصرية.

إن الآراء الجديدة التي جاء بها الأخفش، في المرحلة الثانية، من مخالفته كثيراً من آراء سيبويه والخليل، إلى فسح للقياس على الأشعار الشاذة التي لا تطرب مع قوانين أستاذنا، وصولاً إلى فسح للقراءات^(١) محتاجاً بها مهما خالفت القواعد النحوية القياسية عند سيبويه، لدليل قاطع على تطور النحو وازدهاره. وبفعل هذا النشاط الذي قام به الأخفش، يمكن القول إن النحو قطع شوطاً بعيداً على طريق النمو والتقدم.

وهناك مشاهير آخرون من النحويين البصريين الذين ظهروا في مرحلة النشوء والنمو، وساهموا في تطوير النحو، لا يتسع المجال للحديث عن نشاطاتهم، ونكتفي بما عرضناه، وتكلمنا عنه، على سبيل المثال لا الحصر.

وإذا كان البصريون قد نهضوا بال نحو هذا الهوض الكبير، في تلك المرحلة، فأين دور الكوفيين؟ وما أثر هذا الدور في تطوير هذا الفن؟

دور الكوفيين في تطوير النحو في المرحلة الثانية:

لم يكن دور الكوفيين، في المرحلة الثانية، أقل تأثيراً منه، عند البصريين في مدارسة علم النحو، ومعالجة مسائله. فالأسباب التي ذكرناها آنفاً، كانت محركاً فعالاً للنهوض به من قبل الفريقين. غير أن الكوفيين التفتوا، في تلك المرحلة، إلى النواحي الصرفية، مستبطنين للصرف كثيراً من قواعد وقوانين، لم يدركها البصريون الذين أولوا النحو اهتماماً كبيراً، لدرء خطر اللحن، كما رأينا سابقاً، واضعين الصرف في مرتبة ثانية بعد علم العربية، فتهافت الكوفيون على البحث بمسائل الصرف، لدفع التخلف اللاحق بهم، على ما فاتهم من الظفر بشرف النحو؛ إذ سبقهم البصريون في مدارسة هذا العلم بمدة لا تقل عن قرن من الزمن. وقد برز منهم مشاهير كان في مقدمتهم:

محمد بن الحسن الرزاقي^(٢): لقد نشط هذا العالم نشاطاً جعله أول من وضع من الكوفيين كتاباً في النحو، سماه (الفيصل). ولم يختبر على إظهاره حين دخل البصرة. ولمكانته العلمية عُدّ أستاذ أهل الكوفة في النحو؛ إذ روى عنه

(١) من ذلك أخذ الأخفش بقراءة أبي جعفر في قوله تعالى: «لِيَجْزِي قَوْمًا بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ»، مشتملاً منها قاعدة جواز إقامة غير المفعول به مع وجوده نائب، فاعل مخالفًا بذلك أستاذنا. راجع: همع الهرامع للسيوطى، ج ١، ص ١٦٢.

(٢) هو أبو جعفر بن أبي سارة. ولقب بالرزاقي لكبر رأسه. راجع بقية الوعاء للسيوطى، ج ١، ص ٨٢.

الكسائي والفراء^(١). وقد أودع كتابه كل ما ورد في كتاب سيبويه. وفي ذلك يقول: «بعث الخليل إلى يطلب كتابي، فبعثته إليه، فقرأه، فكل ما في كتاب سيبويه»^(٢) وكان أبو جعفر يمثل الطبقة الأولى من الكوفيين. أما الطبقة الثانية فكان على رأسها الكسائي.

الكسائي: هو علي بن حمزة أبو الحسن الذي قاد الحركة النحوية الكوفية في مرحلة النشوء والنمو، فنهض بالنحو نهوضاً قوياً، إذ أكَّبَ منذ نشأته على حلقات القراء، واختلف إلى حلقات أبي جعفر الرؤاسي، وإلى كتابه (الفيصل). وروي أنه سُأله عَمَّن يعلم النحو، فأرشد إلى معاذ الهراء^(٣)، فلزمه حتى أنفذه ما عنده، ثم خرج إلى البصرة حيث لقي الخليل وجلس في حلقته، فقال له رجل من الأعراب «تركت أسد الكوفة وتماماً وعندهما الفصاحة، وجئت إلى البصرة؟! فقال للخليل: من أين علمك هذا؟ فقال: من بوادي الحجاز ونجد وتهامة، فخرج ورَجَع»^(٤). وهناك سمع عن العرب وحفظ وكتب، وعاد إلى البصرة ملِّماً بكل ما ينطوي عليه النحو من قواعد، متمكناً من الرد على المسائل التي جرت بينه وبين يونس بن حبيب الذي أَقْرَأَ له فيها، إلى أن صار أعلم الناس، في عصره، ضابطاً عالماً بالعربية، قارناً صدوقاً. قال الفراء: «قال لي رجل: ما اختلافك إلى الكسائي وأنت مثله في النحو؟ فأعجبتني نفسي، فأتيته فنظرته مناظرة الأكفاء؛ فكأني كنت طائراً يغُرِّ بمُنقاره من البحر»^(٥). ومن الأدلة الساطعة على براعته ومهارته في أصول النحو إجاباته على أسئلة تحتاج إلى نجابة وذكاء كانت تطرح عليه بحضوره الخلفاء؛ فقد روى أنَّ أحد القضاة دخل على الرشيد^(٦)، والكسائي عنده يمازحه. فقال

(١) أبو بكر الزبيدي: طبقات النحويين والمغاربيين، ص ١٢٦. السيوطي: بغية الوعاء، ج ١، ص ٨٢ - ٨٣.

(٢) السيوطي: بغية الوعاء، ج ١، ص ٨٢ - ٨٣.

(٣) هو معاذ بن مسلم الهراء. كان يبيع الheroii من الشياط، أذب عبد الملك بن مروان وقد نظر في النحو. توفي سنة ١٨٧ هـ. أبو بكر الزبيدي: طبقات النحويين، ص ١٢٥، والسيوطي بغية الوعاء، ج ٢، ص ٢٩٠.

(٤) السيوطي: بغية الوعاء، ج ٢، ص ١٦٣.

(٥) أبو بكر الزبيدي: طبقات النحويين، ص ١٢٩، السيوطي: بغية الوعاء، ج ٢، ص ١٦٣.

(٦) هو هارون الرشيد بن محمد المهدى: كان أشهر خلقاء بني العباس. بُرِيع له سنة ١٧٠ هـ. كان حكيمًا مولعاً بمطالفة التاريخ والأدباء. تحولت بغداد في عهده إلى مركز المعارف الإنسانية لجميع أقطار الأرض. توفي سنة ١٩٣ هـ. وجدي، محمد فريد: دائرة معارف القرن العشرين، ج ١٠، ص ٥٠٥.

القاضي لل الخليفة: هذا الكوفي قد استفرعك وغلب عليك. فقال الرشيد: إنه ليأتيني بأشياء يشتمل عليها قلبي. ثم أقبل الكسائي على القاضي قائلاً له: هل لك في مسألة؟ قال: نحو أز فقه؟ قال بلى فقه؟ فضحك الرشيد وقال: تلقي على أبي يوسف^(١) فقهأ؟! قال: نعم. قال: يا أبو يوسف، ما تقول في رجل قال لامرأته: أنت طالق إن دخلت الدار؟ قال: إن دخلت الدار طلقت. قال أخطأت يا أبو يوسف، فضحك الرشيد، ثم قال: كيف الصواب؟ قال: إذا قال: «أن»، فقد وجَبَ الفعل، وإذا قال: (إن) فلم يجب، ولم يقع الطلاق، قال: فكان أبو يوسف بعدها لا يدع أن يأتي الكسائي^(٢).

وهكذا استطاع الكسائي، بفضل سعة علمه بالعربية، أن ينال حظوظة الخلفاء ورضاهما، فأذب ولد الرشيد (الأمين)^(٣)، وقيل: إنه أذب ولديه (الأمين والمأمون)^(٤)، بعد أن كان مؤذباً للرشيد نفسه بایعاز من والده الخليفة محمد المهدي^(٥). وقد ذاعت شهرته، فوصل به الأمر إلى مرافقة الرشيد في رحلاته. وقد توالت العلاقات بينه وبين هذا الخليفة وبخاصة حين تلقاه في بعض طريقه، فوقف عليه، وسأله عن حاله، فقال الكسائي: «أَلَوْلَمْ أَجِئْنَ مِنْ ثُمَرَةِ الْأَدْبِ إِلَّا مَا وَهَبَ اللَّهُ لِي مِنْ وَقْفِ أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ عَلَيَّ لَكَانَ كَافِيًّا»^(٦).

وبهذا يمكن القول إن الكسائي دفع بالنحو إلى مستوى عالي من التقدم، حين أخرج للناس مؤلفات نفيسة تناولت مسائل هذا الفن وقضاياها؛ نذكر منها معاني القرآن، ومحتصراً في النحو، القراءات، والنواذر والعدد، والمصادر والحرروف^(٧) فتهافت الناس عليها لينهلوا من معينها.

ولم يكُفِّ الكسائي ما أخذَهُ عن العرب الخَلُص في بوادي نجد والحجاج

(١) هو القاضي نفسه.

(٢) أبو بكر الزبيدي: طبقات النحوين واللغويين، ص ١٢٧.

(٣) المصدر نفسه، ص ١٢٧. وأبو سعيد السيرافي: أخبار النحوين، ص ٤٠ - ٤١.

(٤) ضيف، شوقي: المدارس النحوية، ص ١٧٢.

(٥) هو محمد المهدي بن المنصور. ولد الخليفة من سنة ١٥٨ إلى ١٦٩ هـ. في أيامه، ظهر المقطع بخراسان مدعياً الألوهية. وزعم أنَّ الله خلق آدم، فحل في صورته، ثم في صورة نوح، وذلك بعد أن اتخذ له وجهًا من ذهب وضعه على وجهه. توفي سنة ١٦٩ هـ. محمد وجدي: دائرة معارف القرن العشرين، ج ٦، ص ١٠٥ - ١٠٦.

(٦) أبو بكر الزبيدي: طبقات النحوين، ص ١٢٨.

(٧) السيوطي بفتح الوعاء، ج ٢، ص ١٦٤.

وتهامة، لكنه مضى يكثُر من سماعه عن أعراب الْحُطَمَة^(١)، بلا حرج خلافاً للبصريين الذين يربأون بأنفسهم أن يأخذوا اللغة عن أمثالهم من العرب المتحضرين، وقد استشهد على سيبويه بلغتهم، ما دفع محمد يحيى بن المبارك الملقب باليزيدي، لتأديبه يزيد بن منصور الجميري، إلى هجائه ونعته بأنبي الألفاظ، مع أصحابه حين قال:

على لسان العرب الأول
على لُغى أشياخ قُطْرِيل
به يصاب الحق لا يأتل
يرقُون بالنحو إلى أسفل^(٢)

كُنَّا نقيس النحو فيما مضى
فجاءنا قوم يقيسونه
فكُلُّهم يعمل في نقص ما
إِنَّ الْكَسَانِيَ وأصحابه
ومن هجائه له ولأصحابه قوله في موضع آخر:

بعد أبي عمرو وحماد^(٣)
والزین في المشهد والنادي
ولا خليلاً حتیة الوادي
منبني أغسام وأوغاد
لِشَامَ آباء وأجداد
قياس سوء غير منقاد
في النحو حارِ غير مراد^(٤)

يَا طالبَ النحو أَلَا فابِكِه
وابن أبي إسحاق في علمه
ويونسَ النحوِي لا تنسه
أَفَسَدَةُ قَرْمَ وَأَرْزَوَابَه
ذوي مِرَاءٍ وذوي لُكْنَةٍ
لَهُمْ قِيَاسٌ أَحَدُثُوهُ هُمْ
أَمَّا الْكَسَانِي فَذَاكَ امْرُؤٌ

وقال اليزيدي في الكساني بيثن آخرين لا يقلُّن ذمّاً وقدحاً عن الأبيات السابقة، وهما:

وثنى ابن غزاله
فاعلِفوا الثِّئِسَ التِّخَالَة^(٥)

أَفْسَدَ النَّحُو الْكَسَانِي
وَأَرَى الْأَحْمَرَ تِنِسَا

وهكذا سار الكساني بالنحو إلى الأمام بعد اتصاله بالأخفش الأوسط ورواية كتاب سيبويه عنه؛ حيث وجده يكثُر من الخلاف على صاحبه وعلى أستاذه الخليل

(١) هم عشيرة من بني عبد القيس نزلت في بغداد وأقامت بها. وخطمة هو ابن محارب كان يعمل الدروع. الفيروز بادي: القاموس المحيط، ج ٤، ص ٩٨، فصل الحاء باب العيم.

(٢) السيرافي: أخبار ونحوين البصريين، ص ٤٦.

(٣) أبي حمد بن سلمة.

(٤) السيرافي: أخبار ونحوين البصريين، ص ٤١ - ٤٢. وحار تعني: حائزأ.

(٥) السبوطي: بغية الوعادة، ج ٢، ص ١٦٤.

مستعيناً بمعرفته الواسعة بلغات العرب. وقد استغلَّ الكسائي الفرصة التي كان يملِّي فيها الأخفش علومه الغزيرة النفيسة على الطلبة، إذ ساعدته تلك الفرصة على تكوين فكرة أصبت فيما بعد أتجاههاً معايراً للنحو البصري مغايرةً تقوم على الإتساع في الرواية والقياس استطاع الكسائي التقاد من خلالها إلى تأسيس مدرسة كوفية عمل الفراء على تدعيم أركانها مع كوفيدين آخرين. وبعمله هذا أصبح إمام تلك المدرسة؛ إذ هو الذي وضع رسومها ووطأ منهاجها. فإليه انتهى الكوفيون بعلمهم، وعليه عولوا برواياتهم، فكان قدوتهم ومرجعهم، بقطع النظر عن سوء تنظيم علمه، وافتقاره إلى الحجاج والعلل، مقارنة بسيبوه زعيم البصرىين، لكنه تلقن عن هذا الأخير وعن أستاذة الخليل، وعيسى بن عمر معرفة العلل والأقise^(١).

توسع الكسائي في القياس: أمن الكسائي بأنَّ النحو إنما هو من ضروب القياس، وما يُطوى فيه من علل وحجج تشدُّه وتقيمه أوده^(٢). وفي ذلك يقول:

إِنَّمَا النَّحْو قِيَاسٌ يُتَبَعُ وَبِهِ فِي كُلِّ أُمَّةٍ يُنَتَّفَعُ^(٣)

وخلالاً للبصريين توسع الكسائي في القياس، إذ لم يحصره في إطار المستعمل الشائع على الألسنة، ولم يقف به عند أغرب البدو، بل منه ليشمل ما ينطق به العرب المتحضرون المقيمون في المدن الذين فشا اللحن على ألسنتهم، كما يرى البصريون. ولهذا السبب، يمكن القول إنه ألف كتابه في لحن العام وللدلاله على أنه كان يفرق بين لغات العرب وهذا اللحن. كذلك مذ النحو ليشمل الشاذ النادر من تلك اللغات مما لم يكن سيبوه وبالخليل، قبله، يعبّان به، ولا يجدان له أية قيمة، وذلك لأنهما كانا ي يريدان وضع القراءتين النحوية في صورة حازمة صارمة بعيدة عن الاضطراب والخلل، و تستعمل باطراد غير متراجحة بين موازين مختلفة^(٤).

ولعل السبب الذي دفع الكسائي إلى مثل هذا الموقف من التوسع في القياس، والإفساح في العربية للغات الشاذة النادرة، يكمن في كونه من القراء للقرآن الكريم، فعنه حمل معاصروه، ومن تلاميذه إحدى القراءات السبع الوثيقة.

(١) ضيف، شوقي: المدارس النحوية، ص ١٧٥ - ١٧٦.

(٢) انحناؤه أو نقله.

(٣) ضيف، شوقي: المدارس النحوية، ص ١٧٦.

(٤) المرجع نفسه، ص ١٧٦.

وكانت تجري في قراءاته، حروف تشدّ على قواعد النحو البصري، فخشى أن يُنظر بتلك الحروف أنها غير جائزة، وأنها لا تجري على العربية السليمة. ولعله خشي اندثارها، علمًا بأنها مروية جميعاً عن الرسول.

والجدير ذكره أنَّ سببِيه كُوئنَ مادةً وفيرةً من الأشعار والأقوال الشاذة على مقاييسه، ليظهر أنَّها جرت على ألسنة الأعراب الفصحاء، ولكنها لا تجري على القواعد الكلية العامة للنحو أو أنَّه يريد أن يبعدها عن ألسنة الناس؛ حتى تستقيم لاستئتم عربتهم في لفصح صورة ممكنة. لكنَّ الكسائي رأى أن يعاد النظر في هذا التأصيل العام لقواعد النحو، وأن يفسح منها للقراءات واللغات الشاذة.

ومن هنا يمكن القول إنَّ الكسائي طور النحو وأخرجه في صورة جديدة، غير متفقة والمناهج الدقيقة في وضع العلوم التي تقضي في قواعدها الإطراد والتعميم والشمول. فغاية الكسائي الاحتفاظ بشواذ اللغات واللهجات وصونها وحمايتها من الضياع، وليس الاحتفاظ بالحروف الشاذة في قراءات الذكر الحكم، لأنَّ تلك القراءات كانت ستحتفظ بها الأجيال العربية لتعلقها بالدين الحنيف. أمَّا غاية البصريين من العناية بتلك الشواذ وتسجيلها، فتكمّن في توسيع الْهُجَنَّةَ في استخدامها، وتحصين قواعدهم وألسنة الناس منها. وبهذا يكون البصريون والkovifion متفقين في إثباتها ومختلفين في الهدف منها^(١).

وهناك نماذج كثيرة تكشف لنا موقف الكسائي من بعض حروف القراءات. ومنها الآية الكريمة في قوله تعالى: «وَتَخَسِّبُهُمْ أَيْقَانًا طَّافُهُمْ رُؤُودٌ وَنَقْلِبُهُمْ ذَاتَ الْيَمِينِ وَذَاتَ الشَّمَاءِلِ وَكَبَّهُمْ بَنِسْطُ ذَرَاعِيهِ بِالْوَصِيدِ» [الكهف: ١٨]. في هذه الآية الكريمة لاحظ الكسائي أنَّ اسم الفاعل (واسط) الذي جاء بمعنى الماضي في الآية لأنَّه يحكى قصة أهل الكهف، نصب (ذراعيه). لذلك وضع قاعدة عامةً في النحو مفادها أنَّ اسم الفاعل يعمل النصب بمعنى الماضي، وبمعنى الحال والاستقبال. لكنَّ البصريين منعوا عمله في نصب ما بعده على المفعولية، وهو بمعنى الماضي، وتأنَّوا (واسط) على حكاية الحال الماضية، بدليل حكايتها بالمضارع في الفعل السابق: (ونقلهم). وكأنَّ التقدير: وكلهم يبسط ذراعيه. في حين أنَّ الكسائي تمسك بالآية وأخذ منها قاعدة كلية مطردة، وأجاز القول: زيد معطِّ عمرًا أمس درهماً. وقد حدا حذوه بعض تلاميذه. لكنَّ الفراء الكوفي خالقه، ومال إلى رأي

(١) ضيف، شوقي: المدارس النحوية، ص ١٧٧.

البصريين الذاهب إلى عدم جواز إعمال اسم الفاعل في المفعول به، إذا كان بمعنى الماضي^(١).

ومن الأمثلة الأخرى الآية الكريمة في قوله تعالى: ﴿فَلْيُمَارِدَ الَّذِينَ أَسْنَوْا يُقْرِيمُوا الصَّلَوة﴾ [إبراهيم: ٢١]. فالنون المدحوفة من النعت المضارع (يقيموا) على تقدير لام الأمر. هذا ما رأه الكسائي متخدناً من ذلك قاعدة عامة مطردة مفادها حذف لام الأمر من المضارع بشرط تقدم (قل) عليه. غير أنّ البصريين يذهبون إلى أن النعت المضارع (يقيموا) الوارد في هذه الآية، مجزوم لأنّ جواب الأمر لـ (قل). كقولنا: «إيتني أكرِّمك»؛ فالفعل المضارع (أكرِّمك) مجزوم لأنّ جواب (إيتني)^(٢).

ومن مذاهبه تجويزه تقديم المستثنى، في أول الكلام موجباً كان أو منفياً. كأن يقال: إلا زيداً قام القوم، وإنْ قام القوم، وإنْ زيداً ما أكل أحد طعاماً، وما، إلا زيداً، قام القوم. وقد استشهد بالبيت الآتي:

خلا الله لا أرجو سواك وإنما أعد عيالي شعبة من عيالكا

من دون أن يلتفت إلى أنّ الضرورة الشعرية دفعت الشاعر إلى المخالفة المنطقية لترتيب الكلام؛ وإلى جانب تسغيفه بذلك في (خلا) سوّجه أيضاً مع (إلا) لعلة أنها الأصل في الباب، وخلا فرع لها. والأصل أولى بما يجوز في الفرع. ومن خلال هذا البيت الذي استشهد به وضع قاعدة عامة مفادها جواز تقديم المستثنى في أول الكلام سواء أكان موجباً أم منفياً^(٣).

وممّا ذهب إليه الكسائي جواز إضافة (حيث) إلى المفرد خلافاً لسيبوه وجمهور البصريين الذين ذهبوا إلى أنها تلزم الإضافة إلى جملة أسمية أو فعلية فقط. وجعل هذا الجواز قياساً لقول بعض الشعراء.

أما ترى حيث سهيل طالعاً نجمأ يضيء كالشهاب لاما

أما البصريون فقد جعلوا ذلك من النادر الذي لا يصح أن يتّخذ منه القياس، والأحكام النحوية الكلية العامة^(٤).

וללكسائي آراء كثيرة لا تستدّها الشواهد. فمنها أنه كان يجيز الفصل بين فعل

(١) السيوطي: مع الهوامع، ج ٢، هـ ٩٥. والمعنى ص ٧٧٠.

(٢) سيبوه: الكتاب، ج ١، ص ٤٥٢ الطبعة القديمة.

(٣) ابن الأباري: الإنصال، المسألة (٣٦). السيوطي: مع الهوامع، ج ١، ص ٢٢٦.

(٤) السيوطي: مع الهوامع، ج ١، ص ٢١٢.

الشرط وأداته بمعموله مثل: مَنْ زِيداً يَكْرَمُ أَكْرَمَهُ . والفصل أيضاً بعطف وتوكيد . وقد منع ذلك الفراء لعدم وروده في السماع^(١) .

إن النماذج التي قدمناها لإراء الكسائي تظهر إمامته لمدرسة نحوية وضع أساساً لها تقوم على الاتساع في الرواية والقياس، وإصدار أحكام وأراء لم ترد في خاطر البصريين . سواء سندتها الشواهد أم لم ترسدتها . وهذا الدليل قاطع على تطور النحو على يد الكوفيين في مرحلة النشوء والنمو في المراحل التي تلتها .

تطور النحو الكوفي بعد الكسائي :

لما كان الكسائي يمثل أبرز أئمة القراء والنحو واللغويين ، فلا عجب أن يتطور النحو بعده ، في مرحلة النشوء والنمو على أيدي تلاميذه وأصحابه الذين أخذوا عنه من كل علم بسبب . ولا مجال لذكرهم والحديث عنهم جمياً بل نكتفي بالإشارة إلى عدد منهم ، مركزين في النهاية على أبرزهم ، منهم الفراء وهشام بن معاوية الضرير . فمن الذين أخذوا عن الكسائي (القراءات واللغة القاسم بن سلام أبو عبيد الذي كان إمام عصره في غير علم . وذكر أنه كان مفتياً في القرآن والفقه والأخبار والعربية . ومن أبرز مؤلفاته : معاني القرآن ، المقصور والممدود ، القراءات والمذكر والمؤنث^(٢) . وذكر السيوطي أن أبو عبيد كان يصرح بأنّ بين العرب قوماً ينصبون بـ (إن) وأخواتها الإسم والخبر جميعاً كما جاء في قول الشاعر :

إذا اسود جُنْحُ الليل فلنأت ولتكن خطاك خفافاً إن حزاسنا أنسدا
لكن جمهور البصريين أولوا ذلك ومثله على الحال ، وأن الخبر مخدوف^(٣) .
ونذكر أيضاً علي بن المبارك الأحمر الذي كان مؤذناً لمحمد بن هارون الأمين الذي أغدق عليه المال الوفير . كان يحب العربية ، وأصبح أحد من اشتهر بالتقدم في النحو واتساع الحفظ . وعرف بشيخ العربية^(٤) . ومن غريب آرائه زعمه أنَّ (ما) تأتي أداة استثناء مستشهدأ يقول بعض العرب :

(١) السيوطي : همع الهوامع ، ج ٢ ، ص ٥٩.

(٢) المصدر نفسه ، ج ٢ ، ص ٢٥٣ - ٢٥٤ . وذكر السيوطي أنه توفي سنة ٢٢٤ هـ .

(٣) السيوطي : همع الهوامع ، ج ١ ، ص ١٣٤ .

(٤) أبو بكر الزبيدي : طبقات النحويين ، ص ١٣٤ . السيوطي : بغية الدعاء ، ج ٢ ، ص ١٥٨ . توفي سنة ١٩٤ هـ .

«كل شيء مهه»^(١) ما النساء وذكرهن؟ أي : إلا النساء وذكرهن . لكن النحاة تأولوه بأنّ فعل الاستثناء بعد (ما) حذف . أي : ما خلا النساء أو ما عدا النساء^(٢)

ونذكر أيضاً هشام بن معاوية الضرير أبا عبد الله الكوفي (ت ٢٠٩ هـ) الذي يعد أحد أعيان أصحاب الكسائي . فقد نشط في درس النحو مستنيراً بآرائه وأصوله التي وضعها لنجاعة الكوفة من بعده^(٣) وقد اقتضى أثره في الإكثار من الاتساع في الرواية والقياس مخالفًا البصريين مدللياً بآراء جديدة يدخلها كثير من بعد والاستغراب . فعلى سبيل المثال كان يذهب إلى أنَّ الواو العاطفة للجمل تُغنى عناءضمير في الرابط بين المبتدأ وخبره ، فيقال : (زيد جاءت هند وأكرمتها) . لكن البصريين منعوا ذلك ، لأنَّ لم يرد به سماع ، ولأنَّ الواو تأتي للجمع في المفردات ، لا في الجمل بدليل جواز هذان : قائم وقاعد دون «هذان يقوم ويقعد»^(٤) .

وإذا كان أصحاب الكسائي الذين أشرنا إلى نشاطهم قد درسوا النحو مقدمين آراء جديدة وغريبة ، فإنهم لم يستطيعوا وضع النحو الكوفي بصورةهنهائية ، بل تركوا هذا الانجاز للفراء الذي أصبح أعلم الكوفيين بالنحو بعد الكسائي .

دور الفراء في تطوير النحو: تذكر كتب التراجم أنَّ أبا زكرييا يحيى بن زياد بن عبد الله بن منصور الدينلي الفراء ، كان أربع الكوفيين في علمهم ، وأعملهم بالنحو وكان يقال : «الفراء أمير المؤمنين في النحو»^(٥) . وقال بعضهم : «لولا الفراء ما كانت عربية ، لأنَّ حضنها وضيبيها ، ولو لا الفراء لسقطت العربية ؛ لأنَّها كانت تُتنازع ، ويدعوها كلُّ من أراد ، ويتكلم الناس على مقادير عقولهم وقرائحهم ، فتذهب»^(٦) . نعم كان أحذق الكوفيين بالنحو بعد الكسائي ؛ فأخذ من هذا الأخير واعتمد عليه ، وكان زائد العصبية على سيبويه ، وكتابه تحت رأسه^(٧) .

(١) أي : يسير وسهل . وقيل : مهأة ومهافة . الفيروز بادي : القاموس المحيط ، فصل الميم والنون ، باب الهاء ، ج ٤ ، ص ٢٩٥ .

(٢) السيوطي : معجم الهرامع ، ج ١ ، ص ٢٢٣ .

(٣) السيوطي : بغية الوعاة ، ج ٢ ، ص ٢٢٨ .

(٤) ابن هشام : المعني ، ج ٢ ، ص ٣٥٣ وما بعدها ، المكتبة العصرية .

(٥) الزركلي ، خير الدين : الأعلام ، ج ٨ ، ص ١٤٥ .

(٦) أبو بكر الزبيدي : طبق النحوين ، ص ١٣٢ .

(٧) السيوطي : بغية الوعاة ، ج ٢ ، ص ١٣١ .

وقد شهد أبو العباس أحمد بن يحيى^(١) على جدارة الفراء بحمل لواء العربية بقوله: «العرب تُخرج الإعراب على اللفظ دون المعاني. ولا يُفسد الإعراب المعنى، فإذا كان الإعراب يفسد المعنى، فليس من كلام العرب»، وإنما صح قول الفراء، لأنَّه عمل العربية والنحو على كلام العرب؛ فقال: كل مسألة وافق إعرابها معناها، ومعناها إعرابها فهو الصحيح، وإنما لحق سببويه الغلط لأنَّه عمل كلام العرب على المعاني، وخلَّ عن الألفاظ، ولم يوجد في كلام العرب، ولا أشعار الفحول إلا ما المعنى فيه مطبق للإعراب، والإعراب مطبق للمعنى. وما نقله ابن هشام^(٢) عن الكسائي فلا مطعن فيه، وما قاسه فقد لحقه الغمز، لأنَّه سلك بعض سببويه؛ فعمل العربية على المعاني، وترك الألفاظ، والفراء حمل العربية على الألفاظ والمعاني فبرع، واستحقَّ التقدمة، وذلك كقولك: مات زيد؟ فلو عاملت المعنى لوجب أن تقول: مات زيداً؛ لأنَّ الله هو الذي أماته، ولكنك عاملت اللفظ، فأردت: سكنت حرکات زيد^(٣).

وبفضل براعته بالنحو، استطاع الفراء أن يضع، في هذا العلم وغيره، المصنفات القيمة مثل: (معاني القرآن)، البهاء فيما تلحن فيه العامة، اللغات، الجمع والتثنية في القرآن، المقصور والممدود، فعل وأنفع، المذكر والمؤنث والحدود في الإعراب^(٤).

وقد لقي حظرة من الرشيد، فتقرَّب منه فكانت آراؤه تشير إلى إحسان الخليفة. روى أنه دخل على هذا الخليفة، فتكلَّم بكلام لحن فيه مزات. فقال أبو الفضل جعفر بن يحيى بن خالد البرمكي، وزير الرشيد، إنَّه لحن يا أمير المؤمنين، قال له الرشيد: أتلحن؟ قال: «يا أمير المؤمنين، إنَّ طباع أهل البدو الإعراب، وطبع أهل الحضر اللحن؛ فإذا تحفظت لم لحن، وإذا رجعت إلى الطبع لحن». فاستحسنَ الرشيد قوله^(٥).

إنَّ تلك المكانة العالية في مضمار العلوم، وبخاصة النحو منها، التي أثبتها

(١) هو المعروف بشغل. كان إمام الكوفيين بالنحو بعد الفراء. وكان أيضاً محدثاً مشهوراً بالحفظ وصدق اللهجة، وثقة حجة. له من المؤلفات: الفصيح، مجالس ثعلب وإعراب القرآن. توفي سنة ٢٩١ هـ. الزركلي: الأعلام، ج ١، ص ٢٦٧.

(٢) المقصود به هشام بن معاوية الضرير الذي أشرنا إليه سابقاً.

(٣) أبو بكر الزبيدي: طبقات التحويين، ص ١٣١.

(٤) السيوطي: بنيَّة الوعاء، ج ٢، ص ٣٣٣.

(٥) أبو بكر الزبيدي: طبقات التحويين، ص ١٣١.

الشهدود من العلماء والخلفاء لم تُنْجَح للفراء لو لم يغلب عليه ميلٌ شديد لإتقان العربية والعنابة بالذكر الحكيم وقراءته وتفسيره آخذًا عن أستاذة الكسائي الكبير. وقد بَرَز دوره في تطوير النحو، من خلال حذوه حذوًّا أستاذة في الإثار من الرواية عن الأعراب الذين نزلوا بغداد غير عابِئٍ بطبع البصريين بهم وبأمثالهم ممَّن اختلطوا بأهل الحضر. وينطوي كتابه (معاني القرآن) على روايات كثيرة عن جماعة منهم، كأبي دثار الفقعي، وأبي زياد الكلابي، وأبي ثروان، وأبي الجراح العقيلي^(١) الذين زُوِّدُوا بمادةً وفيرةً من الشعر واللغة.

إنَّ نشاط الفراء ودرسه النحو وتطويره تكمَّن في استكمال النحو الكوفي ووضع مصطلحات جديدة لعدد كبير من موضوعاته. فقد ذكرنا آنفًا أنَّ الكسائي وضع منهاجًا لهذا النحو يقوم على ثلاثة دعائم: أولها الاتساع في الرواية؛ إذ يفسح في المجال لرواية الأشعار والأقوال القراءات الشاذة. والثاني الاتساع في القياس؛ ويعني ذلك الاعتداد في قواعد النحو بالشاذ والقليل النادر. والثالث الاتساع في مخالفة البصريين اتساعًا قد يؤدي إلى مذ القواعد، وبسطها بأراء لا تستند لها الشواهد اللغوية، بل يقود أحياناً إلى رفض المسموم الشائع على نحو موقفه وموقف الفراء من إعمال أسماء المبالغة.

وبظهور الفراء بدأ النحو يتتطور في مرحلة النشوء والنمو من خلال توسيعه بالدعائم التي يرتکز عليها النحو الكوفي.. ولعل القدرة على هذا التوسيع كان نتيجة لثقافة كلامية فلسفية؛ إذ كان يحب الكلام ويميل إلى الاعتزال، ويتفلسف في تصانيفه، ويسلك ألفاظ الفلسفه^(٢). وقيل: سمي بالفراء لأنَّه «كان يُفْرِي الكلام»^(٣). وقد ساعدته تلك القدرة على الاستنباط والتحليل والتركيب، واستخراج القواعد والأقيسة، والاحتياط للأراء، وترتيب مقدماتها. وبفعل هذه القدرة التي فاقت قدرة الكسائي، تمكَّن من تنظيم واسع لما تركه أستاذة من أنس وأصول «بنياً» عليه من اجتهاده ما أعطى النحو الكوفي صورته النهائية^(٤) حيث يظهر الفراء خلافه مع نحاة البصرة في كثير من الأصول التي خالف فيها البصريين في مسائل أساسية كالمسألة التي يرى فيها أنَّ المصدر مشتق من الفعل خلافاً

(١) ضيف، شوقي: المدارس النحوية ص ١٩٣.

(٢) السبوطي: بنية الوعاء، ج ٢، ص ٣٣٣.

(٣) المصدر نفسه: ج ٢، ص ٣٣٣.

(٤) ضيف، شوقي: المدارس النحوية، ص ١٩٦.

للبعضين القاتلين إنَّ المصدر هو الأصل، والفعل مشتق منه^(١). وكان يدعم رأيه بأنَّ المصدر يصحُّ بصفة الفعل، ويتعلَّل باعتلاله؛ فنقول قوام من قاوم، وقيام من قام، وأنَّ الفعل يعمل فيه النصب؛ تقول: كتب كتابة، وأنَّه يُؤكَد، والمؤكَد يتلو ما يُؤكَد. ومن هذه المسائل مسألة الأفعال وأقسامها. وهذه الأقسام، عند البعضين ثلاثة: ماضٍ، مضارع، وأمرًانِ الفراء وأصحابه الكوفيون، فيقسمون الفعل إلى ماضٍ ومضارع دائم. والدائم ليس، بنظر الفراء، فعل الأمر، وإنما هو اسم الفاعل^(٢). ويرى أنَّ فعل الأمر مقتطع من المضارع المجزوم بلام الأمر، ويوضح ذلك بقوله: «العرب حذفت اللام من فعل المأمور المواجه لكترة الأمر، خاصة في كلامهم، فحذفوا اللام كما حذفوا التاء من الفعل المشارع في مثل (لتضرب)؛ وأنْت تعلم أنَّ الجازم أو الناصب، لا يقعان إلا على الفعل الذي أُولئِيَّا التاء والنون والألف. فلما حذفت التاء ذهبت باللام، وأحدثت الألف في قولك: اضرب وافرح، لأنَّ الضاد ساكتة، فلم يستقم أنْ يُستأنَّ بحرف ساكن، فأدخلوا ألفاً خفيفة^(٣) يقع بها الابتداء.. وكان الكسائي يعيّب قولهم: (فلتفرحوا) لأنَّ ورده قليلاً فجعله عبيداً، وهو الأصل^(٤). ولقد سمعت عن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أنه قال في بعض المشاهد: لتأخذوا مصافكم، يريده به خذُوا مصافكم^(٥). وانطلاقاً من هذا التجليل يكون الأمر، عند الفراء، مجزوم الآخر، لا مبنياً، ويكون معرباً إعراب أصله المقتطع منه^(٦).

تغيير المصطلحات التحوية وتبدلها عند الفراء:

بالإضافة إلى الأصول التي خالف فيها البعضين، فقد لجأ الفراء إلى الإكثار من التبدل والتغيير في المصطلحات التحوية التي وضعها العالمان الكبيران الخليل بن أحمد وتلميذه سيبويه، مضيفاً إليها بعض المصطلحات الجديدة. ونذكر من المصطلحات التي غيرتها مصطلح (التقريب)، وهو اسم الإشارة الذي يليه خبر وحال نحو: هذا على شاعراً. فعلني خبر لهذا وشاعراً حال في رأي سيبويه. لكنَّ الفراء يرى أنَّ اسم الإشارة (هذا) كانه مشبه لكان إذا جاء بعده، مثلها، مرفوع

(١) ابن الأنباري: الإنصال، ج ١، المسألة .٢٨.

(٢) الفراء: معاني القرآن، ج ١، ص ١٦٥.

(٣) أي: ألف الرصل.

(٤) أي: أصل الأمر.

(٥) الفراء: معاني القرآن، ج ١، ص ٤٦٩.

(٦) السيرطي: معجم الهوامع، ج ١، ص ٩.

ومنصوب. والمنصوب برأيه، ينصب بخلوه من العامل، كما نصب خبر كان أي: لعدم وجود رافع له يرفعه^(١). ويعتقد أن نظريته تلك دفعت بعض الكوفيين الذين خلفوه بجعل (هذا) من أخوات كان، وما يليها يكون اسمًا وخبرًا لها. و (هذا) تعرب تقريباً^(٢).

وفضلاً عن ذلك فقد بدأ مصطلح (النصب) ووضع له مصطلحاً جديداً سماه مصطلح (الضرف) في باب الفعل المضارع المنصوب بعد الواو والفاء وأو، وفي باب آخر هو باب المفعول معه حيث يُصرف^(٣) المضارع وهذا المفعول عما قبله، ولا تكون الواو فيهما عاطفة، وإنما تكون الواو ضرف^(٤) لهما عما قبلهما، ومثلها الفاء وأو. ويوضح ذلك مع الواو وأو قائلاً: الصرف أن تأتي بالواو معطوفة على الكلام في أوله حادثة لا تستقيم إعادتها على ما عُطيَّ عليها كقول الشاعر:

لَا تَثْنَى عَنْ خُلُقِي وَتَأْتِي مُثْلَهُ عَازِّ عَلَيْكَ، إِذَا فَعَلْتَ، عَظِيمٌ
أَلَا تَرَى أَنَّهُ لَا يَجُوزُ إِعَادَهُ (لَا) فِي (تَأْتِي مُثْلَهُ)؛ فَلَذِكَ سُمِّيَ صِرَافاً، إِذَا كَانَ
مَعْطُوفاً، وَلَمْ يَسْتَقِمْ أَنْ يُعَادَ فِي الْحَادِثِ الَّذِي قَبْلَهُ. وَمُثْلَهُ مِنَ الْأَسْمَاءِ الَّتِي نَصَبَتْهَا
الْعَرَبُ، وَهِيَ مَعْطُوفَةُ عَلَى مَرْفُوعٍ قَوْلُهُمْ: لَوْ تُرِكَتْ وَالْأَسْدُ لَا كَلَكَ^(٥).

كذلك سُمِّيَ النفي باسم (الجحد) حين قال: وُضِعْتَ (بلى) لِكُلِّ إِقْرَارٍ فِي
أُولَئِكُنْ جَحْدٌ^(٦)، وَوُضِعْتَ نَعَمْ لِلْإِسْتِفَاهَمِ الَّذِي «لَا جَحْدُ فِيهِ». فَبَلِى بِمِنْزَلَةِ نَعَمْ؛ إِلَّا
أَنَّهَا لَا تَكُونُ إِلَّا لِمَا فِي أُولَئِكُنْ جَحْدٌ^(٧). وَبَدَأَ مَصْتَلْحَ (لَا)-النَّافِيَةَ بَآخِرِهِ هُوَ (لَا)
الْتَّبَرِيَّةُ حِينَ عَلَقَ عَلَى قَوْلِهِ تَعَالَى: «فَلَلَّارَفَثَ وَلَا فُسُوقٌ وَلَا جِدَالٌ فِي الْعَيْجٍ»^(٨)
[البقرة: ١٩٧]، فَقَالَ: «الْقَرَاءَةُ عَلَى نَصْبِ ذَلِكَ كَلِهِ بِالْتَّبَرِيَّةِ»^(٩). كَذِلِكَ سُمِّيَ
حَرْفُ الْجَرِ (الصَّفَةِ)، فَقَالَ مَعْلِقاً عَلَى قَوْلِهِ تَعَالَى: «فَلَلَّاجُنَاحٌ عَلَيْهِمَا أَنْ يَرَأَجِعَاهُمْ»^(١٠)
[البقرة: ٢٢٠]: وَ(أَنْ) فِي مَوْضِعِ نَصْبِ إِذَا نَزَعْتَ الصَّفَةَ^(١١) وَالْأَصْلُ: فَلَا جَنَاحٌ

(١) الفرزاء: معاني القرآن، ج ١، ص ١٢.

(٢) السيوطي: همع الهوامع، ج ١، ص ١١٣.

(٣) أي: ينصب.

(٤) أي: نصب.

(٥) الفرزاء: معاني القرآن، ج ١، ص ٣٤.

(٦) أي: نفي.

(٧) الفرزاء: معاني القرآن، ج ١، ص ٥٢.

(٨) الفرزاء: معاني القرآن، ج ١، ص ١٢٠.

(٩) الفرزاء: معاني القرآن، ج ١، ص ١٤٨.

عليهما في أن يتراجعوا. وكان يسمى حروف الزيادة حشوأ ولغوأ وصلة^(١) كما أطلق على التمييز اسم (مفسر). فأشار في تعليقه على قوله تعالى: ﴿فَلَنْ يُقْبَلَ مِنْ أَحَدِهِمْ مِثْلُهُ أَذْرِفْ ذَهَبًا﴾ [آل عمران: ٩١]، إلى أنَّ (ذهبًا) نصب لأنَّ مفسر^(٢).

وفضلاً عن ذلك فقد سمي البدل تكريراً وتبييناً وتفسيراً وترجمة^(٣). ويعدُ أول من اصطلح على تسمية الصفة بالنعت^(٤)، وأول من أطلق تسمية العطف بالحروف: الواو وأخواتها باسم عطف النسق^(٥).

ولعلَّ الفراء كان يهدف من وراء تلك المصطلحات الجديدة التي وضعها إلى رسم صورة متميزة للنحو الكوفي، وإظهار تلك التسميات التي أطلقها على أبواب النحو وبعض موضوعاته، بمظاهر الشيء الجديد المبتكر ليضاهي بها البصريين ويتباهى أمامهم.

إلى جانب ذلك حاول الفراء أن يخالف الخليل وسيبوه من تفسيرهما وتحليلهما لكثير من الألفاظ والأدوات. فمن ذلك (إياك) ولو احتجها: إذ كان الخليل يرى أنَّ (إيا) اسم مضمر مبهم مضاف إلى الضمير لشخصيه، ورأى غيره من البصريين أنَّ هذه اللفظة ضمير والكاف وأخواتها حروف تبين حال الضمير من التكلم والخطاب والغيبة. لكنَّ الفراء خالف هذه الآراء بذهابه إلى أنَّ (إيا) حرف زيد دعامة، ولو احتجه هي الضمائر التي تكون في موضع نصب حسب مواقعها^(٦). ومن آرائه الغريبة الطريفة أنَّ أصل (بل) بل العاطفة في مثل: ما قام عليَّ بل خالد، إذ (بل) تدل، في هذا المثل، على الرجوع عن النفي، مثل بل في جواب الاستفهام عن النفي، وقد زيد على آخرها ألف لتصلح لأنَّ يوقف عليها^(٧).

إنَّ محاولة الفراء في تبديل المصطلحات النحوية أو وضع مصطلحات جديدة، أو إيجاد تفسير جديد لبعض الكلمات والأدوات لدليل ظاهر على مدى

(١) المصدر نفسه، ج ١، ص ٥٨.

(٢) الفراء: معاني القرآن، ج ١، ص ١٢٥.

(٣) المصدر نفسه، ج ١، ص ٧، ٥١، ٥٦، ١٩٢، ٣٢٠، ٣٤٨، وج ٢، ص ٥٨، ٦٩، ١٣٨، ١٧٨، ٢٧٣، ٣٦٠.

(٤) المصدر نفسه، ج ١، ص ١١٢ وقد وضع سيبوه مصطلح الصفة.

(٥) الفراء: معاني القرآن، ج ١، ص ٤٤.

(٦) السيوطي: همع المهرامع، ج ١، ص ٦١.

(٧) الفراء: معاني القرآن، ج ١، ص ٥٣.

التطور الذي بلغه النحو في مرحلة النشوء والنمو، بقطع النظر عن الهدف الذي كان يرمي إليه الفراء، وهو تكوين مدرسة نحوية كوفية له شخصيتها المستقلة عن المدرسة البصرية.

ولم تنحصر محاولة الفراء في ابتكار المصطلحات وتحليل بعض الأدوات. والألفاظ وتفسيرها وإنما تعدد ذلك إلى النفوذ إلى آراء كثيرة في العوامل والمعمولات، ومدى السماع والقياس حيناً وبقاضها حيناً آخر، وذلك لإيجاد هيئة النحو الكوفي مختلفة عن هيئة النحو البصري اختلافاً ظاهراً.

آراء الفراء في العوامل والمعمولات: يلتقي الفراء البصريين في مسألة العوامل والمعمولات حيناً، ويفترقون عنها حيناً آخر، لأن الافتراق عنهم يميز النحو الكوفي عن النحو البصري. فمن مواضع الافتراق أنَّ الفراء رأى أنَّ العامل في المفعول به والفعل والفاعل معاً، خلافاً للبساطي الذي يرى أنَّ العامل فيه هو الفعل السابق له أو ما يشبهه من مصدر واسم فاعل، وخلافاً للكسائي الذي يرى أن العامل فيه هو خروجه عن وصف الفعل ويفيدون لنا أنَّ الفراء عَدَ العامل في هذا المفعول^(١). وكان يرى أنَّ (كان) يليها فاعل مرفوع وحال منصوب. وسمى اسمها شبه فاعل، وخبرها شبه حال، ويقول إنَّ الخبر نصب بخلوه من العامل^(٢). بالإضافة إلى ذلك كان يذهب إلى أنَّ (حاشا) الاستثنائية في نحو: عاد القوم حاشا قائدهم، فعل لا فاعل له، وقادتهم مجرور بلا مقدرة، والأصل (حاشا لقادتهم)، ثم حذفت اللام لكثرة الاستعمال. خلافاً لسيبوه الذي يرى أنها دائماً تأتي حرف جز غير أنَّ المبرُّد جمع بين الرأيين، فقد تكون حرف جز، وفعلاً ينصب ما بعده بدليل تصرفه، إذ يقال: حاشى وأحاشى^(٣).

أما المعمولات فله فيها آراء كثيرة وطريقة. ومنها أن يذهب مذهب الأخفش في أنَّ المرفوع بعد (إذا) و(إن) الشرطية في نحو: «إِذَا أَسْتَأْنَثَتْ» [الإنشقاق: ١] وفي قوله تعالى: «وَإِنْ أَحَدٌ مِّنَ الْمُشْرِكِينَ أَسْتَجَارَكَ» [التوبه: ٦]، يكون مبتدأ وليس فاعلاً لفعل محنظف كما يرى سيبوه وجمهور البصريين^(٤). وكان يذهب إلى أنَّ الفاء العاطفة لا تفيد الترتيب أحياناً كما في قوله تعالى: «وَكُمْ مِّنْ قَرِيبَةٍ

(١) السيوطى: همع الهرامع؛ ج ١، ص ١٦٥.

(٢) الفراء: معانى القرآن، ج ١، ص ١٣.

(٣) ابن يعيش: شرح المفصل، ج ٨، ص ٤٧. السيوطى: همع الهرامع، ج ١، ص ٢٣٣.

(٤) ابن يعيش: شرح المفصل، ج ٩، ص ١٠.

أهلكنّها فجأةً هَا بَأْسَنَا بَيْتًا» [الأعراف: ٤]، وخلافاً لذلك ذهب إلى أنَّ الواو العاطفة قد تفيد الترتيب^(١) وذهب إلى أنَّ (أو) تأتي للإضراب مطلقاً من دون شرط محتاجه بقوله تعالى: «وَأَزْلَنَاهُ إِنْ مَا نَهَى أَلْفَ أَوْ يَزِدُونَ» [الصافات: ١٤٧]. لكنَّ سيبويه والبصريين يرون أنَّ (أو) لا تأتي للإضراب بمعنى (بل) إلا إذا تقدَّمها نفي أو نهي^(٢).

وقد أظهر توجيهه للإعراب في الآيات الكريمة أنه ذو عقل خصب، وذهن سيَّال بالخواطر إلى تفديه من كل صُوبِ التي وعلى سبيل المثال نعرض توجيهه لإعراب الناء في (رأيكم) من قوله تعالى: «فُلَّ أَرَأَيْتُكُمْ إِنْ أَنْتُمْ عَذَابُ اللَّهِ»^(٣) [الأنعام: ٤٠]. فالناء برأي سيبويه فاعل، والكاف حرف خطاب. وذهب الكساني إلى أنها مفعول به. لكنَّ الفراء رأى أنَّ العربية تطابق في هذا التعبير بين الكاف والمخاطب، فتقول للواحد: أرأيتك، وللواحدة أرأيتك، وللرجال أرأيتك، وللنسوة أرأيتك. ف بذلك عد الناء حرف خطاب والكاف فاعلاً لأنَّها تطابق المستند إليه^(٤).

وهكذا كان الفراء يستخرج من القرآن الكريم فيضاً من الآراء مستمدًا بذلك من ذهنه الوقاد مخالفًا سيبويه والبصريين، وأحياناً أستاذة الكساني لغاية في نفسه وهي تشكيل النحو الكوفي في صيغته النهائية، فتستقر قواعده، ويستقر توجيهه للصيغ العربية، وتستقر مصطلحاته، وتستقر فيه العوامل والمعمولات متخذة كل ما يمكن من أوجه جديدة دالة على تطور ملموس في معاجلة النحو العربي. بعد أن توسع الفراء في الرواية وبسط القياس.

توسيع الفراء في الرواية وبسط القياس: توسيع الفراء في الرواية عن الأعراب المتحضرين فسمعهم، وأخذ عنهم، وتنبع فصحاءهم كأبي ثروان وأبي الجراح. ورحل إلى الجزيرة فأكثر من السماع والرواية عن العرب وقبائلهم، بدليل أنه كان يقول: «أشدني بعض بنى أسد، أو بعض بنى كلاب، أو بعض ربيعة أو بعضبني عامر، أو بعض بنى حنيفة»^(٥). والملاحظ أنه لم يذكر اسم الشاعر الجاهلي أو

(١) السيوطي: همع الهوامع، ج ٢، ص ١٢٩.

(٢) سيبويه: الكتاب، ج ٣، ص ١٨٨، الهيئة المصرية.

(٣) أرأيتك كم بمعنى أخبروني.

(٤) الفراء: معاني القرآن، ج ١، ص ٣٢٣، ثعلب: مجالس ثعلب، تحقيق عبد السلام هارون، دار المعارف، ص ٣٧٢. والسيوطى: همع الهوامع، ج ١، ص ٧٧.

(٥) الفراء: معاني الفراء، ص ٣٤، ٦٧، ٩١.

الإسلامي الذي ينشد من شعره، باعتبار أن ذلك كان معروفاً متداولاً بين علماء اللغة والنحو في عصره^(١). كذلك لم يستشهد بالحديث النبوي الشريف إلا ما جاء عرضاً^(٢). ولقل عدم الاستشهاد به ناتج من كون روایته بالمعنى وأن الذين رواه أئمّة غير ثقات في العربية. وكان البصريون والكسائي لا يستشهدون بهذا الحديث للعلة نفسها^(٣).

نعم! لقد توسيع الفراء في السماع عن العرب إلى أقصى الحدود، ملتمساً القياس، ولا سيما إذا تطابق ذلك مع بعض آي الذكر الحكيم، وبعض قراءاته، أو اتفق مع أشعار العرب. والأمثلة لما بسط فيه القياس معتمداً على القرآن، وقراءاته وأشعار العرب، كثيرة. فمنها موقفه إزاء الآية الكريمة: «**حَتَّىٰ إِذَا فَشَلْتُمْ وَتَنْزَعْتُمْ فِي الْأَمْرِ**» [آل عمران: ١٥٢]. فقال الفراء إن الواو معناها السقوط أي: الزائدة في جواب (إذا). وقدم مثلاً لسقوطها في الجواب في الآية الكريمة من قوله تعالى: «**حَتَّىٰ إِذَا جَاءَهُ وَهَا فَتَحَتَّ أَبْوَابَهَا**» [الزمر: ٧١] كذلك مثل لسقوطها بقول الشاعر:

حتى إذا فَمِلتْ بِنْطُونَكُمْ وَرَأَيْتُمْ أَبْنَاءَكُمْ شَبَّوا
وَقَلَبْتُمْ ظَهَرَ الْمِجَنْ لَنَا إِنَّ الْلَّنِيمَ الْعَاجِزَ الْخَبُّ
فَجَوَابَ (إِذَا) وَقَلْبِتُمْ. وَقَدْ زَيَّدَتْ هَذِهِ الْوَاوُ فِي هَذَا الْجَوَابِ لِكُلِّ الْبَصَرِيِّينَ
يُؤَزِّلُونَ مُثْلَ ذَلِكَ بِأَنَّ الْجَوَابَ مَحْذُوفٌ، وَالْوَا عَاطِفَةُ الْجَمْلَةِ الْمُذَكَّرَةِ مَعَهَا
عَلَيْهِ^(٤).

ولاحظ الفراء في قراءة الآية الكريمة من قوله تعالى: «**فَاضْرِبْ لَهُمْ طَرِيقاً فِي الْبَحْرِ يَسِّرْ أَلَّا تَخْفَ ذَرَكَ وَلَا تَخْنَى**» [طه: ٧٧] أن الفعل (تخشى) معطوف على فعل مجزوم بلا الناهية وأثبتت فيه الألف، وقد علل إبقاء تلك الألف بأن الفعل قد يكون متأنفاً، وقد يكون في موضع جزم، وإن كانت فيه الياء. واستدلَّ على ذلك بأن العرب قد تعمَّل ذلك كما هو وارد في قول أحد الشعراء.

أَلَمْ يَأْتِيَكَ وَالْأَبْنَاءُ تَنْمِي بِمَا لَاقْتَ لَبُونَ بْنَ زِيَادَ

(١) ضيف، شوقي: المدارس النحوية، ص ٢١٤.

(٢) الفراء: معاني القرآن، ج ١، ص ٢٦٦، ٤٦٩.

(٣) ضيف، شوقي: المدارس النحوية، ٢١٥.

(٤) الفراء: معاني القرآن، ج ١، ص ٢٢٨. ابن هشام: المغني، ج ٢، ص ٣٦٢، وما بعدها. المكتبة العصرية.

فأثبتت الياء في الفعل يأتيك، وهي في موضع جزم. واحتاج أيضاً بقول
شاعر آخر:

هَجَوْتُ زَيَّانَ ثُمَّ جِئْتُ مَعْتَذِراً من سَبْ زَيَّانَ لَمْ تَهْجُو وَلَمْ تَدْعُ
وَالملاحظ أن الواو أثبتت في (تهجو) علماً بأن الفعل مسبوق بـ(لم)
الجازمة^(١) وجوز الفراء وقوع اللام المؤكدة في خبر (لكن) على نحو ما تقع في
خبر (إن) محتاجاً بقول الشاعر:

ولكني من حُبْهَا العَمِيد

لَكَنَ الْبَصَرِيِّينَ لَمْ يَجِيزُوا ذَلِكَ مَحْتَجِينَ بِأَنَّ ذَلِكَ شَادٌ لَا يَعْوَلُ عَلَيْهِ^(٢).

وقد لاحظنا أن الفراء يبسط القياس ويمده مستشهاداً ببعض القراءات للآيات
القرآنية وبأشعار العرب لكنه كان يلجأ أحياناً إلى بسط هذا القياس من دون شاهد
يسند له. ومن ذلك إضافة اسم الفاعل المحلّي بالألف واللام إلى الكلم قياساً على
جواز إضافته إلى المعرف بالألف واللام؛ فيقال: القاتل على كما يقال: القاتل
الرجل^(٣).

ويقابل مذه للقياس قبضه أيضاً، إذ كان الفراء يقبض هذا القياس أحياناً من
دون الالتفات إلى السمع. ومما قبضه فيه مع عدم أخذه بالسمع مجيء مرفوعين
بعد (كان)، خلافاً للبصريين الذين جززوا ذلك على أن في (كان) ضمير شأن
محذوف هو اسمها، والجملة خبرها لمجيء ذلك كثيراً على لسان الشعراء نحو
قول الشاعر:

إِذَا مَثَ كَانَ النَّاسُ صِنْفَانِ شَامَتْ وَآخِرُ مُثْنِي بِالَّذِي كَنْتُ أَصْنَعُ^(٤)
إنكاره بعض القراءات: ويتجلى نشاط الفراء في دفع النحو إلى الأمام في
إنكاره بعض القراءات ورذها، تلقياً مع موقفه من كلام بعض العرب الذين
خطأهم، فرد بعض ما سمعه منهم، إيماناً بأنه شاذ لا يقاس عليه، ولا يصح طرده
في العربية. ومن ذلك رد قراءة النصب لكلمة (ثُمُود) في قوله تعالى: هُوَ أَمَّا ثُمُودٌ

(١) ابن الأباري: الإنصاف المسألة .٢٥

(٢) المالقي، أحمد: رصف المبني، ص ٢٧٩.

الفراء: معاني القرآن، ج ١، ص ٤٦٥.

قملت: كثرت. بطنكم: عشاوركم. الخب: القادر. لبون: الناقة الغزيرة اللبن.

(٣) شرح الرضى على الكافية: ج ١، ص ٢٥٩.

(٤) السيوطي: همع الهوامع، ج ١، ص ١١١.

فَهَدَيْتُهُمْ [فصلت: ١٧] حيث قرأ القراء هذه الكلمة بالرفع والنصب. وكان سيبويه قد وجّه النصب على أنَّ (أَنَا) أشبّه الفعل، فشود منصوبية بها، أمّا الرفع فعلى أنها مبتدأ. لكنَّ القراء وجّه الرفع، متّكراً النصب معللاً رأيه بقوله: «لأنَّ أَنَا تَحسُّ في الإِسْمِ وَلَا تَكُونُ فِي الْفَعْلِ»^(١). وكان حسبيه أن يقول قراءة الرفع أَنْصَحَ^(٢).

كذلك قبّح قراءة من قرأ الآية الكريمة: ﴿وَأَنْتُمُ الَّذِينَ تَسَاءَلُونَ إِنِّي وَالْأَرْحَامُ﴾ [النساء: ١]، بخفض (الأرحام) عطفاً على الضمير المجرور بدون إعادة الجار فقال: «في ذلك قبح لأنَّ العرب لا ترد»^(٣) مخوضاً على مخوض، وقد كنّي عنه^(٤)، وإنما يجوز هذا في الشعر لضيقه^(٥).

وضعفت أيضاً قراءة حمزة^(٦) لكلمة (تَخْسِبُنَ) بالياء في قوله تعالى: ﴿وَلَا يَخْسِبُنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا سَبَقُوكُمْ لَا يَعْجِزُونَ﴾ [الأنفال: ٥٩]. بينما كان يقرأها القراء بالناء وفي ذلك يقول: «ما أحبها لشذوذها»^(٧).

إنَّ رد بعض القراءات يظهر أنه يملك الرغبة الشديدة في التثبت والتحرّي. وهذا يمكن أن يكون أظهر الدلالات على تطور النحو في مرحلة النشوء والنمو إلى جانب عامل آخر ساعد على تطوير هذا العلم، في تلك المرحلة، متمثل بالمناظرات بين البصريين والkovfines.

أثر المناظرات في تطوير النحو: لقد بينا سابقاً أنَّ سيبويه زعيم المدرسة البصرية، والكسائي زعيم المدرسة الكوفية، فقد بثيا صرح النحو ونهضا به إلى مستوى عالٍ من التطور، والاكتمال، ثمَّ جاء تلاميذهما وأصحابهما، فأكملاوا الطريق بما بذلوه من نشاطات وجهود طورت النحو، وجعلته يستقرّ بقواعدة ومصطلحاته وبكل ما يرتبط به. ولكنَّ الشيء اللافت للانتباه هو المناظرات التي

(١) القراء: معاني القرآن، ج ١، ص ٢٤١.

(٢) ضيف، شوقي: المدارس النحوية، ص ٢٢٠.

(٣) أي: لا تعطف.

(٤) أي: أضمر كالهاء في به.

(٥) القراء: معاني القرآن، ج ١، ص ٢٥٢.

(٦) هو حمزة بن حبيب بن عمارة بن إسماعيل التيمي. كان أحد القراء السبعة، وكان من موالي التيم. هو عالم بالقراءات. توفي سنة ١٥٦ هـ، ٧٧٣ م. الزركلي: الأعلام، ج ٢، ص ٢٧٧.

(٧) القراء: معاني القرآن، ج ١، ص ٤١٤.

كانت تعقد بين علماء البصرة من جهة، وعلماء الكوفة من جهة ثانية، فكانت سبباً رئيساً في تطوير هذا العلم؛ إذ كان الخلفاء يستقدمون علماء الكوفة إلى بغداد ليؤدبوا أولادهم، ولا سيما بعد أنْ ذُكر الكسائي حتى بلغ مسمع المهدى في حاضرة الخلافة، حيث رأى فيه عالماً فذاً، ثم احتضنه الرشيد، ليؤذب ولديه الأمين والمأمون. وبنشاطه ونشاط أصحابه ساد المذهب الكوفي، وتکاثر أتباعه، وعظم شأن علمائه. فعزّ على علماء البصرة شأنهم، فأمّروا بغداد ليناهضوهم؛ فعقدت المناظرات الحامية بين الفريقين، لحرصهما على حوز السبق، ورغبة في الدنو من العباسيين. ومن تلك المناظرات المناظرة التي عقدت بين سببويه والكسائي قال الفراء: قدم سببويه على البرامكة، فعزم يحيى بن خالد^(١) على الجمع بينه وبين الكسائي، فجعل لذلك يوماً. فلما حضر تقدمت أنا والأحمر^(٢)، فدخلنا، فإذا بمثال^(٣) في صدر المجلس، فقد عرض عليه يحيى بن خالد، وقد إلى جانب المثال جعفر والفضل ومن حضر بحضورهم، وحضر سببويه، فأقبل عليه الأحمر، فسأله عن مسألة فأجاب فيها سببويه، فقال له: أخطأت. ثم سأله عن ثانية فأجابه، فقال أخطأت. ثم سأله عن ثالثة فأجاب، فقال أخطأت. فقال سببويه: هذا سوء أدب. قال فأقبلت عليه فقلت: إنَّ في هذا الرجل جداً^(٤) وعجلة، ولكن ما تقول فيمن قال: هؤلاء أيُّون، ومررت بأيَّين؟ وكيف تقول على مثال ذلك من وأيت أو أويت؟ فقدر وأخطأ. فقلت له: أعد النظر، فقدر وأخطأ، فقلت. أعد النظر، فقدر وأخطأ، فقلت: أعد النظر، ثلاث مرات يجيئ ولا يصيب. فلما كثر ذلك عليه قال: لست أكلمكما أو يحضر صاحبكم حتى، أناظره. قال: فحضر الكسائي، فأقبل على سببويه فقال: تسألني أم أسلك؟ فقال: لا، بل تسألني أنت.

(١) هو يحيى بن خالد بن برمك، أبو الفضل. كان سيدبني برمك وانفصلهم. وكان مؤذب الرشيد العباسي ومعلمه ومربيه. ثم أصبح كاتبه. وقد علا شأنه واشتهر بجوده وحسن سياسته. وكانت نهايته الزج بالسجن بعد نكبة البرامكة على يد الرشيد. توفي سنة ١٩٠ هـ، ٧٣٨ م الزركلي: الإعلام، ج ٨، ص ١٤٤.

(٢) هو خلف الأحمر: هو خلف بن حيان أبو محرز. كان راوية وعالماً بالأدب وشاعراً من أهل البصرة. كان أبوه موليبن من فرغانة. وكان أعلم أهل عصره بالشعر. وكان يضع الشعر وينسبه إلى العرب. من مؤلفاته (جبال العرب). توفي سنة ١٨٠ هـ، ٧٩٦ م. الزركلي: الإعلام، ج ٢، ص ٣١٠.

(٣) هو فراش للجلوس والنوم عليه.

(٤) وردت في «الإشباه والنظائر» للسيوطى ج ٣، ص ٨٧ جدة. وأعتقد ذلك هو الصواب.

فأقبل عليه الكسائي فقال: ما تقول، أو كلف تقول: (قد كنت أظن العقرب أشد لسعة من الرَّبُّور^(١) فإذا (هو هي)، أو (إيادا هو إيادا)؟ قال سيبويه: فإذا هو هي، ولا يجوز النصب. فقال له الكسائي: لحَّتْ ثم سأله عن مسائل من هذا النوع. خرجت فإذا عبد الله القائمُ أو القائم؟ قال سيبويه في ذلك كله بالرفع دون النصب: فقال الكسائي: ليس هذا كلام العرب؛ العرب ترفع في ذلك كله وتنصب، فدفع سيبويه قوله. فقال يحيى بن خالد: قد اختلفتما وأنتما رئيساً بليديكم. فمن ذا يحكم بينكمَا؟ قال الكسائي: هذه العرب يبابك قد جمعتهُم منْ كا. أَوْب^(٢)، ووفدت عليك من كل صقع^(٣)، وهم فصحاء الناس وقد قمع بهم أهل النصرين، وسمع أهل الكوفة وأهل البصرة منهم، فيحضرُونَ ويسألونَ. فقال يحيى وجعفر: قد أنتصَّرتَ. وأمر بإحضارهم، فدخلوا وفيهم أبو فقعن وأبو دثار، وأبو الجراح، وأبو ثروان، فسئلوا عن المسائل التي جرت بين الكسائي وسيبويه، فشافعوا الكسائي وقالوا بقوله. فأقبل يحيى على سيبويه فقال: قد تسمع أيها الرجل! قال: فاستكان سيبويه^(٤).

ويظهر أن الحقَّ بجانب سيبويه لما يقتضيه القياس في هذا الموضع، ولأنه يطرد الرفع فيه أي: الذكر الحكيم، من، مثل قوله تعالى: «وَنَزَّلْنَا إِلَيْهِ بِقِصَّةَ النَّظَرِينَ» [الأعراف: ١٠٨]. فهي بما وبعدها مبتدأ وخبر والنصب على الحالية ضعيف^(٥).

وإليك مناظرة ثانية جرت بين الكسائي واليزيدي بحضور الخليفة المهدى. فقد روى أبو عبد الله محمد بن العباس اليزيدي قائلاً: «سمعت أبا القاسم عبيد الله بن محمد بن أبي محمد اليزيدي عمن يحدث عن أحمد بن محمد بن أبي محمد أخيه وعمي قال: حدثني أبو محمد بن أبي محمد قال: كنا مع المهدى قبل أن يستخلف بأربعة أشهر، وكان الكسائي معنا، فذكر المهدى العربية، وعنه

(١) ذباب أليم اللسع. البستاني: محيط المحيط، مادة (زن ب).

(٢) الأَوْب: الناحية والجهة: القاموس المحيط للفiroز بادي، ج ١، فصل الهمزة باب الباء ص ٣٨.

(٣) الصقع: الناحية والبيت جمعها: أصقاع: ابن منظور: لسان العرب، ج ٨، فصل الصاد باب العين ص ٢٠٣.

(٤) أبو بكر الزبيدي: طبقات النحوين، ص ٧٠ - ٧١. السيوطي: الأشباه والنظائر في النحو. مراجعة الدكتور فايز ترحيني. دار الكتاب العربي، ج ٣، ص ٨٧.

(٥) الفضل بن الحسن الطبرسي: مجمع البيان في تفسير القرآن، دار الحياة، المجلد الثالث الجزء التاسع، ص ١٣٥ - ١٣٦.

شيبة بن الوليد العبسي، فقال المهدى: يبعث إلى اليزيدى والكسانى وأنا يومئذ مع بيزيد بن منصور، خال المهدى والكسانى مع الحسن الحاجب، فجاءنا الرسول، فجئت أنا، وإذا الكسانى على الباب قد سبقنى، فقال لي: يا أبا محمد، أعود بالله من شرك، قال: فقلت له: والله لا تؤتى من قبلى حتى أوتى من قبلك، قال: فلما دخلنا عليه، أقبل علىي؟ فقال كيف: نسبوا إلى البحرين: فقالوا بحرانى، ونسبوا إلى الحصين فقالوا حصنى، ولم يقولوا حصنانى، كما قالوا بحرانى. قال: قلت: أصلح الله الأمير، إنهم لو نسبوا إلى البحرين، فقالوا بحرى لم يعرف إلى البحرين، نسبوه أم إلى البحر، ولما جاءوا إلى الحصين، لم يكن موضع آخر ينسب إليه غير الحصين، فقالوا حصنى.

قال أبو محمد: فسمعت الكسانى يقول لعمرو بن بزيع: لو سألني الأمير، لأخبرته فيها بعلة هي أحسن من هذه. فقال أبو محمد: فقلت أصلح الله الأمير، إن هذا يزع عم أثك لو سأله لأجاب أحسن مما أجبت به، قال: فقد سأله، فقال الكسانى: إنهم لما نسبوا إلى الحصين، كانت فيه نونان، فقالوا: حصنى اجتزاء بإحدى النونين من الأخرى، ولم يكن في البحرين إلا نون واحد، فقالوا: بحرانى. فقلت، أصلح الله الأمير: كيف ينسب رجلاً منبني جنان، يلزم أنه يقول: جنى، لأن في جنان نونين. فإن قال ذاك، فقد سوى بينه وبين المنسوب إلى الجن، قال: فقال المهدى: قد ناظرا، فانتظرنا في مسائل حفظ قولي «قوله»، إلى أن قلت له: كيف تقول إن من خير القوم أو خيرهم بنتة زيد. قال فأطأل الفكر، لا يجيء بشيء. قال: قلت: أعز الله الأمير لأن يجيء فيخطيء، فيتعلّم أحسن من هذه الإطالة^(١)

ويبدو لنا من خلال هذا العرض أنَّ المناظرات كانت حامية بين البصرة والكوفة، وحرَّكت العلماء إلى العمل في ميدان النحو، ونشره، إذ كانت باعثاً على الاجتهاد والدأب على استكمال ما بقي من مواد النحو، واستمررت شديدة في مرحلة النشوء والنمو، وصولاً إلى نهاية المرحلة الثالثة، حيث انطفأت نار العصبية البلدية، فخدمت تلك المناظرات بين البلدين كما سرى لاحقاً.

ويمكن القول إنَّ المناظرات كانت تمثل أبرز مظاهر التطور في النحو في المرحلة الثانية؛ إذ كانت تدل على عقول نحوية خصبة، وتبخر في أسرار هذا الفن، وقدرة على الاستقراء والتحليل والتركيب والاستنتاج لم نعهد لها في المرحلة الأولى.

(١) السيوطي: الأشباه والنظائر، ج ٣، ص ٩٠ - ٩١.

نَطْرُ النَّحْوِ الْعَرَبِيِّ فِي الْمَرَّاتِينِ الْثَالِثَةِ وَالرَّابِعَةِ

تمهيد:

لقد رأينا أن النحو العربي، قد وُضِعَ وَتَكَوَّنَ في المراحل الأولى على أيدي البصريين، ثُمَّ نشأ وَنَمَا في المراحل الثانية على أيديهم وأيدي الكوفيين معاً، فحظي هذا الفن بقفزة نوعية إلى الأمام، ولا سيما بعد ظهور الخليل بن أحمد وسيبوه والكسائي والفراء. ثُمَّ ما لبث أن تناهى هذا العلم، وتطور في المراحل الثالثة، حتى بلغ مستوى راقياً لم يشهده في المراحلتين السابقتين:

المراحل الثالثة: بدأت هذه المراحلة من عهد المازني البصري، وأبن السكري الكوفي، وانتهت في آخر عهد المبرد البصري، وثعلب الكوفي. وقد بلغ النحو في تلك المراحلة مستوى عالياً من النضج والأكمال، نظراً للتنافس الشديد بين البصريين والковيين بفضل العصبية البلدية المتأججة في نفوس الطرفين. وكان لعلماء هذه المراحلة نشاطات بارزة تتجلى في نواحٍ كثيرة، لا يتسع المجال للحديث عن سائر علماء البصرة والكوفة ونشاطاتهم، بل نكتفي بالكلام عن المبرزين منهم. فمن مشاهير البصريين:

المازني: هو أبو عثمان بكر بن محمد بن عثمان، أحد بنى مازن. أصبح أعلم الناس بالبصرة، بعد أن قرأ على أبي الحسن الأخفش، كتاب سيبوه، وعمله على الجزمي^(١). وكان لا يناظره أحد إلا قطعه، بقدرته على الكلام. قال المبرد: لم يكن بعد سيبوه أعلم بال نحو من أبي عثمان. ومن أدل الروايات على براعته في النحو أن جارية لل الخليفة العباسى الواثق باشة غنته يوماً:

(١) هو أبو عمر صالح بن إسحاق البجلي، ثُبِّ إلى جزم بن ريان بن عمران بن الحاف بن قضاعة. له مصنفات كثيرة. أشهرها المختصر في النحو. في سنة ٢٢٥ هـ.

الشيراطي: بغية الوعاة، ج ٢، ص ٨ - ٩.

أَظْلَمُونَ إِنْ مَصَابَكُمْ رِجْلًا أَهْدَى السَّلَامَ تَحْيَةً ظُلْمًا^(١)
 فاعترض التوزي^(٢) على نصبه (رجلًا) متوفقاً أنه خبر (إن) فقالت منفعة:
 لا أقبل هذا ولا غيره، وقد قرأته كذا على أعلم الناس بالعربية، أبي عثمان المازني. وعلى أثر ذلك استدعي هذا العالم من إحدى المدن، فلئن دخل على الخليفة قال له: مَنْ الرَّجُل؟ أجابه المازني: منبني مازن. قال له، إجلس، فجلس، ثم سأله الخليفة عن البيت، فقال معللاً بذكاء وبراعة: «صوابه (رجلًا). فقال: ولِمَ؟ فقلت: إنْ (مصابكم) مصدر بمعنى (إصابتكم). فأخذ التوزي في معارضتي، فقلت هو بمنزلة قولك: إنْ ضربك زيداً ظلماً؛ فالرجل مفعول (مصابكم) و(ظلم) الخبر. والدليل عليه أنَّ الكلام متعلق إلى أن تقول: (ظلم) فيتَّهم. فقال التوزي: حسي، وفهم. واستحسنَه الرواية^(٣). ولحداقته وبراعته في النحو، كافأه الخلفاء وكرمهوه.

وتركَّزت نشاطاته على التعليقات والشرح حول كتاب سيبويه. منها (تفاسير كتاب سيبويه)، و(الديباج في جوامع كتاب سيبويه). كذلك صنف مؤلفات أخرى منها (ما تلحن فيه العامة)، و(الألف واللام).

ولعلَّ أهم النشاطات التي قام بها علماء هذه المرحلة، وبالذات المازني، يتمثل في جعلهم الصرف مستقلاً عن النحو. ويفيد ذلك واضحاً من خلال وضع أبي عثمان كتاب (التصريف)^(٤) الذي شرحه ابن جنَّى، وسماه (المنصف). وهو كتاب قيم ونفيس، جمع فيه موضوعات التصريف المتداولة في كتاب سيبويه، وقد نظمها للمرة الأولى، وصاغها صياغة علمية بلغت الغاية في الاتقان.

يضاف إلى تلك النشاطات ما قدمه أبو عثمان من اجتهادات وأراء طريفة. من ذلك ذهابه إلى أنَّ الكلمة (مثل ما) في قوله تعالى: «إِنَّه لَحَقٌ مِثْلُ مَا أَنْكُمْ تَنْطِقُونَ»^(٥)، وهي اسم واحد بنيت فيه (مثل) على الفتح، وهي مع ما في موضع

(١) ورد بدل (تحية) كلمة (إيلكم) في (طبقات النحويين) للزيبيدي، ص ٨٧.

(٢) هو عبد الله بن محمد مولى لقرشى.قرأ كتاب سيبويه على أبي عمر الجزمي: كان عالماً بالشعر وبارعاً في النحو. السيرافي: أخبار النحويين البصرىين ص ٨٥.

(٣) السيرافي: أخبار النحويين البصرىين، ص ٧٤ أبو بكر الزيبيدي: طبقات النحويين، ص ٨٧. السيوطي: بقية الوعاء، ج ١ ص ٤٦٤ وما بعدها.

(٤) السيوطي: بقية الوعاء، ج ١، ص ٤٦٥.

(٥) سورة الذاريات، الآية ٢٣.

رفع نعت لحق، وهو مضافان إلى أنَّ وما بعدها^(١). وكان يرى أنَّ بعض أسماء الأفعال تكون منصوبة بأفعال مضمرة، على أنها مفعولات مطلقة واسم الفعل هيئات وأخوه (شنان) مفعولان مطلقان لفعل محذوف، تقديره (يُمْدَد) وكان معناهما (يُمْدَدَا)^(٢).

ويعد المازني أول من فتح باب التمارين غير العملية في الصرف على مصاريعه كأن يقال: ابنِ من (ضرَبَ) على مثال (جعفر)، فيقال (ضرَبَ)، أو ابنِ منها على مثال (قِمَطْرَ)، فيقال: (ضرَبَ)^(٣).

وقد تجسدت مظاهر نشاطات المازني في الاختلاف بين رأيه ورأي عالم آخر من مدرسته حول مسائل نجوية وصرفية. ومن مظاهر هذا الاختلاف، ما كان بارزاً بين أبي عثمان وسيبوه وأستاذة الخليل في مسائل صرفية منها وزن (دُلَامِص)^(٤). فالخليل يرى أنَّ وزنها (فُعَالِمٌ) أمَّا المازني فيرى أنَّ وزنها (فُعَالِلٌ) أي أنَّ الميم أصلية في بنائها. وأيد ابن جنِي رأي الخليل لمجيء (دليص) لمعناها عن العرب^(٥).

وخالف سيبوه في مسائل صرفية كثيرة عن بصيرة ودرائية، فيقول في ذلك: «إذا قال العالم قولًا لا متقدماً فللmentعلم الاقتداء به، والانتصار له والاحتجاج لخلافه إن وجد إلى ذلك سبيلاً»^(٦) ومن مخالفته لسيبوه ذهابه إلى أنَّ الكلمة (أشدَّه) في الآية الكريمة (وَلَمَّا بَلَغَ أَشَدَّهُ)^(٧) هي اسم جمع لا واحد له، في حين رأى سيبوه أنها جمع شِدَّةٍ كنعة وأنعم^(٨).

والظاهر أنَّ ما عرضنا له من آراء للمازني يخالف فيها سيبوه وغيره من كبار النحاة يشهد أنَّ هذا العالم قد تَبَوَّأَ عرش الإمامة، ولا سيما في علم التصريف؛ إذ عمل على تنظيم قواعده ومسائله، وقام بفصله عن النحو الذي كان مرتبطاً به في كتاب سيبوه، وجعله علمًا مستقلًا بأبنيته وأقساته وتمارينه الكثيرة التي ذلل بها

(١) ابن جنِي: *الخصائص*، نج ٢، ص ١٨٢.

(٢) السيوطي: *معجم الهرام*، ج ١ ص ١٧.

(٣) ابن جنِي: *المنصف* ج ١، ص ١٧٣.

(٤) أبي الأملس البراق.

(٥) ابن جنِي: *المنصف*، ج ١، ص ١٥١.

(٦) ابن جنِي: *الخصائص*، ج ١، ص ١٩٧.

(٧) سورة يوسف، الآية ٢٢.

(٨) ابن جنِي: *الخصائص*: ج ١، ص ٨٦.

شوارده، ويشرها لمن جاء بعده كأبي على الفارسي، وابن جنني.

وكذلك يكون المازني رمز تطور هذا العلم في المرحلة الثالثة، إذا أظهر عن براعة نادرة في صياغة قواعد التصريف صياغة تُبني على الضبط الدقيق وسلامة التطبيق، وكان رمزاً لتطور النحو وإماماً له؛ ما دفع المبرد إلى القول: «لم يكن بعد سيبويه أعلم بالنحو من أبي عثمان المازني»^(١).

المبرد وأصحابه: لم تتوقف عجلة تطور النحو بعد وفاة المازني سنة ٢٤٩ هـ) وإنما مضت قدماً وبسرعة حثيثة بعد ظهور المبرد وأصحابه في أواخر تلك المرحلة علماً بأنّ عدداً من العلماء البصريين كانوا قد ظهروا قبله، وصبووا جلّ اهتمامهم على روایة اللغة والشعر؛ فكانت آراؤهم النحوية قليلة قياساً على اللغة. ونذكر منهم عبد الله بن محمد التوزي، وأبا إسحاق إبراهيم بن سلمان بن أبي بكر بن عبد الرحمن بن زياد بن أبيه الملقب بالزيادي، وأبا الفضل عباس بن الفرج الرياشي، وأبا حاتم السجستاني سهل بن محمد^(٢). غير أنّ محمد بن يزيد الأزدي أبو العباس المبرد كان إمام العربية ببغداد في زمانه بعد أن أخذ عن المازني وأبي حاتم السجستاني. ويقال إنه بدأ بقراءة كتاب سيبويه وختمه على أبي عثمان، فأصبح على جانب من غزارة العلم والأدب وكثرة الحفظ وحسن الإشارة، وفصاحة اللسان، وبراعة البيان، وملوكيّة المجال وكرم العشرة، وبلغة المكابحة، وحلوة المخاطبة، وصحة القرىحة، وقرب الافهام ووضوح الشرح، وعذوبة المنطق على ما ليس أحد ممئن تقدّمه أو تأخّر عنه^(٣). لذلك عُدَّ المبرد من المشاهير البصريين في المرحلة الثالثة. فقد سأله بعضهم رجلاً قائلاً: أتعرف أبو عثمان المازني؟ قال: نعم! معرفة ثاقبة. ثم سأله: أتعرف الذي يقول فيه:

وفتن من مازن ساد أهل البصرة أمة معروفة وأبوه نكره؟

قال: لا أعرفه. قال: أتعرف غلاماً له قد نبغ في هذا العصر معه ذهن، وله حفظ، وقد برع في النحو، وجلس في مجلس صاحبه، وشاركه فيه، يُعرف بالمبرد؟ قال: أنا والله، عين الخبير به^(٤).

(١) القسطي: إباء الزواة على أباء النحّاء، ج ١ ص ٢٤٨.

(٢) راجع أخبار النحويين البصريين للسيرافي، ص ٨٥، ٩٣، ٩٦ وطبقات النحويين والنحوين للزييدي، ص ٩٤، ٩٧ و ٩٩.

(٣) السيرافي: أخبار النحويين البصريين، ص ٩٦ وما بعدها. أبو بكر الزييدي: طبقات النحويين، ص ١٠١.

(٤) السيرافي: أخبار النحويين البصريين، ص ٩٩.

وعلى هذا يمكن القول إن النضج والاكتمال، في المرحلة الثالثة، تتحققا بظهور المبرد؛ إذ انتهت إليه الرئاسة، فقال عنه الناس: «لم ير الميَّرد مثل نفسه، ممَّن كان قبله، ولا يوفى بعده مثله»^(١). وقال فيه أبو بكر بن مجاهد: «ما رأيت أحسن جواباً من المبرد في معاني القرآن فيما ليس فيه قول المتقدم»^(٢) ويروى أنَّ شاباً نيسابورياً أتى أبي حاتم السجستاني قائلاً له: «يا أبي حاتم، إني قدمت بلدكم؛ وهو بلد العلم والعلماء، وأنت شيخ هذه المدينة، وقد أحبيت أن أقرأ عليك كتاب سيبويه. فقال له: الذين التصيحة، إن أردت أن تنتفع بما تقرأ فاقرأ على هذا الغلام، محمد بن يزيد»^(٣). وكان لرئيسه، وتفرده بمذهب أصحابه، وإربابه عليهم بفضله وصحته قريحته صدى بعيدَ حذا الخلقاء إلى استقدامه لاستشارته في مسائل كثيرة^(٤) وما يظهر ذكاءه ومهارته في النحو والصرف زَرْدَةً على المازاني الذي سأله المبرد بعد تصنيفه كتاب (الألف واللام) عن دقيقه ووعيشه؛ فأجابه بأحسن جواب. فقال له المازاني: «قم فأنت المبرد، أي المثبت للحق»^(٥).

ولقد أناحب تلك المكانة للمبرد أن يصنف الكثير من المؤلفات النفيسة أبرزها (معاني القرآن)، (الكامل في اللغة والأدب) (المقتضب)، (الروضة)، (المقصور والممدود)، (الاشتقاق)، (إعراب القرآن)، (الرذ على سيبويه)، (شرح شواهد سيبويه) (طبقات النحاة البصريين)، (العروض) و(القوافي) كما أنها أتاحت له أن يناظر ثعلب فيخرج متتفوقاً عليه بقدرته على الجدل وإصابته للحججة وحسن بيائه؛ ما جعل الكثيرين من تلاميذ خصمه يتحولون إلى حلقة، وعلى رأسهم أبو علي الدينوري^(٦) والجدير بالذكر أنَّ المبرد كان يمثل آخر البارزين من علماء البصرة، في تلك المرحلة فعده ابن جنيُّ جيلاً في العلم، وإليه أفضت مقالات أصحابه^(٧)، وهو الذي نقلها وقررها، وأجرى الفروع والعلل والمقاييس عليها^(٨).

(١) أبو بكر الريدي: طبقات النحويين، ص ١٠١. السيوطي: بغية الوعاء، ج ١، ص ٢٦٩.

(٢) المصدر نفسه، ص ١٠١.

(٣) المصدر نفسه، ص ١٠٢.

(٤) السيوطي: بغية الوعاء، ج ١، ص ٢٦٠. والمبرد بكسر الراء، لكنَّ الكوفيين فتحوها فقالوا: المبرد.

(٥) هو أحمد بن مروان الدينوري المالكي، أبو بكر. وكان فاضياً محدثاً وتوفي في القاهرة سنة ٢٢٢ هـ. له تصانيف أمتها: المجالسة وجواهر العلم، الرذ على الشافعية. ومناقب مالك

الزركي: الأعلام، ج ١ ص ٢٥٦.

(٦) المقصود بهم البصريون.

(٧) ابن جني: سر صناعة الإعراب، ج ١، ص ١٣٠.

وعلى الرغم من أن المبرد كان يرجع، في كثير آرائه النحوية والصرفية إلى الأصول نفسها التي اعتمد عليها علماء المدرسة البصرية من قبله، في أغلب الأحيان، فإنه لم يتقييد بآراء المذهبين البصري والكوفي أحياناً أخرى؛ إذ كانت له آراء منفردة لا تساير أحد المذهبين. فنأخذ رأيه في (غير) بعد ليس، على سبيل المثال. فكان الأخفش يذهب إلى أنه يجوز في (غير) الرفع والنصب مع حذف التنوين، لانتظار المضاف إليه؛ ومعنى ذلك أنها تأتي معربة لا مبنية في مثل قولنا: (قبضت ألف ليرة ليس غير). وفي حالة الرفع يكون خبر ليس ممحذوفاً، وعند النصب يكون اسمها مضمراً. لكن المبرد خالقه حين رفض إلا رفع (غير) على أن رفعها ضمة بناء لا إعراب، وأن (غير) شبيهت بقبل وبعد، وعلى هذا يحتمل أن تكون أسماء ليس، أو خبراً لها؛ أي: على حذف الخبر، أو على إضمار الأسم في (ليس)^(١). كذلك خالق المبرد جمهور الطرفين الذين رأوا أنَّ اسم (لا) النافية للجنس، إذا كان مثنى أو جمع مذكر، رُكِّب معها ويني، كما يُبني مفردها، غير أنَّ المبرد يذهب إلى أنَّ اسمها، حيثُته، يكون معرباً، لأنَّه لم يَرْ فيهما التركيب مع شيء آخر، من قبل، وأنَّه لا يوجد في كلام العرب مثنى وجمع مبنيان وتُنقض قوله بأنَّهما يبنيان في الداء^(٢).

كذلك خالق المبرد سيبويه الذاهب إلى أنَّ (ما) الداخلة على (قل) ونحوها مثل (طال)، تكفيها عن العمل، وفي هذه الحالة، لا يليها إلا الفعل نحو: زياد قلما يصدق. أمَّا المبرد فرأى أنها زائدة، وهي لا تكفي الفعل عن العمل كما في قول الشاعر:

صَدَّدْتِ فَأَطْوَلْتِ الصَّدُودَ وَقَلْمَا
فَوَسَالَ فِي هَذَا الْبَيْتِ فَاعْلَمَ (قَلْمَا) فِي رَأْيِ الْمَبَرَدِ. أَمَّا سِبْوَيْهُ فِي رَأْيِ أَنَّهَا
دَخَلَتْ عَلَى اسْمِ ضَرُورَةٍ، وَهُوَ فَاعِلُ لِفَعْلِ مَحْذُوفِ مَفْسُرٍ، وَتَقْدِيرُهُ (يَدُوم)^(٣).
بِالاضْفافَ إِلَى ذَلِكَ جُوزَ دُخُولِ لَامِ الْابْتِدَاءِ عَلَى خَبَرِ (إِنَّ) وَمَعْمُولِهِ إِذَا كَانَ ظَرْفًا أَوْ
جَارًا وَمَجْرُورًا فِي مَثَلِ: إِنَّ خَالِدًا لَبِكَ وَاثِقَ خَلَافًا لِلْبَصَرِيِّينَ^(٤): وَخَالِقُ الْمَبَرَدِ
سِبْوَيْهُ الَّذِي رَأَى أَنَّهُ مِنْ غَيْرِ الْجَائزِ إِعْمَالٌ حَتَّى الْجَارَةِ فِي مَضْمُرٍ. لَكِنَّ صَاحِبَ
(الْكَاملِ) أَجَازَ ذَلِكَ مُحْتَاجًا بِقَوْلِ الشَّاعِرِ:

(١) السيوطي: مع الهوامع، ج ١ ص ٢١٠.

(٢) المصدر نفسه، ج ١، ص ١٤٦.

(٣) ابن هشام: المغني، ج ١، ص ٣٠٦. المكتبة العصرية.

(٤) السيوطي: مع الهوامع، ج ١، ص ١٣٠. ويبدو أنَّ هَذَا التَّجْرِيزُ فِي تَكْلِيفٍ.

أَتَ حَثَّاكَ تَفْصِدُ كُلَّ فَجٍّ تُرْجِي مِنْكَ أَنْهَا لَا تُخْبِبُ
وَعَدَ جَمِيعُ الْبَصَرِيِّينَ ذَلِكَ ضَرُورَةٌ وَلَا يَقْاسُ عَلَيْهِ^(١).

كذلك ذهب المبرد إلى أنَّ (إذما) الشرطية ظرف مثل (إذا وإذا) خلافاً لسيبويه الذي رأى أنها حرفة مثل (إن) الشرطية. وخالف الأخفش الذي ذهب إلى أنَّ (إذا) الفجائية حرفة، في حين رأها هو ظرف مكان، وتكون خبراً في مثل: خرجت فإذا علي، وفي مثل: خرجت فإذا على واقف، تكون منصوبة بواقف^(٢).

وفي مجال الصرف خالفة القياس أحياناً. فمن ذلك أنَّ القياس يقضي، في صيغة، (مفعول) بأن تمحى واوها إذا كانت مشتقة من فعل أجوف مثل: مقول. ولكن سمع عنبني تميم كثيراً أنهم يثبتون الواو في تلك الصيغة فيقولون: مقول ومصورون. وقد جعل المبرد ذلك.قياساً مطرداً^(٣).

ومعنى ذلك أنه كان يقدم السمع عن العرب، رافضاً ما قبل وروده على ألسنتهم، ويرد ما يخالف الكثرة الكثيرة الدائرة في أقوالهم. وإن لم تتوفر هذه الكثرة، يلجأ إلى الاحتکام دائمًا إلى القياس، ويفسح له حين يشيع استعمال بين العرب. ومعنى ذلك أيضاً أنه لم يقى على الشاذ النادر، إنما كان يقيس على ما سمع كثيراً^(٤).

ومما يدلُّ على أنَّ النحو قد بلغ مستوى النضج والاكتمال في المرحلة الثالثة من تطوره، الدقة في استنباط القاعدة المقيدة. ويبعد ذلك واضحاً في حكم المبرد بإطلاق القياس في باب المفعول معه في كل صيغة يكون فيها ما قبل الواو سبباً في تاليها؛ مثل جاء الصيف وملابس البحر؛ فالصيف سبب في استخدام ملابس البحر؛ لذلك تنصب الملابس مفعولاً معه، ولا تعطف^(٥). ومن الدلائل الأخرى ما أودع كتبه ومصنفاته من العلاجات اللغوية والتعبيرية الدالة على رهافة حسنه اللغوي ودقة تعبيره. ومن ذلك أنه كان يذهب إلى أنَّ عبارات (عبد الله قائم) تستعمل في مكان لا تستعمل فيه عبارات (إن عبد الله قائم) و (إن عبد الله

(١) ابن هشام: المغني. المكتبة العصرية، ج ١، ص ١٢٣.

(٢) المصدر نفسه ج ١، ص ٨٥ - ٨٧.

(٣) السيوطي: همع الهوامع، ج ٢، ص ٢٢٤.

(٤) ضيف، شوقي. المدارس النحوية ص ١٣٢.

(٥) السيوطي: همع الهوامع، ج ١، ص ٢١٩.

لقائم)؛ فالعبارة الأولى تفيد الأخبار بقيام عبد الله، في حين أنَّ الثانية تفيد الإجابة عن سؤال سائل تأكيداً له، أمَّا الثالثة فتُفيد خطاب من ينكر قيام عبد الله، ويُبالغ في إنكاره؛ لذلك تؤكِّد له العبارة بمؤكَّدين^(١). ولم تخُبْ جذوة النشاط في مدارسة النحو، في المرحلة الثالثة، بعد المبرد، بل تأجَّجت من جديد على أيدي أصحابه أمثال ابن دُرُستويه^(٢)، والأخفش الصغير^(٣) وعلى أيدي آخرين من المشاهير منهم إبراهيم بن السرُّى بن سهل الزجاج الذي برع في النحو في هذه المرحلة؛ فاستقدمه الوزراء لتعليم أبنائهم النحو، ثم تمكَّن من وضع تصانيف كثيرة دلَّت على شهرته؛ نذكر منها (معاني القرآن)، (الاشتقاق)، (خلق الإنسان)، (فعلت وأفعلت)، (مختصر النحو)، (شرح أبيات سيبويه)، (العروض والقوافي)، (النواذر)، و(تفسير جامع المنطق)^(٤). وكانت له آراء نحوية وصرفية تؤكِّد مستوى النضج والاكتمال الذي بلغه النحو في المرحلة الثالثة من تطوره على أيدي البصريين. ومن تلك الآراء تجويهه عمل (العل) و(كأنَّ) إذا اتصلت بهما (ما) الزائدة نحو: لعلماً علياً قادم؛ وكأنما خالداً عائد^(٥) كذلك خالف جمهور البصريين في مسائل نحوية وصرفية كثيرة. فعلى سبيل المثال كان يرى الجمهور أنَّ (هو وهي) أصلان، والضمير في كل منها مجموع الحرفين، لكنَّ الزجاج رأى أنَّ الضمير فيهما الهاء فقط، أمَّا الواو والباء فزائدةان لحذفهما في مثل هما وهم وهنَّ. وذهب الجمهور إلى أنَّ (أيمُّن) في مثل (أيمُّن الله) مرفوعة بالابتداء وخبرها محذوف، خلافاً للزجاج الذي ذهب إلى أنَّها حرف جز وقسم^(٦). ومن الآراء الطريفة عند الزجاج في الصرف ذهابه إلى أنَّ وزن (سلسل) وما بمقابلها نحو (كبَّكَب) هو (فَعَفَل)،

(١) الجرجاني، عبد القاهر: دلائل الإعجاز، مطبعة السعادة، ص ٢٢١.

(٢) هو عبد الله بن جعفر بن دُرُستويه، بضم الدال والراء. كان قد علا قدره. وكثير علمه وكثُرت تصانيفه وانشرت بها منها: الإرشاد في النحو وأخبار النحاة، والمقصور والممدود. كان شديد الانتصار للبصريين في النحو. توفي سنة ٣٤٧ هـ. السيوطي: بغية الوعاء، ج ٢، ص ٣٦.

(٣) هو علي بن سليمان بن الفضل النحوي، أبو الحسن. له تصانيف كثيرة منها: التثنية والجمع، المهدب، وتفسير رسالة سيبويه توفي سنة ٣١٥ هـ. السيوطي: بغية الوعاء، ج ٢، ص ١٦٧.

(٤) أبو بكر الزبيدي: طبقات التحويين، ص ١١١، والسيوطى: بغية الوعاء ج ١، ص ٤١١.

(٥) السيوطى: همع الهاوامع، ج ١، ص ١٤٣.

(٦) السيوطى: همع الهاوامع، ج ١، ص ٦١، ج ٢، ص ٤٠.

خلافاً لرأي الجمهور الذي رأى أن وزنه (فعل) بزيادة لام على آخر الكلمة^(١).

ابن السراج: ومن أحدث أصحاب المبزد سنّا المشهود لهم بطول باعهم في النحو هو أبو بكر محمد بن السري السراج الذي قرأ كتاب سيبويه على المبزد. وقد عوّل على مسائل الأخفش والكتوفيّين، وخالف أصول البصريّين في مسائل كثيرة، وقد لمع نجمه في المرحلة الثالثة بعد أن وضع كتاباً مفيدة في النحو، في مقدّمتها كتاب في أصول النحو، وهو غاية من الشرف والفائدة، ويليه كتاب في مختصر النحو؛ اختصر فيه ابن السراج أصول العربية وجمع مقاييسها؛ ومن كتبه أيضاً شرح كتاب سيبويه، والاشتقاق والجمل. وقد ذاع صيته لمهاراته، فاستقدمه الخلفاء وكرموه. وكان له فضل كبير في إرساء أصول النحو؛ فكان يقال: «ما زال النحو مجئناً حتى عقله ابن السراج بأصوله»^(٢).

وخلالاً للمبزد فكان يعني بالقياس عنابة شديدة، جعلته يهاجم من يعتذرون بالشواذ والتواتر وقد دعا إلى إسقاطها لثلاً يحدث اضطراب في المقاييس النحوية والصرفية. ويتبّع رأيه في ذلك حين قال: «إعلم أنه ربما شد شيء من بابه، فينبغي أن تعلم أن القياس، إذا أطّرد في جميع الباب، لم يُغَنِ بالحرف الذي يشدّ عنه. وهذا مستعمل في جميع العلوم، ولو اعترض بالشاذ على القياس المطرد بطل أكثر الصناعات والعلوم»^(٣).

وله آراء نحوية وصرفية كثيرة أودعها كتابه (الأصول في النحو)، وخالف فيها سيبويه وغيره. ومن ذلك قوله: «قال سيبويه: وليس لك أن تقتصر على المفعول الأول، لأن المفعول الأول في (ذا)^(٤) كالفاعل في الذي قبله. وقال المازني مثل ذلك. والذي عندي^(٥) أن المفعول الأول يجوز أن يقتصر عليه كما كان يجوز أن يقتصر على الفاعل بغير مفعول، وليس في الأفعال الحقيقة فعل لا يجوز أن تقتصر فيه على الفاعل بغير مفعول، وكل فعل لا يتعذر إذا انتقل إلى (أفعل) تعذر. فلما كان يجوز أن أقول: عَلِمَ زِيدٌ، فاقتصر على الفاعل؛ جاز أن أقول: (أعْلَمَ اللَّهُ زِيداً، ولكن لا يجوز أن يقتصر على المفعول الثاني في هذا الباب لأن المفعول

(١) ابن جنى: *الخصائص*، ج ٢، ص ٥٢.

(٢) السيوطي: *بغية الوعاء*، ج ١ ص ١٠٩، وأبو بكر الزبيدي: *طبقات النحرين*، ص ١١٢.

(٣) السيوطي: *المزهر*، ج ١ ص ٢١٢.

(٤) أي: في الفعل الذي يتعذر إلى ثلاثة مفاعيل.

(٥) الذي يقول: والذي عندي هو ابن السراج.

الأول في الباب الذي قبله، وإنما استحال هذا من جهة المعنى، لأنك إذا قلت: (ظننت زيداً منطلقاً) فالثلك إنما وقع في الانطلاق، لا في زيد؛ فلذلك لا يجوز أن تقول: (ظننت زيداً)، وتقطع الكلام، ويجوز أن تقول: ظننت، وتسكت، فلا تعدية إلى مفعول، وهذا لا خلاف فيه^(١)

كذلك اختلف مع جمهور البصريين في أصل (ليس)، فالجمهور يذهب إلى أنها فعل ناقص، لاتصالها بالضمائر مثل: (لست ولستما ولسن) في حين يذهب ابن السراج إلى أنها حرف؛ وذلك لعدم تصرفها، أي: لا يأتي منها المضارع والأمر^(٢)

ومن طرائف آرائه أنه رأى (الما) في مثل: (لما صافحتي احترمته)، ظرفاً.
معنى (حين)، خلافاً لجمهور البصريين الذي ذهب إلى أنها حرف وجود لوجود^(٣)

وفي مجال الصرف أبدع بفطنته وذكائه؛ فألف كتاباً سماه (الاشتقاق) فكان آية في هذا الفن. وأصبح ما وضع من علوم اللسان على حد قول السيوطي^(٤) وقد زاد على أبنية الأسماء وصيغها التي ذكرها سيبويه، اثنين وعشرين بناء^(٥).

إن تلك الزيادات التي أضافها ابن السراج في مجال الصرف، وإن وتلك الأراء الجديدة التي خالف بها البصريين تدفعنا إلى القول: إن النحو قد حقق تطوراً باهراً في المرحلة الثالثة مكتئ من بلوغ مستوى الاستقرار والاكتمال.

السيرافي: وتوجّت هذه المرحلة بأحد مشاهير البصريين، هو الحسن بن عبد الله بن المرزبان أبو سعيد السيرافي^(٦) الذي كان إمام الأئمة بال نحو والفقه واللغة والشعر وعلوم كثيرة أخرى، كما كان شيخ الدهر، وقريع العصر، وعديم المثل، وأجمع لشمل العلم، وأنظم لمذاهب العرب، وأدخل في كل باب، وأخرج من كل طريق. ولمكاتنه، كتب إليه ملوك عدة كتاباً^(٧) مصدراً بتعظيمه، يسألونه فيها عن مسائل في العربية والفقه واللغة.

(١) ابن السراج، محمد بن سهل: الأصول في النحو، تحقيق عبد الحسين الفتلي، مؤسسة الرسالة، طبعة ١٩٨٨، ج ٢، ص ٢٨٤ - ٢٨٥.

(٢) السيوطي: همع الهوامع، ج ١ ص ٩٩.

(٣) ابن هشام: المعنى، المكتبة العصرية، ج ١ ص ٢٨٠.

(٤) السيوطي: المزهر، ج ١، ص ٢٨٧.

(٥) المصدر نفسه، ج ٢، ص ٤.

(٦) كان أبوه مجوسياً. وسمي بالسيرافي نسبة إلى سيراف، توفي سنة ٣٦٨ هـ. السيوطي: بغية الوعاة، ج ١، ص ٥٠٧ - ٥٠٨.

(٧) السيوطي: بغية الوعاة، ج ١، ص ٥٠٨.

إن مهارته في النحو والصرف وثقافته الواسعة بمعظم العلوم أتاحت له أن يصنف أنفس المؤلفات، وفي طليعتها (شرح كتاب سيبويه) وقيل: لم يسبق إلى مثله؛ وقد حسده عليه أبو علي الفارسي وبعض معاصريه. ثم يليه (الإقناع في النحو) وقد أثمه ولله يوسف الذي قال: «وضع والدي النحو في المقابل بالاقناع»^(١) ومعنى ذلك أنه سهله جداً، فلا يحتاج إلى مفسر. وله أيضاً (شواهد سيبويه) والمدخل إلى (كتاب سيبويه) (الوقف والابتداء) (أخبار النحويين البصريين)^(٢).

وكئاً قد أشرنا أنفاً إلى أنّ سمة هذه المرحلة كانت الشروحات لمؤلفات السابقين وبخاصة كتاب سيبويه أو اختصارها والتعليق عليها. واتسع السيرافي في كثرة ما أضافه من شواهد في شرحه للكتاب، كذلك اتسع في بيان وجود الإعراب الممكنة لها، ولما يسوقه سيبويه من شواهد، متوسعاً توسعًا ساعده فيه عقله الجدلية الخصب. وكان يلتقي سيبويه في كثير من المسائل؛ ويختلف معه في مسائل أخرى. وكان بعمله هذا يظهر مدى تطويره للنحو وخاصة من خلال إثناره من تخريجات لوجوه الإعراب في الصيغ والعبارات، ومن ذلك نصب (المقيمين الصلاة) في قوله تعالى: «لَكُنْ أَرْسَحُونَ فِي الْعُلُوِّ يَنْهُمْ وَالْمُؤْمِنُونَ يُؤْمِنُونَ بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْكُمْ وَمَا أُنْزِلَ مِنْ قَبْلِكُمْ وَالْمُقِيمِينَ أَصْلَوُهُ وَالْمُؤْمِنُونَ أَرْكَنُوهُ» [النساء: ١٦٢]. فكان الخليل يراها منصوبة على المدح بتقدير (واذكر) (المقيمين الصلاة)، وجوز السيرافي: أن تكون مجرورة بالعاطف على (ما)؛ فيكون المعنى (يؤمنون بما أنزل إليك) وبالمقيمين الصلاة، أي: بمذاهبهم وبدينهم، لكن هذا التخريح بعيد^(٣). وخالف غيره في مسائل كثيرة بين من خلالها أنه لا ينقل آراء سلفه من دون مناقشتها أو التعليق عليها ومخالفتها ونقضها. فهو يمنع دخول لام الابتداء بعد (إن) على معمول خبرها، ما دامت قد دخلت على الخبر نفسه، مخالفًا المبرد في ذلك^(٤). كذلك خالف غيره في قضية (كان) الزائدة في مثل قولنا: ما كان أحسن مساءك؛ فالجمهور يذهب إلى أنها زائدة، بينما يراها هو تامة، وفاعلها المصدر الدالة عليه أي: كان الكون^(٥).

(١) المصدر نفسه، ج ١، ص ٥٠٨.

(٢) المصدر نفسه، ج ١، ص ٥٠٨.

(٣) ضيف، شوقي: المدارس النحوية، ص ١٤٩.

(٤) السيوطي: همع الهوامش ج ١، ص ١٣٩.

(٥) المصدر نفسه، ج ١، ص ١٢٠.

ومن آرائه الطريقة التدالة على نشاطه في المرحلة الثالثة، والمشيرة إلى أن النحو قد أينع ويؤشر قطافه، ما ذهب إليه في مسألة جملة أفعال الاستثناء مثل (ليس ولا يكون) و(خلا وعَدَا) فكان يراها في موضع نصب حال، وجُوز فيها أن تكون مستأنفة. فكان يقول: إنَّ ما في مثل (ما خلا) مصدرية، وتقدير الحال في كل هذه الأفعال، حين تقول: قام القوم ليس زيداً أو ما خلا زيداً، ونحوهما هو: خالين عن زيد^(١).

بعد هذا العرض لنشاط مشاهير البصريين في المرحلة الثالثة في تطوير النحو، نستطيع أن نقول: إنَّ النحو، في تلك الفترة بلغ غايته من تأصيل القواعد ومذ الفروع المشابكة، فأصبح بناؤه مستكملًا شاهقًا تسلمه الكوفيون والبغداديون متكاملًا فحاولوا إدخال بعض الاضافات على هذا البناء، وذلك ليغايروا البصريين بمنهج جديد.

نشاط مشاهير الكوفيين في المرحلة الثالثة

ثعلب الكوفي وأصحابه: على الرغم من دور البصريين الفاعل في جعل النحو مستكمل البناء، ولا سيما في المرحلة الثالثة، فإنَّ دور الكوفيين لم يكن أقل فعالية؛ إذ برع منهم مشاهير نشطوا في تطوير النحو، كان على رأسهم أبو العباس ثعلب، أحمد بن يحيى الشيباني الذي نبغ بالنحو، لكثرة العناية به منذ كان عمره ست عشرة سنة، ولحفظه الكتب النحوية، منها كتب الفراء، وملازمه ابن الأعرابي^(٢) بضع عشرة سنة، ولاعتماده على سلمة بن عاصم^(٣) في النحو. ويقال: إنَّ في النحو ستين حداً، فقد سمعها كلها أبو العباس ثعلب عن سلمة عن يحيى بن زياد الفراء^(٤). وبفعل هذا الإكباب على النحو، تمكّن ثعلب من الإحاطة بجوانبه والتبحر في معارفه والقدرة على سبر أغواره، فبرز في هذا العلم وضاهى

(١) ابن هشام: المغني، المكتبة العصرية، ج ١، ص ١٣٣، ١٤٢.

(٢) هو أبو عبد الله محمد بن زياد المعروف بابن الأعرابي الكوفي. كان لغويًا مشهوراً. أصله من مواليبني هشام. اشتهر برواية أشعار القبائل، ومعرفة أنساب مشهوري العرب. أخذ عنه ثعلب وابن السكريت. توفي سنة ١٣١ هـ. وجدي، محمد فريد دائرة معارف القرن العشرين، ج ٦ ص ٣٠٥.

(٣) كان حافظاً لنادية ما في الكتب، وحاذقاً بالعربية. كان يناظر الفراء فيرجع عنه. أبو بكر الزبيدي: طبقات النحوين، ص ١٣٧.

(٤) المصدر نفسه، ص ١٣٧.

من كان يسمع منهم. وليس أدل على ذلك من قوله: «كنت أسير إلى الرياشي^(١) لأسمع منه، فقال لي يوماً وقد قرئ عليه:

ما تشقُّمُ الحرب العوائِنَ منيِّ بـ بازِلْ عـامـيـن صـفـيـرـ سـتـي

كيف تقول: بازِل أو بازِل؟ فقلت: أتفول لي هذا في العربية؟ إنما أقصدك لغير هذا! يروى بالرفع على الاستثناء، والنصب على الحال، والخفض على الإتباع. فاستحيا وأمسك^(٢). وتنظر برأته واضحة في عدم تجويزه القول: (ألف درهم واحدة) من خلال هذه الرواية التي يقول فيها: «وكان محمد بن عبد الله بن طاهر يكتب ألف درهم واحدة، بالباء فإذا مرّ به ألف درهم واحد أصلحه (واحدة)، وكان كتابه يهابون أن يكلّموه في ذلك، فقال لي يوماً: أتدرى لم عمل الفراء كتاب الباء؟ قلت لا. قال: لعبد الله أبي، بأمر طاهر جدي. قلت: إنه قد عمل له كتاباً منها كتاب المذكر والمؤنث، قال: وما فيه؟ مثل ألف درهم واحد، ولا يجوز واحدة، فتبته وأقلع»^(٣).

أن هاتين الروايتين تكشفان مدى قدرة ثعلب في سبر أغوار العربية، ومدى دور الكوفيين في تطوير النحو في المرحلة الثالثة من خلال أبي العباس الذي صنف المؤلفات النفسية، وفي طليعتها (المصون في النحو) و(اختلاف التحويين) بالإضافة إلى (التصغير) و(الوقف والابداء) و(مجالس ثعلب)، و(معاني القرآن) و(القراءات)، و(الفصيح) و(معاني الشعر) و(الهجاء)^(٤) وبذلك أصبح إمام التحو وعلمه المفرد في عصره.

وكانت مجالسه، وما نسبته إليه كتب النحو تشير إلى أن آراءه تطابق آراء النزاء والكسائي من حيث ما نهجه هذان العالمان للمدرسة الكوفية من أصول، وما دار على لسانيهما من اصطلاحات، ومن حيث ما أخذنا به أنفسهما من السماع عن العرب والتسع في روايته، واستمداد الآراء التحوية منه.

فهو ينقل رأي الفراء في مسألة (إلاً مَنْ ظَلِيمٌ) من قوله تعالى: ﴿لَا يُحِبُّ اللَّهُ الْجَهَرُ بِالشَّوْءِ مِنَ الْقَوْلِ إِلَّا مَنْ ظَلِيمٌ﴾ [النساء: ١٤٨]، قائلاً: «الفراء يقول: لا يحب

(١) هو العباس بن الفرج الرياشي. أبو الفضل كانت اللغة غالبة عليه. وهو تابع للمدرسة البصرية - توفي سنة ٢٥٧ هـ. أبو بكر الزبيدي: طبقات التحويين ص ٩٧.

(٢) السيوطي: بغية الوعاة، ج ١، ص ٣٩٦.

(٣) المصدر نفسه، ص ٣٩٦.

(٤) المصدر نفسه، ص ٣٩٧.

الله أن ينجزه بالسوء من القول إلا المظلوم.. ورذوه عليه. والقول فيه أن (إلا من) استثناء مثل: «فَإِنَّهُمْ عَدُوٌّ لِي إِلَّا رَبُّ الْعَالَمِينَ»^(١)... أي: فإنه ليس عذراً لي»^(٢).

وفي موضع ثان أشار إلى أنه يقال: يا أيها الرجل، وبما أتيها المرأة، وبما أتيها المرأة، وبما أتيتها المرأة، يذكر ويؤثر مع المؤنث، ولا يوجه يا أيها إلا في الواحدة، فإنها تذكر وتؤثر. ثم يتطرق إلىرأي سيبويه والخليل وأصحابهما متوصلاً بالنهاية إلى رأي الفراء ليحتاج به، فيقول: «وقال سيبويه والخليل وأصحابهما: يا تنبية، وهو تنبية، وأي المنادي، والرجل وما جاء بعد يا أيها وصف لازم.. وهذا لا يصح. قال الفراء: الدليل على أنه ليس كما قالوا أنه يقال: يا أيها، أقبل، فيسقط الثاني الذي زعم أنه وصف لازم، ولكن قال الفراء: يا أيها، اكتفوا بالرجل من (ذا)، وبهذا من الرجل، ويجمعون بينهما فيقولون: يا أيها الرجل»^(٣). كذلك ينقلرأي لكساني والفراء في مسألة (سعيداً) في البيت الآتي:

أتىتَ بعْدَ اللَّهِ فِي الْقِدْمَةِ مُؤْتَقًا فَأَلَا سَعِيدًا ذَا الْخِيَانَةِ وَالْغَنْدِرِ

قال: «كان الكساني يخفض وينصب، وكان الفراء يكره الخفض... ومن نصب سعيداً أضمر فعلاً مثل: أتيت، أي: فاتِّ ذا. والنصب لا يختلف فيه، والاختلاف في الخفض... ومن خَفَضَ شَبَهَ (أَلَا) بالثُّسْقِ. والفراء يستحبه، ويجزيه»^(٤).

وتعد عنده المصطلحات الكوفية كالتقريب، مثلاً، الذي هو اسم الإشارة فيقول: «هذا تكون مثلاً، وتكون تقريراً. فإذا كانت مثلاً قلت: هذا زيد، هذا الشخص شخص زيد، وإن شئت قلت: هذا الشخص كزيد، وإذا قلت هذا كزيد قائماً فهو حال، كأنك قلت: هذا زيد قائماً. ولتكن قد قربته. وتكون تشبيهاً في: كزيد هذا منطلق، وكزيد قائم، وهذا يجري مجرى الخبر»^(٥) وكان يصطلاح على تسمية النفي باسم الجحد حين سُئل عن الفرق بين (كيلا) و(كيمما) فقال: «إذا كانت لامع (كيم) فهي جحد، فإذا كانت مع (ما) فهي صلة»^(٦). كذلك أكثر في مجالسه من تسمية اسم الفاعل بالفعل الدائم فيقول: «إذا أردت أن تحول الماضي إلى

(١) سورة الشعراء، الآية ٧٧.

(٢) ثعلب: مجالس ثعلب، القسم الأول، ج ١، ص ١٣.

(٣) المصدر نفسه: القسم الأول، ج ١، ص ٤٢..

(٤) المصدر نفسه: القسم الأول، ج ٢، ص ٦٠.

(٥) ثعلب: مجالس ثعلب، القسم الأول، ج ١، ص ٤٣.

(٦) ثعلب: المجالس، القسم الأول، ج ٤، ص ١٥١.

الدائم، فأعمله بالذى قيل، فإنه الأصل»^(١) وقال في قوله تعالى: «يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَيُؤْمِنُ لِلْمُؤْمِنِينَ» [التوبه: ٦١] قال: يصدق المؤمنين: وقال: «اللام تدخل لأنه بُني الماضي والمستقبل على الدائم»^(٢).

وكان يسمى الكسر والجز خفضاً كما في قوله: «وَأَمَّا (دِمْنَةٌ لِمْ تَكُلُّمُ)، خفضاً، فإن القوافي إذا حرّكت في الجزم تحركت إلى الخفض؛ لأنَّ الخفض آخر الجزم»^(٣). وعلى الرغم من تمثيل ثعلب الواسع للنحو الكوفي، ومع روايته الضخمة للغة وشوارد صيغها وألفاظها، فإنه كان يعتمد كثيراً على إماميه الكسائي والفراء في استخدام المصطلحات التي جرت على لسانيهما من دون تعلييل ما ينقله أو يضعه من آراء في أغلب الأحيان، حتى قيل إنه كان يقول: «قال الفراء وقال الكسائي، فإذا سُئلَ عن الحجّة والحقيقة لم يأتِ بشيء»^(٤) أمّا حجته في بعض ما يقوله فكانت السمع؛ إذ هو البرهان الناصع، والحجّة القاطعة على القاعدة النحوية. ولم يعتمد على الحديث النبوى في النحو واللغة لأسباب قد أشرنا إليها سابقاً لكنه استشهد بالقراءات مفضلاً الأقوى من الإعراب.

إذا كان تأثيره بأراء الكسائي والفراء إلَّا حَدَّ بعيد من خلال استشهاده بما يستشهدان به، فليس معنى ذلك أنه لم يكن له آراء مبتكرة خاصة به وحده. فقد كان يجتهد في بعض الأحيان. وعلى سبيل المثال لم يكن ثعلب يأخذ برأي الفراء في أنَّ المضارع ينصب بعد واء المعية وفاء السبيبة وأُنَّ التي يُعنى حتى أو (إلى) على الصرف وإنما ينصب هذا الفعل لما يداخل هذه الحروف من معنى الشرط. ومن ابتكاره إضافته على أخوات (قاد) فِعْلَيْ (نشَّبَ) و(قام)، ذاهباً إلى أنَّ عسى حرف وليس فعل^(٥). وفضلاً عن ذلك فقد أيد البصريين في بعض آرائهم، فكان يذهب مذهبهم في أنَّ (إذن) يجوز إلغاها، ورفع المضارع بعدها، مع اجتماع الشروط الموجبة للنصب^(٦). وبعد هذا العرض لنشاط ثعلب الكوفي يمكننا القول إنَّ النحو قد بلغ حَدَّ الاكتمال من خلال اجتهادات هذا العالم، ومن خلال استقصائه الدقيق لكل ما جاء به إماماه (الكسائي والفراء)، وكل ما أنشأه من أشعار دافعاً عنهما أمام البصريين يقوم على الاحتكام إلى السمع والرواية والإحاطة

(١) المصدر نفسه، ج ٣، ص ٩٧.

(٢) المصدر نفسه، القسم الثاني، ج ٩، ص ٤٤٧.

(٣) القبطي: إباه الرواة على أبناء النّحّاة، ج ١، ص ١٤٤.

(٤) السيرطي: همع الهرام، ج ١، ص ١٢٨. ابن هشام: المعني، ج ١، ص ١٥١.

(٥) ابن هشام، المعني، ج ١، ص ٢٩٣ وما بعدها.

(٦) المصدر نفسه ج ٢، ص ٧.

بالشاذ والنادر من اللغة وتصارييفها على ألسنة العرب. وفي المرحلة الثالثة، لم يبرز من الكوفيين ممَّن عمل في ميدان النحو، ونهض به نهوض ثعلب، بل كانت لهم آراء لغوية عُدِّت أمتداداً لمباحثه وأرائه في اللغة. نذكر منهم أبو موسى الحامض، محمد بن سليمان الذي قال عنه أبو بكر الزبيدي: «كان بارعاً في اللغة والنحو على مذهب الكوفيين، وكان في اللغة أربع»^(١)، ونذكر أيضاً محمد بن الزاحد بن أبي هاشم أبو عمر الراهد، غلام ثعلب، وقد غلبت عليه اللغة فألفَ فيها الكثير منها: (شرح الفصيح)، (فائد الفصيح)، (تفسير أسماء الشعراء) (فائدة الجمهرة) و(فائدة العين)^(٢). يضاف إلى هذين الصاحبين محمد بن الحسين بن يعقوب بن الحسن بن سليمان الملقب بابن مقصَّم، وكان أحفظ الناس لنحو الكوفيين، وعييه أنه قرأ بحروف تخالف الإجماع. وكانت آراؤه امتداداً لآراء الكوفيين في اللغة والنحو. من تصانيفه: الأنوار في تفسير القرآن، المدخل إلى علم الشعر، الاحتجاج في القراءات، المقصور والممدود، والمذكر والمؤثر^(٣).

وكان أبو بكر ابن الأنباري محمد بن القاسم أنه أصحاب ثعلب، فبرع في اللغة ووضع عدة دواوين أبرزها ديوان الأعشى، وديوان النابغة، وديوان زهير، وشرح المفضليات، والاضداد^(٤). أمّا في النحو فكان له الفضل الكبير في تدعيم النحو الكوفي بالعلل المنطقية دعماً لم يتع لاستاذه ثعلب. وحظي بقدرة فائقة على التعليل والبرهنة والإدلة بالحجج البيئية. ومن الأدلة على ذلك تعليمه لاشتقاق المصدر من الفعل حين يقول: «الدليل على أنَّ المصادر بعد الأفعال وأنَّها مأخوذة منها، أنَّ المصادر تكون توكيداً للأفعال كقولك: ضرب زيد ضرباً وخرج خروجاً... ولا خلاف في أنَّ المصادر هنا توكيداً للأفعال؛ والتوكيد تابع، للمؤكَّد ثانٍ بعده والمؤكَّد سابق له؛ فدلُّ ذلك على أنَّ المصدر تابع للفعل، مأخوذ منه، وأنَّ الفعل هو الأصل الذي أخذ منه»^(٥).

بالإضافة إلى ذلك فقد ابتكر آراء، منها ذهابه إلى أنَّ (بين) الظرفية قد تقع شرطية إذا جاءت في أول الكلام نحو: بينما أنصفتني ظلمتني^(٦) ولم تكن مصنفاته

(١) أبو بكر الزبيدي: طبقات النحوين واللغويين، ص ١٥٢. توفي أبو موسى سنة ٣٠٥ هـ.

(٢) السيوطي: بقية الوعاة، ج ١، ص ١٦٤ - ١٦٦. توفي أبو عمر سنة ٣٤٥ هـ.

(٣) المصدر نفسه، ج ١، ص ٨٩. توفي ابن مقصَّم سنة ٣٥٤ هـ.

(٤) المصدر نفسه، ج ١، ص ٢١٣ - ٢١٤.

(٥) الزجاجي: الإيضاح في علل النحو، ص ٦٠.

(٦) السيوطي: همع الهرامع، ج ١، ص ٢١١.

النحوية أقل أهمية من المصطلفات اللغوية؛ فقد أملى كتباً كثيرة، منها المذكور والمؤثر، المقصور والممدود، الواضح في النحو، اللامات والهاءات^(١).

و قبل أن ننتهي من عرض تطور النحو في المرحلة الثالثة، لا بد لنا من التطرق إلى المناظرات بين البصريين والكوفيين في تلك المرحلة، للدلالة على مدى تعمق الكوفيين والبصريين في مسائل النحو، وبالتالي للكشف عن أن تلك المناظرات كانت دليلاً قاطعاً على أن النحو قد بلغ مرحلة النضج والإكمال.

أثر المناظرات في تطور النحو في المرحلة الثالثة:

إذا كانت نشاطات^(٢) علماء البصرة والكوفة، الآنفة الذكر، تمثل جانباً مهمّاً من جوانب النضج والإكمال، في المرحلة الثالثة، فإنَّ المناظرات وال المجالس التي كانت تعقد بين هؤلاء العلماء، تمثل أيضاً مظهراً بارزاً من مظاهر النضج، لعلم النحو، في تلك المرحلة؛ إذ كانت تدفع علماء الفريقين إلى عمق التفكير، ودقة البحث والقدرة على الاستنباط، والمهارة في التحليل والتعليق والبرهنة. بحجج منطقية ثبتت وجهة النظر، وتدعيم الرأي؛ ما يمكنهم من تأصيل النحو وتفریعه تفريعاً متشابكاً، والارتقاء به إلى مستوى النضج والإكمال. ولا شك في أن تلك المناظرات وال المجالس كانت تمثل حلبة رحبة للتنافس والتباھي، وتشكل دافعاً لإظهار البراعة والقدرة على سبر أغوار النحو، وصولاً إلى نيل حظوظ الأماء والخلفاء الذين كانوا يكافئون الفائز على مسرح تلك الحلبة، فيغدقون عليه بألوف الدنانير وأفخر العطايا والهبات.

ونذكر من هذه المناظرات وال المجالس تلك التي عقدها الواثق^(٣) بين المازني البصري وابن السكريت الكوفي حيث طلب الخليفة من المازني أن يسأل ابن السكري عن وزن (نكتل) من سورة يوسف^(٤). فقال له: ما وزن نكتل من الفعل؟ فقال ابن السكري: (نفعل). فقال الواثق: غلطت؛ ثم طلب الخليفة من المازني أن يشرح لمعرفة الوزن الصحيح. فقال: (نكتل) تقديره (نفتل) أي: (نكتيل)،

(١) السيوطي: بغية الوعاة، ج ١، ص ٢١٤.

(٢) من هذه النشاطات: جعل الصرف مستقلّاً عن النحو، الاجتهادات والأراء الطريفة للعلماء، والاختلافات بين آراء عالمين من مدرسة واحدة حول مسائل نحوية وصرفية.

(٣) خليفة عباسي.

(٤) وردت كلمة (نكتل) في سورة يوسف، الآية ٦٣ التي جاء فيها قوله تعالى: «فَارْسِلْ مَعَنَا أَخَاكَ نَكْتَلَ، إِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ».

فانقلبت الياء لفتحة ما قبلها، فصار لفظها (نكتال)، وأسكنت اللام للجزم، لأنه جواب الأمر فحذفت الألف لالتقاء الساكنين. فقال الواثق: «هذا الجواب، لا جوابك يا يعقوب»^(١). وبحضره الواثق أيضاً اجتمع المازني مع جماعة من نحوبي الكوفة، فقال له الواثق: يا مازني، هات مسألة، قال^(٢): ما تقولون في قول الله، تبارك وتعالى، «وَمَا كَانَ أَمْكَنْ بِغَيْرِهِ»^(٣)? لم لم يقل بغيره، وهي صفة لمؤنت؟ فأجاب الكوفيون بجوابات غير مقنعة، وغير مرضية. فطلب الواثق من المازني شرحها وتفسيرها فقال: «لو كان (بغني) على تقدير(فعيل) بمعنى فاعلة للحقتها الهاء^(٤) مثل (كريمة وظريفة)؛ وإنما تحذف الهاء إذا كانت في معنى مفعولة في نحو امرأة قتيل، وكف خضيب. و(بغني) ها هنا ليس (بفعيل)؛ إلئما هو (فعول) لا تلحقه الهاء في وصف التأنيث نحو امرأة شكور، وبشر شطرون إذا كانت بعيدة الرشاء^(٥). وتقدير (بغني) (بغوني)، قلبت الواو ياء، ثم أدمغت الواو في الياء، فصارت ياء ثقيلة نحو سيد ومتة»^(٦) وقد استحسن الخليفة جواب المازني.

وفي مجلس ضمّ محمد بن عبد الله بن طاهر^(٧) وأحمد بن يحيى ثعلب والمبرد، طرح ابن طاهر سؤالاً على ثعلب قائلاً: «ما تقول في بيت امرئ القيس:

لها مشتبهان خططانا كما أكب على ساعديه الشمير؟

قال: فقلت: الغريب أنه يقال: (خططا) بظا، إذا كان صلباً مكتنزاً، ووصف فرساً. قوله: كما أكب على ساعديه (النمر) أي: في صلابة ساعدي النمر إذا اعتمد على يده. والمعنى الطريقة الممتدّة عن يمين الصليب وشماله. وما فيه من العربية أنه (خطتنا). فلما تحركت النساء أعاد الألف من أجل الحركة والفتحة. قال: وأقبل بوجهه على محمد بن يزيد فقال له: أعز الله الأمير: أراد في (خططانا)

(١) أبو بكر الزبيدي: طبقات النحوين، ص ٨٩. السيوطي: الأشباه والنظائر، ج ٣، ص ١٠٧.

(٢) الذي قال هو المازني.

(٣) سورة مريم، الآية ٢٨.

(٤) أي: الثناء المربوطة في (بغني)، وغيرها.

(٥) جمع أرشية وتعني الجبل والخط. المعجب بطرس البستاني مادة (رش و).

(٦) أبو بكر الزبيدي: طبقات النحوين، ص ٨٩. السيوطي: الأشباه والنظائر، ج ٣، ص ٣٢١.

(٧) هو محمد بن عبد الله طاهر الخزاعي. كان أميراً حازماً من الشجعان، من بيت مجد ورياسة. كان والياً على بغداد أيام المتوكل. وكان مالفاً لأهل العلم والأدب. توفي سنة ٢٥٣ هـ. الزركلي: الأعلام، ج ٦، ص ٢٢٢.

الاضافة، أضاف (خطواتنا) إلى (كما) فقلت له: ما قال هذا أحد، فقال محمد بن يزيد: بل سيبويه بقوله. فقلت لمحمد بن عبد الله: لا والله، ما قاله هذا سيبويه قط؟ وهذا كتابه فيحضر. ثم أقبلت على محمد بن عبد الله، فقلت له: وما حاجتنا إلى كتاب سيبويه؟ أيقال: مررت بالزیندین ظريفی عمرو، فيضاف نعت الشيء إلى غيره؟! فقال محمد بن عبد الله، بصحة طبعه: لا والله، ما يقال هذا: ونظر إلى محمد بن يزيد، فامسك ولم يقل شيئاً^(١)

وفي مجلس آخر التقى فيه ثعلب مع جماعة، فسألهم عن البيتين الآتيين:
 وصاحب أبداً حلوا مزاً بحاجة القوم خفيفاً نزاً
 إذا تغشاه الكرا ابن خزا كأن قطنات تحته وقزاً
 أوفر شأْ محسنةً أوزاً

ثم قال: يا أصحاب المعاني، ما تقولون؟ فخضنا فيه، فلم نصل إلى شيئاً، فضحك، ثم قال: أخبرني ابن الأعرابي أنَّ اسم ابنته كان مزة، فناداهما، ورخمهما؛ كأنه قال: وصاحب أبداً حلوا من القول: يا مزة، ثم حذف الهاء للتترخيم. يقال: رجل نز إذا كان خفيفاً في الحاجة، ومثله خفيف وخفاف، وندب بمعنى واحد. وقوله: ابن خزا يريد ابنته يصفها بقلة النوم، وخففة الرأس. وقوله مملوءة أوزاً، يزيد ريش أوز، فحذف المضاد، وأقام المضاد إليه مقامه، كما يقال: صلى المسجد، أي: أهل المسجد^(٢).

وصرح ثعلب في مجلس من مجالسه بأنَّ (إلا) تأتي بمعنى (غير) حين قال: «ما يعجبني أن يقوم إلا زيد، ... مثل هذا كثير في القرآن، وهو بمعنى غير ...» والعرب تقول: ما كان إلا قائمًا، تذهب به مذهب غير^(٣).

أليست تلك المناظرات وال المجالس كانت السبيل إلى تطوير النحو تطويراً وصل إلى درجة الاتكمال بسبب التنافس بين الفريقين؟ أو ليست هي التي حررت العلماء إلى التنقيب والبحث في القضايا والمسائل النحوية؟ أو ليست هي التي أثاحت لعلماء البصرة والковفة بسرير أغوار النحو والصرف وإدراك أسرار العربية؟.

أجل إنها ألت بظلالتها على النحو فتوجته باتج النضج والاتكمال، ومهدت

(١) أبو بكر الزبيدي: طبقات التحويين، ص ١٤٥. السيوطي: الأشباء والنظائر، ج ٣، ص ٩٣.

(٢) السيوطي: الأشباء والنظائر، ج ٣، ص ١١٠.

(٣) ثعلب: المجالس، القسم الأول؛ ج ٤، ص ١٦٦.

السبيل أمام علماء المرحلة الرابعة ليوازنوا بين علماء البصرة والكوفة، ويرجحوا ما كان صواباً بعد تسجيل ما لكلٍ فريق وما عليه، مع محاولتهم إلى ابتكار آراء جديدة.

المرحلة الرابعة:

تمهيد:

إذا كانت المرحلة الثالثة^(١) تُعد من أهم المراحل التي نهض فيها النحو، فبلغ مستوى راقياً جدأ، بسبب العصبية بين البصرة والكوفة، وبسبب المناظرات والمجالس التي كانت تعقد بين علماء البلدين، فإن المرحلة الرابعة^(٢) كانت على جانب من الأهمية أيضاً. فقد اتّخذ علماء تلك المرحلة نهجاً جديداً في دراساتهم ومصنفاتهم النحوية، يقوم على الترجيح بين آراء البصريين والkovيين. فبعد أن تلاقي الفريقان في بغداد، ظهرت طائفة من العلماء غير متّصبة لأيٍّ منهما، فوازنَت بين المذهبين (البصري وال Kovي)، ثم اختارت الأرجح من كُل مذهب. وقد تبيّن ل أصحاب هذا النهج أنَّ البصريين يصيّبون في مسائل، ويخطئون في أخرى. كذلك وجدت هذا الأمر عند الكوفيين. فما تراه تلك الطائفة صواباً عند البصريين، ترجحه وتنتخبه، وما تجده عند الكوفيين صحيحاً تختاره وتفضله. وهكذا مضت تلك الطائفة تسجِّل لكل فريق ما له وما عليه من دون تحيز. وقد نبه عملها هذا معاصرتها، في بغداد، إلى استقرار ما صَحَّ من القوانين النحوية، من دون تعصُّب لأيٍّ فريق. وقد أدى هذا الخلط بين المذهبين إلى استخلاص مذهب مقبول عندهم^(٣) هو المذهب البغدادي. وتتجدر الإشارة إلى أنَّ عملية الترجيح والاختيار كان قد سبقها ظهور جيل من النحاة الذين تتلمذوا للمربد البصري وتعلّم الكوفي، يحمل آراء الفريقين، ويعني بالتعقّل في مصنفات أصحابهما والنفوذ من خلال ذلك إلى ابتكار كثير من الآراء الجديدة؛ فمنذ بداية ظهور هذا الجيل بدأ يغلب على بعضه الميل إلى الآراء البصرية. وبذلك أصبح للبغداديين اتجاهان: الأول مبكر، ويتزعّز فيه أصحابه إلى آراء الكوفيين، وأثثروا من الاحتجاج لهم، مع فتح الأبواب لكثير من آراء البصريين، فضلاً عن فتح باب الاجتهاد لبعض الآراء الجديدة. وقد مثل هذا الإتجاه عدد من البغداديين، أبرزهم ابن كيسان، وابن

(١) انتهت هذه المرحلة أواخر القرن الثالث الهجري.

(٢) بدأت هذه المرحلة أواخر القرن الثالث الهجري، وانتهت متتصف القرن الرابع الهجري.

(٣) الطنطاوي، الشيخ محمد: نشأة النحو، ص ١٨٤ - ١٨٥.

شقيق، وابن الخطاط. أما الاتجاه الثاني، فقد نزع أصحابه إلى آراء البصريين. ويمكن القول إنَّ هذا الاتجاه، هو الذي ساد، لا، عند البغداديين وحدهم، بل فيسائر الأوساط والبيئات التي عنيت بدراسة النحو. وأبرز من مثل هذا الاتجاه الزجاجي وأبو علي الفارسي وابن جُي.

أصحاب الاتجاه الأول ودورهم النحوي: مال أصحاب هذا الاتجاه إلى الكوفيين وانتصروا لآرائهم، في البداية. وكان على رأسهم محمد بن أحمد بن كيسان الذي حفظ المذهبين البصري والكوفي في النحو؛ لأنَّه أخذ من المبرد وتعلَّب، ثم أصبح أنجح منهما^(١)، فوضع تصانيف أظهرت براعته، منها: (المهذب في النحو) و(اللامات)، (البرهان)، (معاني القرآن)، (مصالح الكتاب)، (ما أختلف فيه البصريون والكوفيون) و(علل النحو)^(٢). ولعلَّ هذا المصنف الأخير هو الذي عُني فيه ابن كيسان بوضع احتجاجاته لآراء الكوفيين^(٣).

وبعد أبو الحسن ابن كيسان أول أئمة المدرسة البغدادية، وكان يمتاز بعد غوصه، وغرائب قياساته. وعلى سبيل المثال. فقد سُئل عن قراءة قوله تعالى: «إِنْ هَذَا لَسَاجِرَانِ»^(٤)، ما وجهاً من الإعراب؟ فأجاب بجعلها مبنية أي: تلزم الألف في حالي النصب والجر. وعن علة بناها قال: لأنَّ المفرد منها مبني وهو هذا، وكذلك الجمع (هؤلاء) ف يجعلها مبنية مثلها^(٥) وقد فتح أبو الحسن الأبواب لكثير من آراء البصريين فوافقوهم في ذهابهم إلى أنَّ الناصب للمضارع بعد لام التعليل أنضمَّرة نحو: درست لأنجح. وإنما قد روا بعدها (أن) لأنها قد تظاهر في مثل قولنا: درست لأنَّ نجح. وقد أجاز نصب المضارع بعد لام التعليل بـ(كـيـ) المحذفة لمجيئها أيضاً في مثل قولنا: درست لـكـيـ نـجـحـ؛ علمـاـ بأـنـ الكـوـفـيـنـ يـرـوـنـ أنـ لـامـ التـعـلـيلـ تـنـصـبـ المـضـارـعـ بـنـفـسـهـاـ منـ دونـ حـاجـةـ إـلـىـ تـقـدـيرـ (ـأـنـ)ـ كـمـاـ يـذـهـبـ الـبـصـرـيـوـنـ^(٦).

لكنَّ الدور المهم الذي أذاه ابن كيسان هو مزج النحوين (البصري والكوفي)

(١) أبو بكر الزيدي: طبقات النحوين، ص ١٥٢ - ١٥٣، السيوطي، بغية الوعاء، ج ١، ص ١٨.

(٢) السيوطي: بغية الوعاء، ج ١، ص ١٩.

(٣) ضيف، شوقي: المدارس النحوية، ص ١٤٨.

(٤) سورة طه، الآية ٦٣.

(٥) ضيف، شوقي: المدارس النحوية، ص ٢٤٩.

(٦) السيوطي: معجم الهرامع، ج ٢، ص ١٦.

أخذًا من كل واحد منهما ما غالب على ظنه صحته، واطرد له قياسه، وترك التعصب لأحد الفريقين على الآخر. كما وافق البصريين في بعض آرائهم، كذلك وافق الكوفيين في بعض مذاهبهم، كجواز تقديم خبر (ما زال) عليها، نحو قولنا: جالساً ما زال خالد. خلافاً للبصريين الذين ينكرون مثل هذا التعبير^(١).

ولم يقف دور ابن كيسان عند الأخذ عن علماء البصرة والكوفة، بل كانت له آراء اجتهادية كثيرة انفرد بها، نذكر منها على سبيل المثال تجويزه تذكير الفعل مع المبتدأ المؤنث المجازي نحو: الشمس طلع بدلاً من (طلع) مستشهاداً بقول الشعراء في مثل: ولا أرض أبقى إيقالها. ومن ذلك تجويزه تذكير الفعل مع الفاعل المؤنث الحقيقي من دون فاصل مستنداً إلى قول الشعراء: (تمنى ابنتاي أن يعيش أبوهما)، ومستشهاداً أيضاً بما حكاه سيبويه عن بعض العرب في تعبيرهم: (قال فلانة)^(٢).

وهكذا تتجلّى براعة أبي الحسن في تطوير النحو في المرحلة الرابعة من خلال عköفه على آراء البصريين والkovيين، دارساً فاحصاً مستقرتاً، مختاراً لنفسه ما يراه مناسباً عند الفريقين، ومضيفاً إليه ما ابتكره من آراء جديدة.

أصحاب الاتجاه الثاني:

ومن أصحاب هذا الاتجاه عبد الرحمن بن إسحاق الزجاجي أبو القاسم الذي نزل ببغداد ليلازم الزجاج حتى برع في النحو، ثم قصد دمشق حيث أملى وحدث عن الزجاج ونقطويه وابن دريد وأبي بكر الأنباري والأخفش الصغير. وبفضل مهارته استطاع أن يصنف المؤلفات القيمة وأهمها (*الجمل*), (*الإيضاح الكافي*) و(*اللامات*)^(٣).

ويترکز دور الزجاجي على استقصاء علل النحو البصري والkovي في كتابه (*الإيضاح*) مشيراً إلى دور ابن الأنباري وابن كيسان وابن شقير وابن الخياط في تحرير العلل التحوية، إذ كان أكثر علم الكوفيين، عند الكسائي وثعلب، علاً. فلما جاء، أكثر من ذكر احتجاجات الكوفيين بالفاظ البصريين^(٤).

ويمكّتنا القول إنَّ الزجاجي كان يحيط بأراء أهل البصرة والkovفة ووجهه

(١) ابن يعيش: *شرح المفصل*, ج ٧ ص ١١٣.

(٢) السيوطي: *معجم الهوامع*, ج ٢، ص ١٧١.

(٣) السيوطي: *بغية الوعاء*, ج ٢، ص ٧٧.

(٤) الزجاجي: *الإيضاح*, ص ٨٠.

اعتلالها واحتجاجاتها، فاحياناً يتبع البصريين، وحياناً آخر يتبع الكوفيين في مثل ذهابه مذهبهم في أنّ (كأنّ) للتشبيه، إذا كان خبرها أسماءً جامداً نحو: كأنّ عمراً قادماً، لكنّ البصريين يرون أنها للتشبيه دائمًا، ولا معنى لها سواه^(١).

وممّن نزع إلى المدرسة البصرية من البغداديين الحسن بن أحمد بن عبد الغفار الإمام أبو علي الفارسي المشهور، وأوحد زمانه في علم العربية لذكائه وإكبابه على التعلم، فأخذ عن الزجاج وابن السراج. وقال عنه أحد تلامذته: «إنه أعلم من الميرد»^(٢). وقد استقدمه عضد الدولة البوهي ليأخذ عنه هو وبعض أسرته^(٣) وتوقفت العلاقات بينهما، فحظي أبو علي بصحبة هذا الملك. وكان يوجه له الدعاء قائلاً: «فخار الله للملك في عزيمته، وأنجح قصده في نهضته، وجعل العافية رداءه، والظفر تجاهه، والملائكة أنصاره»^(٤)، فيجيئه عضد الدولة بقوله. «بارك الله فيك؛ فإني واثق بطاعتك، وأتيقن صفاء طوبتك»^(٥). وبذلك تقدم أبو علي عند عضد الدولة للبراعة التي أظهرها له ولجماعة من طلابه كابن جني وغيره. وكان من نتائج تلك البراعة تصنيفه عدداً كبيراً من التصانيف النفيسة كالإيضاح في النحو، والتكلمة في التصريف. وروي أنه، لما عمل الإيضاح استقرره، فقال له عضد الدولة: ما زدت على ما أعرف شيئاً، وإنما يصلح هذا للصبيان. وسرعان ما مضى أبو علي ليصنف التكميلة^(٦).

كذلك صتف (الحجّة)، (التذكرة)، (أبيات الإعراب)، (تعليق على كتاب سيبويه)، (المسائل المحلية)، (البغدادية)، و (المقصور والممدود) وما يهمنا هو دوره ونشاطه في الميدان النحوي في المرحلة الرابعة حيث كان يمثل أبرز البغداديين الذين خلطوا بين آراء المدرستين: البصرية والكوفية. وقد ترکَز دوره على انتخاب ما يراه أولى بالإتباع من آراء البصريين والكوفيين، وإن غالب عليه

(١) السيوطي: همع الهرامع، ج ١، ص ١٣٣.

(٢) السيوطي: بغية الوعاة، ج ١، ص ٤٩٦.

(٣) هو فناخسرو الملقب بعُضُدِ الدُّولَةِ ابنُ الْحَسَنِ، رَكْنُ الدُّولَةِ ابْنُ بُوْيِهِ الدِّيلِمِيِّ، أَبُو شَجَاعٍ أَحَدُ الْمُتَغَلِّبِينَ عَلَىِ الْمُلْكِ فِي عَهْدِ الدُّولَةِ الْعَبَاسِيَّةِ بِالْعَرَاقِ. تَوَلَّ مُلْكَ فَارِسَ ثُمَّ مُلْكَ الْمَرْصَلِ وِبِلَادِ الْجَزِيرَةِ. وَهُوَ أَوْلَى مَنْ لَقِبَ فِيِ الْإِسْلَامِ (شَاهِنْشَاهِ). وَلَدَ سَنَةَ ٣٢٤ هـ وَتَوَفَّى سَنَةَ ٣٧٢ هـ. الزركلي: الأعلام، ج ٥، ص ١٥٦.

(٤) السيوطي: بغية الوعاة، ج ١، ص ٤٩٧.

(٥) المصدر نفسه ج ١، ص ٤٩٧.

(٦) السيوطي: بغية الوعاة، ج ١، ص ٤٩٦.

الميل إلى المذهب البصري؛ لأن المذهب الذي حُرِّرت أصوله وفروعه وعلله، قبل أي مذهب آخر. والمعلوم أنه كان ينتصر تارة للبصريين، وتارة للكوفيين مع نزعة قوية فيه إلى الأخذ بالمذهب البصري؛ وليس أدل على ما نقول من تصريح لأبي حيان^(١) في تأكيد هذا الميل للبصريين بقوله: «أبو علي أشد تفرداً بالكتاب^(٢)، وأشد إكباباً عليه، وأبعد من كل ما عده من علم الكوفيين»^(٣):

ومن آرائه النحوية التي انتصر فيها للكوفيين ذهابه إلى أن (إن) النافية تعمل عمل ليس لما رواه الكوفيون عن أهل العالية من قولهم: «إن أحد خيراً من أحد إلا بالعافية»^(٤) كذلك وافتهم أبو علي على أن الباء الجازة قد تأتي بمعنى التبعيض^(٥) كما في قوله تعالى: «عيناً يشرب بها عباد الله»^(٦).

كذلك اختار من آراء البصريين مجىء (لا) النافية زائدة^(٧) كما في قوله تعالى: «وَمَا يُشَرِّكُنَّمَّا إِذَا جَاءَتْ لَا يُؤْمِنُونَ»^(٨). وكان يتابع الخليل وسيبوه في أن (أن) قد تأتي كالزائدة مستشهدًا بقول الشاعر:

كأنني حين أمسى لا تكلمني ذو بغية يشتهي ما ليس موجوداً
أي: «أنا كذلك»^(٩)

ومنها يقرر بغدادية أبي علي الفارسي، بالإضافة إلى ما ذكرناه، اجتهاده وابتکاره آراء لم يُسبق إليها، منها أنه كان يرى أن أدوات النداء ليست حروفًا وإنما هي اسماء أفعال^(١٠)، وأن المنادي مشبه بالمحفور به^(١١)، خلا فالسيبوه

(١) هو علي بن محمد بن العباس أبو حيان التوحيدى. كان متخصصاً في جميع العلوم من النحو واللغة والشعر والأدب والفقه والكلام. صفت الرقة على ابن جنى في شعر المتبنى، والامتاع والمؤانسة. توفي سنة ٣٨٠ هـ وبقية الوعاة للسيوطى، ج ٢، ص ١٩٠.

(٢) أي: كتاب سيبوه.

(٣) أبو حيان: الامتاع والمؤانسة لجنة التأليف، ج ١، ص ١٣١.

(٤) السيوطى: همع الهرامع، ج ١، ص ١٢٤.

(٥) ابن هشام: المغني، المكتبة المصرية، ج ١، ص ١٠٥.

(٦) سورة الإنسان، الآية ٦.

(٧) ابن هشام: المغني، المكتبة المصرية، ج ١ ص ٢٤٨.

(٨) سورة الأنعام، الآية ١٠٩.

(٩) ابن جنى: الخصائص: ج ٣، ص ١٧٠.

(١٠) ابن عيسى: شرح المفصل، عالم الكتب، ج ٨، ص ١٢١.

(١١) السيوطى: همع الهرامع، ج ١، ص ١٧.

الذى دهب إلى أن ناصب المبنادى فعل محدود تقديره (أنادي)، وخلافاً للمبرد الذى زعم أن الناصب هو حرف النداء. كذلك. خالف أبو علي سيبويه فى مسألة (حتى). فذهب إلى أنها تنصب المضارع وترفعه سواء كان موجباً أو غير موجب. في حين يذهب سيبويه إلى نصبها المضارع إذا وليت فعلاً غير موجب نحو: ما سرت حتى أدخل المدينة^(١). وكان أبو علي يدعم آراءه بالأدلة التي اصطلاح عليها النحاة البصريون والковيون وهي السماع والقياس والتعليل؛ ما يدل ذلك على أن النحو، في المرحلة الرابعة، قد نضج واحتل عرش الاتكمال.

أما ابن جنى^(٢) فهو من مشاهير البغداديين وأخذتهم بالنحو والتصريف. وقيل إن علمه بالتصريف أقوى وأكمل من علمه بالنحو؛ وسبب ذلك أنه كان يقرأ النحو بجامع الموصل، فمرّ به أبو علي الفارسي، فسأله عن مسألة في التصريف، فقصّر فيها فقال له أبو علي: «زَيَّبْتُ قَبْلَ أَنْ تَحْصِرَمْ»^(٣). ومن ذاك الحين لزمه مدة أربعين سنة مكتباً على النحو والتصريف وقيل: «لِيُسْ لَاحدٌ مِنْ أَنْمَةِ الْأَدْبِ فِي فَتْحِ الْمَقْفَلَاتِ، وَشَرْحِ الْمَشْكُلَاتِ مَا لَهُ سِيمَا فِي الْإِعْرَابِ»^(٤).

وقد ساعدته ذكاؤه وقعوده للدرس والبحث والدراسة على وضع تصانيف تمثل أنفس المصادر النحوية والصرفية. أبرزها (الخصائص)، (سر صناعة الإعراب)، (شرح تصريف المازني)، (شرح المقصور والممدود)، (الللمع في النحو)، (المذكر والمؤثر) (محاسن العربية) و(المحتسب في إعراب الشواذ) و (اعراب ما استصعب من الحمامة)^(٥).

ولابن جنى دور كبير في تأصيل المذهب البغدادي من خلال ملاحظاته واستقصاءاته للأمثلة اللغوية، وحسه الدقيق بأبنية اللغة وتصارييفها التي تظهر في كتابه المشهور (الخصائص) مشخصة مجسمة تمام التجسيم، وقد استطاع أن يضع للتصريف أصولاً على المذهب الذي سبقه إليه علماء الكلام والفقه في وضع أصولهم، وهي أصول يصدق منها جانب كبير على النحو ومسائله وقضايا العامة، كالإعراب والبناء وعلمه^(٦).

(١) المصدر نفسه ج ٢، ص ١٢١.

(٢) هو عثمان بن جنى أبو الفتح التعوي. السيوطي: بنية الوعاء جزء ٢، ص ١٣٢.

(٣) السيوطي: بنية الوعاء، ج ٢، ص ١٣٢.

(٤) المصدر نفسه، ج ٢، ص ١٣٢.

(٥) الزركلي، خير الدين: الأعلام، ٤، ص ٢٠٤.

(٦) زاجع (الخصائص) بأجزاءه الثلاثة.

وقد نزع إلى البصريين كأستاذه أبي علي الفارسي والزجاجي . وقد عمّت هذه التزعة وسادت منذ النصف الثاني من القرن الرابع الهجري . وكان ابن جنی وأستاذه أبو علي من أبرز الذين عملوا على شيوخ تلك التزعة . وكأستاذه، مضى أبو الفتح إلى الإختيار من المذهبين البصري والكوفي مع ميل بارز إلى البصريين ؛ ومن ذلك أنه يأخذ برأيهم من أنَّ المضارع منصوب بعد (حتى) بأنَّ مضمرة وجوباً^(١)، وكذلك بعد (أو) وفاء السببية وواو المعية^(٢)

ويقابل ذلك أخذه برأي الكوفيين في أمور كثيرة، ومنها أنَّ (أز) تأتي للاضراب مطلقاً^(٣). كذلك وافق الكسائي وأبا علي الفارسي على أنَّ (خلا) المسبوق بـ (ما) تكون فعلاً حتماً، ويجوز الجر بها على أنَّ (ما) زائدة^(٤)

أما آراؤه الاجتهادية المختلفة، فكانت بارزة، وانفرد بها مخالفًا لأستاذه أبا علي الفارسي والبصريين والكوفيين . ومنها تحويله تقديم المفعول معه على المعمول قبله نحو: جاءَ وثيَّابَ البحْرِ الصيفُ^(٥). وذهب أيضًا إلى أنَّ (لا) العاملة عمل ليس تعمل أيضًا في المعارف خلافاً للجمهور الذاهب إلى أنها لا تعمل إلا في النكرات . وقد دعم ابن جنی رأيه بقول الشاعر:

وحَلَّتْ سُوَادَ الْقَلْبِ لَا أَنَا بَاغِيَا سُواهَا وَلَا عَنْ حَبْهَا مُتَرَاخِيَا^(٦)

وقد تمسك ابن جنی بالقياس وعني به عناية شديدة كما في قوله: «إنَّ مسألة واحدة من القياس أثبل وأبه من كتاب لغة عند عيون الناس»^(٧). كذلك كان يستند كلامه بقراءات القرآن والسماع عن العرب، ويشهد أحياناً بالحديث النبوى الشريف للاستثناء فقط، لا لاستبطاط القواعد^(٨). وبعد هذا فإنَّ السؤال الذي يطرح نفسه هو: هل هناك أدلة على بلوغ النحو تلك المرتبة الراقية من خلال ترجيح مذهب على مذهب آخر، أو ابتكار مذهب جديدة، بما قام به البغداديون، ولا سيما أبي علي الفارسي وتلميذه ابن جنی اللذين مهدَا الطريق أمام من جاء بعدهما من

(١) ابن جنی: *الخصائص*، ج ٣ ص ٢٦٠.

(٢) المصدر نفسه، ج ١، ص ٢٦٣.

(٣) ابن هشام: *المغني*، المكتبة العصرية، ج ١ ص ٦٤.

(٤) المصدر نفسه، ج ١، ص ١٣٣.

(٥) ابن جنی: *الخصائص*، ج ٢، ص ٢٨٣.

(٦) ابن هشام: *المغني* المكتبة العصرية، ج ١، ص ٢٤٠.

(٧) ابن جنی: *الخصائص*، ج ٢، ص ٨٨.

(٨) المصدر نفسه، ج ١، ص ٣٢.

البغداديين الذين نزعوا نزعة بصرية قوية، وكانت لهم ابتكارات وأراء فردية.

أبرز من تأثر بأبي علي الفارسي وابن جني: لعل أبرز من تأثر باتجاه أبي علي وتلميذه ابن جني، وزعوا نزعة بصرية قوية، فضلاً عن اختيارهم من آراء البصريين والkovفيين، واستنباطهم آراء جديدة جعل النحو، في مرحلة الترجيح، يرقى إلى أسمى المراتب، هم ابن الشجري هبة الله بن علي بن محمد^(١) الذي كان أو حد زمانه، وفرز أوانه، في علم العربية ومعرفة اللغة، وأشعار العرب وأيامها. وبفضل تضلعه بال نحو، فقد أقرأه سبعين سنة، وصنف (الأماكن)، وما اتفق لفظه واختلف معناه) و(شرح اللمع لابن جني)، (شرح التصريف الملوكي)^(٢).

ويبدو ميله إلى البصريين واضحاً في أعماله. ومن آرائه التي خالف فيها جمهور النحاة تجويه مجيء (لو) حرفاً يجزم الفعل المضارع مستنداً إلى قول الشاعر:

لَوْ يَشَاءُ طَارَ بِهِ ذُو مِنْيَةٍ لَاحِقُ الْأَطَالِ نَهَدْ ذُو حُضْلَنْ
وَرَدْ كَلَامَه باعتبار أن ذلك ضرورة شعرية^(٣).

ثم جاء بعده تلميذه عبد الرحمن بن محمد، أبو البركات الأنباري^(٤) الذي برع، وحصل طرفاً من الخلاف الذي أودعه في كتابه المشهور (الأنصاف في مسائل الخلاف بين البصريين والkovفيين)، و (الإعراب في جدل الأعراب) وغير ذلك مما دل على شهرته: ومن يطلع على (الأنصاف) يلاحظ فيه النزعة البصرية القوية، حيث يقف مع البصريين في أغلب المسائل التي عرضها، ولا يرجع من المسائل الكوفية أكثر من سبع مسائل وهي: العاشرة والثانية عشرة، والسادسة والعشرون، والسبعين، والسابعة والتسعون، والواحدة والستة بعد المائة^(٥).

ومن البغداديين الذين خلفوا أبا علي وابن جني ونهجوا نهجهما عبد الله بن الحسين أبو البقاء العكّاري الضرير^(٦) الذي تفقه بالقاضي أبي يعلى الفراء، ولازمه حتى برع في المذهب والخلاف والأصول، وقرأ العربية على ابن الخشاب حتى

(١) توفي سنة ٥٤٢ هـ.

(٢) السيوطي: بغية الوعاة ج ٢، ص ٣٢٤.

(٣) ابن هشام: المغني، المكتبة العصرية، ج ١، ص ٢٧١.

(٤) توفي سنة ٥٧٧ هـ.

(٥) راجع الإنصاف في مسائل الخلاف لأبي البركات الأنباري.

(٦) توفي سنة ٦١٦ هـ.

حاز قصب السبق، وصار فيها من الرؤساء المتقدمين، فتتمكن من تصنيف (إعراب القرآن)، (إعراب الشواذ) (شرح كتاب سيبويه)، و (اللباب في علل البناء والإعراب). وكان بغدادياً ينتمي إلى مدرسة أبي على الفارسي التي كانت تمثل مبدأ الإختيار والانتخاب من آراء النحاة السابقين. غالباً كان يتبع أبو علي الفارسي في كثير من آرائه كذهباته إلى أن (لَوْ) تأتي مصدرية غير عاملة في مثل قوله تعالى: «يَوْمَ أَخْدُمُ لَنِّي يُعَمَّرُ أَلْفَ سَنَةٍ»^(١).

ونذكر أيضاً من البغداديين المتأخرین يعيش بن علي بن يعيش الحلبي^(٢) الذي كان من كبار أئمة العربية، والمشهود لهم بالمهارة بالنحو والتصریف. وأشهر مؤلفاته (شرح المفصل) و (شرح تصریف ابن جنی)^(٣). وقد انتصر للبصریین في ذهباته إلى أنَّ عامل المبتدأ هو الابداء لا الخبر كما زعم الكوفیون^(٤).

ويضاف رأي الكوفیین القائل: إنَّ (أَنْ) وأخواتها لا تعمل الرفع في الخبر؛ وإنما هو مرفوع على حاله قبل دخول أَنْ وما عمل عملها^(٥). وكان يستحسن بعض آراء الكوفیین، كاستحسانه تخريجهم لقراءة قوله تعالى: «إِنَّ هَذَانِ لَسَجَرَنِ» [طه: ٦٣] بذهباتهم إلى أنَّ (إنْ) نافية واللام بمعنى (إلا)، والتقدیر عندهم: ما هذان إلا ساحران. وهذا تقدیر حسن برأيه^(٦).

ومن البغداديين المتأخرین الذين انتصروا للبصریین محمود بن عمر الزمخشري الذي كان واسع العلم، وغاية في الذكاء وجودة القریحة؛ وليس أدلًّ على ذلك من تفتقنه في كل علم، وقدرته على وضع التصانیف المتبوعة كالکشاف في التفسیر، والفاتق في غریب الحديث، والمفصل في النحو، وصمیم العربية والأنموذج في النحو، وشرح أبيات الكتاب، والأحادیث النحویة وغير ذلك^(٧).

وقد حذى أبي على الفارسي وابن جنی في تأپیده معظم نحاة البصرة. فعلى سبيل المثال تابع رأي سيبويه في أنَّ الأسم يتنlo (إنْ) الشرطیة يكون فاعلاً^(٨)

(١) سورة البقرة، الآية ٩٦.

(٢) توفي سنة ٦٤٣ هـ.

(٣) السیوطی: بغية الرعاء، ج ٢ ص ٣٥١ - ٣٥٢.

(٤) ابن يعيش: شرح المفصل، ج ١، ص ٨٤.

(٥) المصدر نفسه: ج ١، ص ١٠٢.

(٦) ابن يعيش: شرح المفصل، ج ٣، ص ٢٩.

(٧) السیوطی: بغية الرعاء ج ٢، ص ٢٧٩ - ٢٨٠.

(٨) ابن يعيش: شرح المفصل، ج ١، ص ٨٢.

ل فعل محدوف يفسره ما بعده^(١) كقوله تعالى: «وَإِنْ أَحَدٌ مِّنَ الْمُشْرِكِينَ أَسْتَجِبَكَ فَأَجِرْهُ» [التوبه: ٦] ومن ذلك أخذه برأي الأخفش الذي ذهب إلى أنَّ الكاف تأتي في النثر كثيراً مرادفة (مثل) فتعرب إعرابها، وتخرج عن حرفيتها. وبذلك في مثل: (زيد كالأسد)، خبر زيد مضاد للأسد^(٢).

ويقابل ذلك اختياره بعض آراء الكوفيين، كاختياره مجيء (أن) وما بعدها فاعل لفعل محدوف تقديره (ثبت)؛ لأنَّ لو تتطلب أن يتلوها فعل، في مثل: لو أنك جئت^(٣).

وفضلاً عن ذلك انتخب الزمخشري بعض الآراء البغدادية كاختياره مجيء الباء زائدة مع ما الحجازية العاملة، ولا تزداد مع (ما) التمييمية المهملة نحو: ما محمد بقائم^(٤). وله آراء انفرد بها منها ذهابه إلى أنَّ (لن) تفيد تأكيد النفي نحو: لن أتراجع.

إنَّ هذه الإختيارات من المذاهب البصرية والковية والبغدادية إضافةً إلى الآراء الانفرادية، التي طرحتها الزمخشري وغيرها تظهر بجلاءً أنَّ مرحلة الترجيح مرحلة مهمة في تاريخ تطور النحو؛ فهي، إن دلت على شيء، فإنما تدل على مدى قدرة البغداديين على اختيار المناسب من الآراء، ففضلاً عن اجتهاداتهم وابتكراتهم الطريفة. وبعد هذا العرض لتطور النحو العربي في المراحل الأربع، يمكننا القول إنَّ هذه المراحل تعدُّ من أهم الظروف التي ازدهرت فيها دراسة النحو، وتطورت مهاجته بشكل عام.

أما المراحل التي تلتها، فقد شهدت ازدهاراً في دراسة علم العربية حين نهج الاندلسيون نهج البغداديين، وأكثروا من التعليمات والاجتهادات^(٥): ولكن التطور الملحوظ الذي لفت الأنظار هو إيلاء حروف المعاني الدراسة الكافية الواجبة من حيث المنهجية واستقصاء أدق المعانى وأبعدها في إطار دراسات خاصة بالحروف فقط أجرتها كل من أحمد بن عبد النور المالقي في الأندلس، وحسن بن قاسم المرادي في المغرب.

(١) ابن يعيش: شرح المفصل، ج ٨، ص ٤٢.

(٢) المصدر نفسه، ج ٨، ص ٤٢.

(٣) ضيف، شوقي: المدارس التحوية، ص ٢٨٥.

(٤) ابن يعيش: شرح المفصل، ج ١، ص ١٠٨.

(٥) ضيف، شوقي: المدارس التحوية، ص ٢٨٨ - ٣٢٦.

كذلك نشطت الدراسات النحوية العامة، في الأوقات التي تلت المراحل الأربع في مصر والشام على أيدي النابهين من النحاة الذين غلب عليهم اتجاه المذهب البغدادي، مع نفاذهم إلى آراء وابتكارات جديدة^(١). وقد واكب هذا النشاط في الأبواب النحوية العامة نشاط آخر في جوانب نحوية خاصة منها حروف المعاني التي تطورت دراستها منهجياً ورصدأ للمعاني واستقصاء للأحكام والعلل على يد البارزين من النحاة كابن هشام الأنباري.

وبعد أن تطرقنا إلى تطور البحث في النحو بشكل عام، وبعد أن عرفنا مشاهير النحاة ودورهم في تطوير هذا العلم، في المراحل الأربع التي بلغ النحو خلا لها أوجه، يبقى أن نسلط الضوء على أشهر المدارس التي ظهرت في خلالها، ذلك لأن تطور هذا العلم، في هذه المراحل، قد واكب ظهور مدارس نحوية لها مناهجها واتجاهاتها؛ فما هي هذه المدارس؟

(١) سالم، عبد العال: المدرسة النحوية في مصر والشام، ص ٤٥ وما بعدها ضيف، شوقي. المدارس النحوية، ص ٣٢٧ وما بعدها.

أشهر المدارس النحوية
من مسائل الخلاف بين البصريين والковفيين

أشهر المدارس النحوية

تمهيد :

كان لتطور النحو في المراحل التي تدرج في خلالها تأثير بعيد في ظهور مدارس نحوية لها مذاهبها المختلفة واتجاهاتها المتبااعدة، بسبب الاختلاف السياسي بين البصريين والковفيين. فكانت الكوفة مقراً لعلي عليه السلام وأتباعه، في حين كانت البصرة موئلاً لعائشة (رضي الله عنها) التي أعلنت الحرب ثاراً لعشماي (رضي الله عنه)؛ فحدثت معركة الجمل. ثم أعقبها اختلاف عنيف في سياسة البلدين. وتعمق هذا الاختلاف، وتفاقم على مز الأيام. وسرعان ما اشتد بعد أن ناصر الأمويون أهل البصرة، وناهضوا أهل الكوفة، إلى أن قامت دولة بني العباس، فعطفت على الكوفيين؛ فعَزَّ جانبهم بعد ذلٍ، وأفل نجم البصريين بعد تألق.

وقد أدى هذا الاختلاف بين البلدين إلى التياري والمفاخرة، وجز السكان فيما إلى تطاول بعضهم على بعض، مُؤلداً في نفوسهم إيثار المخالفة في المسائل العلمية على الموافقة عليها. ثم قويت المنافسة بين البصرة والكوفة في المسائل النحوية، بعد أن عملت عوامل الخلاف عملها، ووضعت الحدود الفاصلة حائلة دون الوفاق بينهما.

إذاء هذا الاختلاف بين البلدين، ظهرت أشهر المدارس النحوية، تستهلها بالمدرسة البصرية.

المدرسة البصرية :

قبل الحديث عن طبيعة هذه المدرسة، لا بد لنا من ذكر المؤثرات التي وجهت مسار تلك المدرسة. فما هي هذه المؤثرات؟ أهم تلك المؤثرات ما يأتي :

- لجوء القبائل إلى البصرة: لقد تأسست المدرسة البصرية في مدينة البصرة التي لجأت إليها القبائل العربية العريقة بفضاحتها كفيس وتميم، فصار أغلب سكانها

من القبائل التي كانت تقيم شرقى الجزيرة العربية، وبخاصة منطقة الخليج^(١).
ومن جراء ذلك اكتسب أبناء البصرة لغةً فصيحةً سليمةً.

٢ - سوق مزبد: إنشئت هذه السوق في الجهة الغربية من مدينة البصرة.
وكان تمثل مركزاً مهماً يلتقي فيه العرب لعقد التوادي الأدبية والمجامع الثقافية،
وتتأليف حلقات الإنشاد والمفاخرة والمنافرة والمعاظمة. وكانت هذه السوق على
غرار سوق (عَكَاظ) في الجاهلية يؤمها العلماء والأدباء والأشراف، وينزلون فيها
للمذاكرة والرواية، والوقوف على مليح الأخبار. كذلك كان اللغويون يقابلون
أهلها، ويذونون ما يسمعون. إلى ذلك كان النحويون يسمعون، فيها ما يصح
قواعدهم ويؤيد مذاهبهم.

٣ - موقع البصرة المهم: تقع البصرة على طرق البادية بالقرب من بودي
نجد والبحرين، وتند إلها الأعراب من قلب الجزيرة العربية لتعليم أبنائها اللغة
الفصحي وأشعارها وأخبار أهلها. لذلك لم تلوت لغة أهلها بعامية الأمصار
المفتوحة، فظلت لغتهم سليمة، لاختلاطهم بالعرب الأقحاح الموثوق
بفصاحتهم.

٤ - عراقة البصرة بالفصاحة: إمتازت البصرة بعراقتها بالفصاحة، باعتبار أنَّ
أهلها أصفي لغة وأوثق صلة بالبادية؛ لأنهم كانوا يقصدون أهلها لمقابلتهم،
والأخذ عنهم. وبذلك استمدوا اللغة من ينابيعها الصافية، بعيدة عن الشوائب
وعوامل الوهن والضعف كما يزعم عبد العزيز عتيق.
تلك هي أهم المؤثرات في مذهب المدرسة البصرية والآن ننتقل إلى منهجية
البحث.

منهجية البحث في الدراسة التحوية عند البصريين: من أهم ما يقوم
عليه المذهب البصري هو القياس^(٢) الذي يمسك علماء البصرة به، وفضلوه،
وآمنوا بسلطانه وجروزاً عليه، ورأوا أنَّ كل ما خرج عليه شاذ وغير مقبول؛ فاللغة
التي تعتمد على القياس^(٣) يأخذ بها البصريون، والتي تخالفه لا يعترفون بها.
وهدفهم من ذلك تنظيم اللغة العربية وضبطها ولو بإهان بعضها.

(١) العلي، صالح: التنظيمات الاجتماعية والاقتصادية في البصرة، ص. ٩.

(٢) القياس هو عبارة عن رد الشيء إلى نظيره. ويقال هو المشهور والكثير الاستعمال عند
العرب. وما كان كثير الاستعمال وشائعاً عند العرب ينبغي أن يكون قياسياً.

(٣) قبل: القياس هو الاجتهاد بالرأي.

وقد بدأ القياس في زمن مبكر على يد نحاة البصرة القدامي، أمثال أبي إسحاق الحضري، ثم نمت بذوره على يد سيبويه الذي أكثر منه وتوسع فيه إلى أن بلغ كاملاً نضجه وتمام قوته، وأصبح أساساً من أسس الدراسة النحوية التي تبني عليها القواعد.

وقد بلغ الأمر بالبصريين في الاعتداد بالقياس إلى أن يفترضوا افتراضات نظرية ويعطوها أحکاماً خاصة.

المصادر اللغوية للقياس البصري: لقد استمد البصريون اللغة التي قاسوا عليها من المصادر الآتية.

أـ القبائل المشهود لها بالفصاحة: أخذ البصريون اللغة العربية من القبائل التي ابتعدت عن المؤثرات الخارجية وعاشت في عزلة تامة عن شعوبسائر الأمصار، فكملت لها لغتها، وصيّنت من كل تحريف، وظلت الفصاحة من أبرز سماتها. وقد انكلّ البصريون على تلك القبائل في الغريب وفي الإعراب. ومن هذه القبائل قيس وأسد، وهذيل وبعض كنانة وبعض الطائين.

بـ .. أشعار العرب الجاهليين والمخضرمين: اعتمد البصريون في منهج دراستهم التحويية على أشعار العرب الجاهليين والمخضرمين. أما الشعراء المسلمين كجرير والفرزدق، فأكثر النحاة على عدم جواز الاستشهاد بشعرهم.

جـ - القرآن الكريم: لما كان القرآن الكريم كتاب الله المتنزل على الرسول ﷺ بلسان عربي، بالغاً قمة الرقة والكمال، فلا عجب أن يكون هذا الكتاب أصلاً من أصول الاستشهاد في اللغة والتحوّل. إذ إنه نزل بلغة قريش التي كانت أجود العرب انتقاءً للألفاظ وأسهّلها على اللسان عند النطق.

ومن مظاهر تمسك البصريين بالقياس استدلالهم بالشواهد الموثوق بصحتها الكثيرة النظائر؛ فبالغوا في التحرّي والتنتقيب عن الشواهد السليمة. وكانوا يزورون ما خالف القياس والقواعد تأويلاً يتفق وقواعدهم، أو يستنكرون له كثرة ما أندسَ من الرواية وذوي الأهواء في اللغة، أو يتلمسون الضرورة إذا كان في نظم. فإن اعتراض كل ذلك عليهم يضطرون إلى جعله جزئياً شاذًا يحفظ ولا يقاس عليه.

وفضلاً عن تمسكهم بالقياس فقد استبعد البصريون من منهجهم الاستشهاد بالقراءات إلا إذا كان هناك شعر يسندها، أو كلام عربي يؤيدها، أو قياس يدعمها. كذلك استبعدوا من منهجهم الاعتماد على الحديث الشريف في تعريف القواعد.

ملاحظات على المنهج البصري:

إنأخذ البصريين اللغة التي قاسوا عليها، من القبائل المؤثرة بفصاحتها، وعدم أخذهم عن سواها لشك في فصاحتها نظراً لاختلاط أبنائها بالأعاجم أو، شعوب البلاد المجاورة، لأمر يطرح هذا السؤال. لمَ لم ينزل القرآن بلغة قريش القبائل بعيدة عن المؤثرات الخارجية؟ والمعلوم أنَّ هذا القرآن نزل بلغة قريش التي لم تكن معزولة عن العالم الخارجي. فموطن تلك القبيلة مكة التي كانت قبلة العرب في الجاهلية والإسلام يفدون إليها من كل حدب وصوب. كذلك كانت قريش، بحكم عملها التجاري، لا تزال تقطع بلاد العرب برحلة الشتاء والصيف إلى اليمن جنوباً والشام شمالاً، ومع هذا لم يسمع أحد يقول: إنَّ لغة قريش ضعيفة لا يحتاج بها، ولو قيل ذلك لرفض الاحتجاج بالقرآن الكريم لأنَّه نزل بلغة قريش.

ويرد الفراء على بعض علماء الشعر ورواة الأخبار التاريخية عن عرب العادية الذين لا يريدون التماس إعجاز القرآن في قوالبه اللغوية، بل يرون كمال الفصاحة في لغة عرب البدائية، ويرد هذا العالم على هؤلاء بقوله: إنَّ القرآن الكريم نزل بأفضل اللغات، وأنَّ لغته أفضح أساليب العربية على الاطلاق. ومن هنا نستطيع القول إنَّ البصريين بادعائهم حصر اللغة في قبائل معينة لا يمكنهم من وضع اليد على ما في اللغة من تركيب وعلى كل ما فيها من أساليب وغريب، وعلى كل ما فيها من لهجات؛ لأنَّ اللغة أوسع من أن تحصى في عدد من النصوص أو الأساليب.

ومما يلاحظ على البصريين بإعادتهم القراءات عن مجال الدراسة التحوية؛ فكان هذا الإبعاد خطأ لا يغفر؛ إذ حرموا النحو من مصدر كبير كان من الممكن أن تبني في ضوئه القواعد وتحرر الأصول. وقد أخذوا ببعض القراءات التي لم تكن وحدتها في الميدان وقد انتقد السيوطي البصريين قائلاً: كان قوم من التجاه المتقدمين يعيرون، على عاصم وحمزة وابن عامر قراءات بعيدة في العربية، وينسبونهم إلى اللحن، وهم مخطئون في ذلك؛ فإنَّ قراءاتهم ثابتة بالأسانيد المتواترة الصحيحة التي لا مطعن فيها، وثبتت ذلك دليلاً على جوازه في العربية^(١).

كذلك اخطأ البصريون في منهجهم حين حرموا اللغة العربية موزداً لغوياً كبيراً وهو الحديث النبوى الشريف.

(١) السيوطي: الاقتراح في أصول النحو، ص ١٧.

يضاف إلى أخطائهم اعتدادهم بالمنطق والعقل، وتجنبهم الرواية والنقل. ففي كثير من المسائل النحوية حكموا أقيساتهم وما يتبعها من تعليلات، علمًا بأن اللغة ظاهرة اجتماعية وكائن حتى ينمو ويترعرع في إطار بيته، ويتفاعل معها ويتأثر بها، ولا يستقل عنها؛ لذلك يمكن القول إن إخضاع اللغة أي: هذا الكائن لمقاييس تعرّفه عن الانطلاق والنمو والحركة، ظلم وتجن.

وسلك المتأخرُون سبيلاً البصريين في ذلك المضمار؛ ما عند النحو وصفب مسائله بعد جعلِه النحو منطقاً وعقولاً قبل أن يكون روایة ونقلًا.

ونجد كثيراً من المسائل النحوية يمكن أن تقوم على القرآن وحده لوضوح الاشتتِهاد بها، إذ لا يحتاج إلى جدل أو مناقشة. لكنَّ البصريين حكموا أقيساتهم إزاءها. وكان الأجرد بهم أن يحطموا هذه المقاييس ليأخذوا بالقرآن الكريم الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه.

ومن الأدلة على ما نقول تقديم معمول اسم الفعل عليه. فقد ذهب الكوفيون إلى أنَّ (عليك) و (دونك)، يجوز تقديم معمولاتهما عليهما نحو: زيداً عليك، ويكراً دونك. واحتاج الكوفيون على ذلك بالنقل من القرآن الكريم حيث قال سبحانه وتعالى: «كتاب الله عليك»^(١). فورود ذلك في القرآن دل على جواز تقديمِه عندَهم^(٢). لكنَّ البصريين لم يجيزوا تقديم معمول اسم الفعل عليه، حتى ولو ورد مثل هذا التقديم في القرآن الكريم؛ وذلك لأنَّ القياس، عندَهم، يأتي ذلك. والدليل على عدم جواز هذا التقديم أنَّ اسم الفعل فرع على الفعل في العمل، لأنَّ إثما عمله لقيامه مقامه؛ لذلك يجب ألا يتصرف تصرفه، وينبغي ألا يجوز تقديم معمولاته عليه. ولو تصرف تصرفه وجاز تقديم معمولاته عليه لأدى ذلك إلى التسوية بين الفرع والأصل، وذلك لا يجوز؛ لأنَّ الفروع تنحط عن درجات الأصول. ولا يعني ما نقوله أننا ننكر القياس؛ فالقياس له مكانة في اللغة، وأنَّ يعني هذه اللغة ويشيرها إذا استعمل استعمالاً صحيحاً وسلاماً، ولكن بجانب القياس يجدر بنا أن نحترم السمعاء؛ لأنَّ اللغة روایة ونقل، لا منطق ولا عقل.

ومن البراهين على أهمية السمعاء ماجاء في المنصف لابن جني: «إنَّ الغرض فيما ندونه من هذه الدوائر، ونتبعه من هذه القوانين إنما هو ليلحق من ليس من

(١) وكتاب مفعول مطلق أي كتب الله تعالى. ، كتاب الله عليكم. أو الزموا كتاب الله.

(٢) لأنَّ القرآن الكريم أصل القياس، فهو يقاس عليه. وكتاب الله لا يخضع لأقيس البصريين ولا لأقيس الكوفيين.

أهل اللغة بأهلها، ويستوي من ليس بفصيح، ومن هو فصيح. فإذا ورد السماع بشيء لم يبق غرض مطلوب، وعُدلَ عن القياس إلى السماع»^(١).

كذلك ورد في شرح الرضي على الكافية على لسان المبرد قوله: «فَعَالٌ فِي الْأَمْرِ مِنَ الْثَّلَاثَى مَسْمُوعٌ. فَلَا يَقُولُ: قَوْامٌ وَقَعْدَادٌ فِي قَمٍ وَاقْعَدٌ؛ إِذْ لَيْسَ لِأَحَدٍ أَنْ يَبْتَدِعَ صِيفَةً لَمْ يَقُلُّهَا الْعَرَبُ، وَلَيْسَ لَنَا فِي أَبْنِيَةِ الْمُبَالَغَةِ أَنْ نَقِيسَ؛ فَلَا نَقُولُ فِي شَاكِرٍ وَغَافِرٍ شَكِيرٍ وَغَافِرٍ»^(٢).

من هذا الذي تقدم يظهر أنَّ البصريين لم يكونوا ملمين بكل ما قاله العرب؛ لذلك ليس من المنطق بأن تحكم العقل والمنطق في مجموعة من الاساليب.

وعلى الرغم من اعتماد البصريين على القياس اعتماداً شبه مطلق؛ فإنهم مالوا إلى السماع وأخذوا به بعض الأحيان. قال السيوطي: «واحتاج البصريون بالسمع. حكى: تميمٌ أنا، ومشتهٌ من يشتهٌ»^(٣) (أبغضك) وشناً بالحق أقرَّ به.

أشهر علماء المدرسة البصرية: من علماء هذه المدرسة المشاهير الخليل بن أحمد الفراهيدي الذي أقام صرح النحو وتصريفه. والعالم الشهير سيبويه الذي يعد كتابه قرآن النحو. ومنهم قطُرُب صاحب كتاب العلل بالنحو وكتاب الاشتقاد بالتصريف. وأبو عمر الجزمي صاحب المختصر في النحو وكتاب الابنية. ومنهم أبو عثمان المازني صاحب كتاب الالف واللام. والمبرد صاحب المقتضب ومعاني القرآن.

المدرسة الكوفية^(٤).

لقد أشرنا في المحاضرات السابقة إلى أنَّ الكوفيين تأخروا عن البصريين في مدارسة النحو مدة مائة سنة، لأنَّ صرافهم إلى رواية الأشعار والأخبار والأدب والنواادر، فضلاً عن رفضهم التلقى عن البصريين زبناً بأنفسهم عن الأخذ عنهم. ولكن الأمر تغير بعد أن ذاع صيت البصريين في البحث في النحو والسير به نحو التطور. فتنبأ الكوفيون لهذا الأمر؛ إذ عزَّ عليهم أن يكون لخصومهم مدرسة

(١) ابن جنی: المتنصف، ج ١، ص ٢٧٩.

(٢) الرضي: شرح شافية ابن الحاجب، ج ٢، ص ٧٢.

(٣) السيوطي: همع الهوامع، ج ١، ص ١٠٣.

(٤) أنشئت الكوفة من قبل الجيوش الإسلامية المشتركة في معركة القادسية وفتح المدائن في العراق. وكان معظم سكانها من أهل اليمن وشمال الجزيرة العربية، وهي تقسم عدداً كبيراً من أهل البيوتات العربية القديمة التي كان لها مركز مرموق في الجاهلية.

يتباهون بها عليهم، وخفوا أن يعابوا لتلقיהם النحو عنهم. فاستفزهم نشاط هؤلاء الخصوم المتعاظم في ميدان النحو، فحثوا أنفسهم لابراز فن يضارع الفن البصري، غيره منهم، وحققاً عليهم. ثم انطلقوا يشاركونهم بهذه الفن للظفر بشرفه، عامدين إلى تنظيم نحو على نمط يخالفون فيه البصريين، ويغيرونهم في مذهبهم.

منهج الكوفيين: ويقىع هذه الجهود المبذولة من الكوفيين نشأت مدربتهم بعد أن تطورت المدرسة البصرية، ووصلت إلى القمة في هذا التطور؛ ذلك لأن أقيمتها وأصولها وتعليلاتها استقرت ونضجت ونمّت وقويت. ويمكن القول: إنه لما ظهرت مدرسة الكوفة، كانت مدرسة البصرة ينبوعاً لها، يمدّها بال نحو والحياة. ومن هنا نستطيع القول إن المدرسة البصرية كانت سبلاً، لا بل منطلقاً رحاً جال فيه الكوفيون للظفر بعلم النحو. فأبو جعفر الرؤاسي شيخ الكوفيين، وكان استاذهم في النحو، أخذ من البصريين عندما كان مقيماً في البصرة، ثم ما لبث أن بنى في هذا العلم، وتوجه إلى الكوفة ليذيع فيها علم البصرة، فتتلمذ عليه كل من الكسائي والفراء اللذين أسبحا ذرّة ما بعد إمامي التحورين الكوفيين.

وبعد الرؤاسي أصبح الكسائي عميد مدرسة الكوفة، فخرج إلى البصرة ولقي علماءها كالخليل ويونس، ثم جرت بينه وبينهما مسائل أقرّ له فيها يonus.

ولما أخذ علماء الكوفة ييرزون شيئاً فشيئاً، أقبل طلاب العلم يتهافتون عليهم ليأخذوا عنهم النحو، ويتلقوا عليهم مسائله وأصوله. وبذلك تكون للكوفيين منهج خاص بهم، تحقق لهم بعد طول النظر، وكثرة الجدل. وكان هذا المنهج معايراً في بعض أسلوبياته للمنهج البصري، الأمر الذي أدى إلى الخلاف بين المدرستين وقد اشتد النزاع بين الطائفتين. وكان لكل مدرسة أنصار وأتباع. ومن أبرز سمات المنهج الكوفي ما يأتي:

إشهادهم بلهجات عرب الأرياف: استشهد الكوفيون بلغات سكان الأرياف لشتمهم بها، في حين رفض البصريون الاستشهاد بها لضعف فصاحتها. ومن قبائل الأرياف أهل اليمن الذين لا يوثق بفصاحتهم، في رأي البصريين، لاختلاطهم بسكان الحبشة والهند، والتجار الذين يفدون إليهم من مختلف الانحاء. كذلك عاب البصريون على الكوفيين أنهم يأخذون اللغة عن أكلة الشواريز^(١)، وباعة

(١) جمع شيراز، وهو اللبن الشخين.

الكوميغ^(١) ، في حين أنَّ البصريين يأخذونها عن حَرَشَةِ الضباب وأكْلَةِ البيرابع^(٢) .

٢ - قياسهم على القليل النادر: اعتمد الكوفيون على القياس على القليل النادر باعتبار أنَّ ما ورد من اللغة يعد قليلاً بالنسبة لما ضاع منها. مستندين إلى ما قاله أبو عمرو بن العلاء في هذا الأمر «ما انتهى إليكم مما قالته العرب إلا أقله، ولو جاءكم علم وافر وشعر كثير»^(٣) وقد أشاد الكسائي زعيم المدرسة الكوفية بالقياس فناظر به القاعدة بدون ورود لمطلق شاهد. ومن الأمثلة للقياس الكوفي ما يأتي :

أ - تجويزهم النصب بأنَّ مضمرة؛ وفي ذلك يقول الرضي: «وقد تنصب مضمرة شذوذًا... والكافيون يجوزون النصب في مثله قياساً نحو: تَسْمَعَ بالمعنىِ خيرٌ من أن تراه. فالبصريون لا يقررون بالنصب بأنَّ مضمرة. وإذا وقع مثل هذا النصب فيكون شاذًا، يحفظ ولا يجاري في الاستعمال.

ب - تجويزهم عطف المفرد بـ(لكن) بعده الإيجاب بنظير (بل) بعد نحو: جاءني زيد لكن عمرو، حملًا على بل وليس لهم شاهد. ويتسامح الكسائي بكل ذلك اتئمَّ بآفاساد النحو، ومن ذلك ما ورد في معجم الأدباء وهذا نصه: «وذلك أنَّ الكسائي كان يسمع الشاذ وشعر غير أهل الفصاحة والضرورات، فيجعل ذلك أصلًا، ويقيس عليه حتى أفسد النحو».

٣ - قياسهم قواعدهم على كل مسموع والاكتفاء بالشاهد الواحد ولو خالف الأصل المعروف المتفق عليه بين الفريقين.فهم لو سمعوا بيتاً واحداً فيه جواز شيءٍ مخالف للأصول جعلوه أصلًا وبيّروا عليه خلافاً للبصريين.

٤ - التساهل في التثبت من معرفة القائل. وربما استشهدوا بشرط بيت لا يعرف شطره الثاني، ولا يعلم قائله، كدليلهم على جواز دخول اللام في خبر (لكن) بقول المجهول.

..... ولكنني بحبها العميد

٥ - الاستشهاد بالقراءات: لم يكن الكوفيون رجال فلسفة، ولا دعاة منطق يحكمون المنطق في اللغة ويفرضون أقويته عليها كما يفعل البصريون. لذلك قبلوا

(١) جمع كافح، وهو نوع من الأدم.

(٢) حَرَشَة جمع حارش أي: صائد الضب حيوان جلده كجلد التمساح.

(٣) السيوطي: الاقتراح في أصول النحو، ص ١٠٠.

قراءات القرآن التي تتجاذب عن المنطق وأساليبه؛ لأنها تقوم وعلى الرواية والنقل وبينوا كثيراً من القواعد النحوية عليها.

٦ - الاستشهاد بالقرآن الكريم: لقد عالجنا أن الكوفيين يحتاجون بلغة عرب الارياف من دون حرج أو جل، وأنهم يأخذون عن كل العرب سواء كانوا من اليمن أو من قلب الجزيرة العربية، ويقبلون اللغة من كل القبائل ولا يفضلون لغة على لغة. وفي إطار القرآن الكريم كانوا يستدللون بأياته ويعتبرون بأساليبه أكثر من البصريين؛ وذلك لأنهم يؤمنون بأن القرآن الكريم جاء بلغات مختلفة فصيحة، فهو أحق بالقبول وأجدر بالأخذ حين تبني قاعدة أو يقرز حكم أو يصحح أسلوب.

قال ابن جنّي في المنصف: «إن القرآن قد جاء بلغات مختلفة»^(١). وبعد الكسائي المؤسس الأول للمذهب الكوفي، لا بل زعيم المدرسة الكوفية. كذلك ظهر الفراء كعامل بارز في المدرسة الكوفية، وقد ذاع صيته. وله مؤلفات مشهورة منها: (معانى القرآن). ومن العلماء الذين غلبت عليهم التزعة الكوفية أبو موسى العامض، وأبو بكر محمد بن القاسم الانباري.

وقد ظهر نحويون جمعوا بين، التزعتين البصرية والكوفية نذكر منهم ابن قتيبة الدينوري وابن كيسان والأخفش الصغير وابن الخطاط السمرقندى ونقطويه.

الملاحظات على منهج الكوين:

ومن الملاحظات التي سُجلت على الكوفيين اعتمادهم على شعر الأعراب والقبائل غير العربية بالعروبة. كأعراب الحليمات الذين أعتدَّ الكوفيون بكلامهم واستشهدوا به. وقيل إنهم من زعائف العرب الذين اختل لسانهم؛ ما أدى إلى ضعف مذهبهم والطعن به. ويرى أنَّه بسبب هؤلاء الأعراب فاز الكسائي على سيبويه في مُناظرته الزَّبُور؛ لأنَّ الكسائي اعتمد على لغاتهم واحتاج بكلامهم. وقد قال اليزيدي في الكسائي الآيات الآتية.

على لسان العرب الأول	كُنَّا نَقِيسُ النَّحْوَ فِيمَا مَضَى
على لُغَى أشياخ قُطْرُّ بَلْ	فَجَاءَ أَفْرَادٌ يَقِيسُونَهُ
يَرْقَبُونَ فِي النَّحْوِ إِلَى أَنْفَلَ	إِنَّ الْكِسَائِيَّ وَأَصْحَابَهُ

(١) ابن جنّي: المصطف، ج ٢، ص ١٧.

وظلَّ الكوفيون ينهجون نهج الكيسياني معولين، على شعر الأغراط الذين أختلطوا بالمتحضررين، فلأنَّ جفاهم. وكان ذلك سبباً في طعن البصريين بشواهد الكوفيين.

كذلك أخذ البصريون على الكوفيين قياس قواعدهم على كل مسحون من دون تدقير.

وممَّا أخذ عليهم أنهم اعتمدوا على القياس النظري عند انعدام الشاهد انعداماً كلياً. وقد اضطروا إزاء ذلك لأنَّ وضعوا قواعد كثيرة خالفوا فيها البصريين. وأبلغ من ذلك وضعوا، جرياً على سنتهم للشيء الواحد، متى ورد على صور متغيرة قواعد بقدر صوره، فكثر عندهم التجويف للصور المختلفة، كما قلَّ عندهم ما كثر عند البصريين من التأويل والشذوذ والاضطرار والاستكار.

هل أصاب الكوفيون في مسائل نحوية؟

على الرغم من المآخذ التي سجلت على المذهب الكوفي، وعلى الرغم من طعن البصريين بهذا المذهب في مجال القضايا النحوية، فقد كان للكوفيين مسائل أصابوا فيها وفازوا على البصريين. نذكر منها مسألة (عمل اسم المصدر عمل فعله) في قول الشاعر القطامي:

أَكْفَرَا بَعْدَ رِدِّ الْمُوتِ عَنِي وَبَعْدَ عَطَائِكَ الْمِنَةِ الرُّتَاعَةِ
فاسِمُ الْمُصْدَرِ (عَطَاءٌ) عَمِيلٌ عَمَلٌ فَعْلَهُ بِنْصَبِهِ (الْمِنَةُ) ^(١).

يضاف إلى ذلك مسألة أخرى هي: جواز العطف على الضمير المخوض بدون عود الخافض في السعة كما جاء في قوله تعالى: «وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي تَسَاءلُونَ بِهِ وَالْأَرْحَامُ» بجز الأرحام من دون أن يسبق بالباء الجارة باعتبار أنَّ هذا اللفظ معطوف. وفي ذلك أيدَ ابن مالك رأي الكوفيين بقوله:

وَعَوْدُ خَافِضٍ لَدِي عَطْفٍ عَلَى ضَمِيرٌ خَفِضٌ لَازْمًا قد جعل
وَلَيْسَ عَنِي لَازْمًا إذْ قَدْ أَتَى فِي النَّظَمِ وَالنُّثُرِ الصَّحِيفِ مُثْبِتاً

يضاف إلى ذلك مسائل كثيرة أصاب فيها الكوفيون، لا مجال لذكرها الآن، وحاول البصريون نقضها من دون فائدة؛ فقد تعسَّفوا غاية التعسف بما لا تقبله العدالة، ولا يستسيغه المنطق.

(١) ابن هشام: شرح شذور الذهب، ص ٤١٢.

موازنة بين المنهجين البصري والكوفي

بعد استعراضنا لكل المذهبين نجد أنَّ المنهج البصري مضطرب وغير متamasك، وأنَّ المذهب الكوفي لم يكن كاملاً مسبوطاً، وعلة المنهج البصري تكمن في حبس اللغة في قوقة المنطق الذي يعرق انطلاق هذه اللغة القابلة للتغير باستمرار بسبب الظروف الاجتماعية وغيرها.

فاللغة العربية لغة واسعة، تفرعت إلى لهجات كثيرة وتطورت هذه اللهجات بعَد تطور القبيلة وتغير ظروف المجتمع؛ فلكل قبيلة لهجة تلتزمها في كلامها، ومن الظلم الفاضح للغة حصرها في طائفة من النصوص أو في قبائل معينة من قبائل العرب. من هنا يمكن القول إنَّ البصريين أخطأوا في منهجهم، وكان عليهم أن يأخذوا من كل العرب باستثناء ما فسد من جراء اللحن أو تقيد بالدخليل؛ أمَّا منهج الكوفيين في مجال السماع فكان أسلم بكثير من منهج البصريين، فاحترام السماع، مهما كان قليلاً أمر مشروع، لأنَّ اللغة كانت حينئذ متطرفة، ومن التعسف الحد من انطلاقها وتطورها، وأن نكتسم أنفاسها بهذه القيود الثقيلة التي وضعها البصريون.

ويعبُّ على البصريين والكوفيين معاً التزامهم التعليل والتأنويل في مجال القرآن الكريم. وكان على كلاً الطرفين أن يتخذ القرآن الكريم موضع استشهاد في كل ما يصدر، والحق القول: هكذا قال القرآن؛ لأنَّ القرآن الكريم مصدر موثق، مصدر لم يأته الباطل من بين يديه ولا من خلفه، نزل بلغة قريش وغيرها من لغات العرب. وعلى الرغم من الاخطاء التي وقع فيها البصريون، فقد كان الآخذ بأرائهم أكثر منه بآراء الكوفيين في مجال الدراسات النحوية.

المدرسة البغدادية

كانت المرحلة الرابعة لتطور النحو العربي مرحلة الترجيح بين المذهبين: البصري، والكوفي على يد البغداديين الذين أسسوا مدرسة كان لها مذهبها الخاص، ونقوم على الخلط بين آراء الفريقين، واختيار ما يرونوه مناسباً منها، فضلاً عن الآراء والاجتهادات التي ابتكروها بأنفسهم.

وقد اتجهت هذه المدرسة اتجاهين: الأول يمثله ابن كيسان، وابن شقرير وابن الخطاط، الذين مالوا إلى آراء الكوفيين، وأكثروا من الاحتجاج بها، ثم فتحوا الأبواب لآراء البصريين وللإجتهاد لبعض الآراء الجديدة.

ويعدُّ ابن كيسان (٢٩٢ هـ) رئيس أئمة البغداديين. فقد مزج بين التحווين

البصري والكوفي، وأخذ عن كل منها ما يظنه صواباً، واطرد له قياساً. وقد وافق البصريين في ذهابهم، إلى أن الناصب للمضارع بعد لام التعليل، (أن) مضمرة مثل: جئت لأساعدك، وقدرُوا بعدها «أن»، لأنها قد تظهر في مثل: جئت لأن أساعدك. كما أنه أيد الكوفيين في كثير من آرائهم، كتجويفهم تقديم خبر «ما زال» عليها، نحو: قائماً ما زال حسن، في حين كان البصريون يخالفون ذلك.

وقد ابتكر لنفسه آراء جديدة منها: تجويفه تذكير الفعل مع المبتدأ المؤنث المجازى مثل: «الشمس طلع» لمجيء ذلك على لسان الشعراء في قولهم: ولا أرض أقبل أبقالها^(١). وتجويفه تذكير الفعل مع الفاعل المؤنث الحقيقي، بدون فاصل، على غرار قول بعض الشعراء: تمنى ابنتاي أن يعيش أبوهما. واستدل برأى سيبويه، الذي حكى عن بعض العرب قولهم: «قال فلانة».

ومن علماء هذه المدرسة، الزجاجي^(٢) (٣٣٧ هـ) الذي مال غالباً إلى البصريين، وأيد الكوفيين في مذهبهم، الرامي إلى أن «أن» تفيد التشبيه إذا كان خبراً اسماء جاماً نحو: «كان خالداً أسد»، والشك إذا كان هذا الخبر مشتقاً نحو «كان خالداً قادم» أي ظنت وتوهمت خالداً... وتفيد التحقيق كما هو وارد في قول الحارث المخزومي:

فأصبح بطن مكة مقشعرا
كأن الأرض ليس لها هشام
أما البصريون، فكانوا يرون أنها لا تفيد إلا التشبيه.

إلى جانب اختيار الزجاجي من آراء البصريين والكوفيين، كان له اجتهادات، ابتكرها بنفسه منها: ذهابه إلى أن «سوى» تأتي فاعلاً في مثل: جاء سواك، ومفعولاً به في مثل: رأيت سواك، وبدلًا في نحو: ما ساعدني أحد سواك. ولقد خالف البصريين بذلك، إذ ذهبوا إلى أنها ظرف مكان دائمًا، والكوفيين الذين ذهبوا إلى أنها ظرف متمنٌ، يستعمل ظرفاً كثيراً، وغير ظرف قليلاً.

ونذكر من علماء المذهب البغدادي، أبا علي الفارسي (٣٧٧ هـ)، الذي كان ينتصر للبصريين في كثير من الأحيان، إذ أيد مذهب الخليل الرامي إلى اعتبار أن «لا» النافية، قد تأتي زائدة، كما يظهر في قوله تعالى: «وما يشعركم أنها إذا جاءت لا يؤمنون». كما أنه أيد الكوفيين في رأيهم في اعمال «ان» النافية عمل ليس، لما روا عن أهل العالية في مثل: «ان أحد خيراً من أحد إلا بالعافية».

(١) أقبل: أبنت، وأبقالها. أي: نباتها.

(٢) نشا بنهاوند جنوبي همدان.

ومن اجتهاداته النحوية، ذهابه إلى أن العامل في المعطوف فعل ممحض بعد حرف العطف^(١)، في مثل: ضربت زيداً وعمراً. وليس العامل فعل «ضربت» الذي عمل في المعطوف عليه «زيداً» وبهذا خالف سيبويه، وجمهور البصريين الذين ذهبوا إلى أن العامل في المعطوف، هو العامل في المعطوف عليه، أي: أن فعل «ضربت» عامل في زيد وعمرو معاً. ويرأيه خالف ابن السراج الذي رأى أن حرف العطف هو العامل.

ويعد ابن جني (٣٩٢ هـ) أبرز علماء المدرسة البغدادية. فبعد خلطه آراء المذهبين البصري والكوفي، اختار كثيراً من المسائل البصرية، وأيدهم فيها، من ذلك موافقته على أن رافع المبتدأ هو الابتداء. وبال مقابل، أيد الكوفيين في بعض مسائلهم منها: اعمال «إن» النافية عمل ليس، متابعاً بذلك رأي الفارسي. كذلك كانت له آراء واجتهادات انفرد بها عن المذهبين، ومنها: تجويزه تقديم المفعول معه على المعمول قبله فيقال: جاء وثياب الصوف البرد. ومن آرائه النافية، ذهابه إلى أن الأصل في ظهور اللغات، إنما هو اشتقاء كلماتها من الأصوات المسموعات.

إلى ذلك نصيف عالماً بُرز في المدرسة البغدادية، هو السيرافي الفارسي (٣٦٨ هـ). وكان بصرى التزعة، ومن أشهر كتبه: «أخبار النحويين والبصريين» ونذكر أيضاً ابن خالويه (٣٧٠ هـ)، وقد مال إلى البصريين. وله شرح كتاب سيبويه، والرابعي (٤٢٠ هـ)، وابن برهان (٤٥٦ هـ)، وابن الدهمان (٥٦٩ هـ) والأثيري له: «نزهة الألباء في طبقات الأدباء». و«الأنصاف في مسائل الخلاف»، والمطر زي الخوارزمي (٦١٠ هـ)، والكتندي (٦١٣ هـ) وأبا البقاء العكيري (٦١٦ هـ)، وابن الخباز (٦٣٧ هـ).

وقد تأثر هؤلاء العلماء المتأخرون، بكل من ابن جني وأبي علي الفارسي، بعد أن خلفوهما واتخذوا نفس المنهج الذي اتخذه، والقائم على تمثيل الآراء البصرية والكوفية، وأراء البغداديين الأولين، الذين كانوا ينزعون نزعة كوفية، واختيار ما يرونها صواباً من آرائهم، والاجتهاد في استنباط آراء جديدة. وقد مال هؤلاء المتأخرون إلى البصريين^(٢).

(١) وعلل رأيه بأن الأصل في مثل: ضربت زيداً وعمراً ضربت زيداً وضررت عمراً فحذف الفعل بعد الواو لدلالة الأول عليه بدليل أنه يجوز إظهاره.

(٢) عذر شوقي ضيف الرضي الاسترابادي وابن يعيش عالمين ببغداديين.

من مسائل الخلاف بين البصريين والkovfien^(١)

مسألة

القول في علة إعراب الفعل المضارع :

ليس الفعل المضارع، في رأي البصريين والkovfien، مبنياً، بل هو معرب في أغلب الأحيان. غير أنَّ الفريقين اختلفاً في علة إعرابه، فكان لكلِّ منهما علة وحججه يدافع بها عن وجهة نظره.

علة إعرابه عند الكوفيين: يرى الكوفيون أن الفعل المضارع معرب، لأنَّ المعاني والأوقات الطويلة تدخله.

ردَّ البصريين على الكوفيين:

يردُّ البصريون على زعم الكوفيين ببطلين عللهم بحجتين هما:

أ - إنَّ المعاني المختلفة التي تدخل الفعل المضارع ليست سبباً في علة إعرابه، ذلك لأنَّ الحروف تدخلها المعاني الكثيرة والمختلفة، علمًا بأنَّها مبنية في نظر جميع النحاة. و «من» تفيد عدة معانٍ منها: ابتداء الغاية نحو: ذهبت من بيروت إلى صيدا، والتبعيض نحو: أكلت من الطعام، أي: بعضه، والزيادة لإفادته التوكيد نحو: ما من أحد يكره السلام.

فلو كانت المعاني المختلفة التي تدخل الفعل المضارع سبباً في إعرابه، لكان الحروف الدالة على معانٍ كثيرة ومختلفة معربة أيضًا، علمًا بأنَّ جميع النحاة يجمعون على أنَّ الحروف مبنية. وعلى هذا تكون حجة الكوفيين واهية لا ثبتت علة إعراب الفعل المضارع.

ب - إنَّ الأوقات الطويلة التي تدخل الفعل المضارع، ليست سبباً آخر يؤكِّد إعرابه، ذلك لأنَّ الفعل الماضي أطول من المستقبل، الذي يصبح ماضياً مع الأيام،

(١) راجع (الإنصاف في مسائل الخلاف بين النحوين البصريين والkovfien) لعبد الرحمن الأنباري في المجلدين: الأول والثاني.

في حين أنَّ الماضي لا يمكن أن يصبح مستقبلاً. فإذا كان طول الزمان يوجب الإعراب، لوجب أن يكون الماضي معربياً، علماً بأنه لا خلاف بين النحويين على أنه مبني. من هنا يظهر أنَّ الحجة الثانية عند الكوفيين، غير مؤكدة لإعراب الفعل المضارع، فلا حاجة للأخذ بها.

أسباب اعراب الفعل المضارع عند البصريين : يرى البصريون أنَّ الفعل المضارع معرب لمشابهته الاسم بثلاثة امور :

الأول . الاختصاص :

إنَّ الاسم يكون شائعاً، ثم يتخصص. فكلمة «رجل» لها معنى شائع وتصبح لجميع الرجال، لأنها نكرة. أما إذا قلنا: «الرجل» فيتخصص هذا الاسم بعد أن كان شائعاً لأنَّه معرفة. كذلك يكون الفعل المضارع شائعاً ويأتي دالاً على معندين مما الحال والاستقبال مثل: يستعد علي للإمتحان، ثم يتخصص هذا الفعل إذا قلنا: سيسعد للإمتحان أو سوف يستعد، وذلك لدلالة على الاستقبال وأختصاصه به فقط .

الثاني : دخول لام الابتداء عليه وعلى الاسم :
فلا اسم تدخل عليه لام الابتداء نحو: إنَّ زيداً لقائم، كذلك تدخل على الفعل المضارع نحو: إنَّ زيداً ليقوم .

والجدير بالذكر أنَّ هذه اللام لا تدخل على فعل الماضي والأمر، فلا يجوز القول: إنَّ زيداً لقام أو إنَّ زيداً لأضرب عمراً.

الثالث :

جريان الفعل المضارع على اسم الفاعل في حركته وسكونه .
ف«يضرب» على وزن «ضارب» في حركته وسكونه .

فهذه الأسباب الثلاثة تؤكِّد المشابهة بين الفعل المضارع والإسم. ولما كان الاسم معربياً، فإنَّ الفعل المضارع الذي يشبهه معرب أيضاً.

مسألة

القول في «رب» اسم هي أم حرف؟ .

رأى الكوفيين وحججهم: يرى الكوفيون أنَّ «رب» إسم محتاجين بما يأتي :

١ - إنَّ «رت» اسم حملأ على «كم»؛ ذلك أنَّ «كم» للعدد وتنفيذ التكثير،

و«أَرْتُ» تفيد العدد، وتفيض التقليل أيضاً. لذلك فهي اسم مثل «كم»، وليس حرفـا.

٢ - إن «رب» ليست حرفاً، لمخالفتها حروفـ الجر في أربعة أمور:

أ - مجبنـها في صدر الكلام، خلافاً لحروفـ الجر التي تأتي عادة متوسطة للربط بين أجزاء الكلام من أسماء وأفعالـ.

ب - إنـها لا تعمل إلا في النكـرة، في حين أنـ حروفـ الجر تـعمل في النـكـرة والمعـرفة^(١).

ج - لا تـعمل إلا في نـكـرة موـصـوفـة، بينما حـروفـ الجـر تـعمل في نـكـرة موـصـوفـة وغـير موـصـوفـة^(٢).

د - عدم جواز إظهـار الفـعل الذي تـتعلق به عند البـصرـيين؛ ولـمخـالـفة «رب» حـروفـ الجـر في هـذـه الـأـمـورـ، فـهي أـسـمـ وـلـيـسـ حـفـ جـزـ فيـ نـظـرـ الـكـوـفـيـنـ.

٣ - جواز حـذـفـ بعضـ أـحـرـفـهاـ: فيـقـالـ فيـ «ربـ» رـبـ عـنـ تـخـفـيفـهاـ، وـقـدـ جـاءـ فيـ قـوـلـهـ تـعـالـىـ: «رـبـمـاـ يـؤـدـ الذـيـنـ كـفـرـوـ لـوـ كـانـوـ مـسـلـمـيـنـ». فـقـدـ قـرـنـتـ هـذـهـ الـآـيـةـ الـكـرـيمـةـ قـرـاءـتـيـنـ: الـأـوـلـىـ بـتـخـفـيفـ «ربـ» الـتـيـ تـضـبـحـ «ربـمـاـ»، فـيـحـذـفـ مـنـهـاـ حـرـفـ الـبـاءـ الـمـرـغـمـ بـالـبـاءـ الـثـانـيـ، وـالـقـرـاءـةـ الـثـانـيـةـ بـاـنـشـدـيـنـ، أـيـ: لـاـ يـدـخـلـهـاـ حـذـفـ نـحـوـ «ربـمـاـ».

رأـيـ الـبـصـرـيـيـنـ وـأـدـلـتـهـمـ: يـذـهـبـ الـبـصـرـيـيـوـنـ إـلـىـ أـنـ «ربـ» حـرـفـ. وـقـدـ دـعـمـواـ رـأـيـهـمـ وـعـلـلـوـهـ بـالـدـلـلـ الـآنـيـ:

١ - إن «رب» حـرـفـ لـدـلـالـتـهاـ عـلـىـ معـنـىـ فـيـ غـيرـهـاـ، كـالـحـرـفـ. وـهـذـاـ الـمـعـنـىـ هـوـ تـقـلـيلـ ماـ دـخـلـتـ عـلـيـهـ، نـحـوـ: رـبـ ظـالـمـ يـعـدـلـ، أـيـ: ذـلـكـ قـلـيلـ. وـرـبـ كـسـولـ يـنـجـحـ.

رـدـ الـبـصـرـيـيـنـ عـلـىـ مـزـاعـمـ الـكـوـفـيـيـنـ: يـرـدـ الـبـصـرـيـيـوـنـ عـلـىـ الـكـوـفـيـيـنـ مـبـطـلـيـنـ مـزـاعـمـهـمـ وـحـجـجـهـمـ بـالـشـرـحـ وـالـتـعـلـيلـ مـثـبـتـيـنـ أـنـ «ربـ» حـرـفـ جـرـ عـلـىـ النـحـوـ الـآنـيـ:

أـولاـ: إـنـ قـوـلـ الـكـوـفـيـيـنـ بـأـنـ «ربـ» اـسـمـ حـمـلاـ عـلـىـ «كمـ»، لـأـنـهـ لـلـعـدـدـ وـالـتـقـلـيلـ وـ«كمـ» لـلـعـدـدـ وـالـتـكـثـيرـ، كـلـامـ باـطـلـ وـيـحـبـ عـدـمـ التـسـلـيمـ بـهـ، ذـلـكـ أـنـ «ربـ»

(١) نـحـوـ: قـمـتـ فـيـ نـزـهـةـ، عـدـتـ مـنـ الجـامـعـةـ.

(٢) نـحـوـ: رـبـ طـالـبـ مـهـمـلـ يـنـجـحـ فـيـ الـامـتـحانـ. مـرـرـتـ بـرـجـلـ، وـمـرـرـتـ بـرـجـلـ مـسـكـينـ.

للتكليل فقط وليس للعدد. و«كم» اسم لقبولها علامات الأسماء نحو: بـ«كم» رجل مررت، ويجوز الإخبار بها نحو: كم رجلاً عندكم؟ أما «رب» فلا تقبل، علامات الأسماء، ولا يجوز الإخبار بها، لذلك فهي حرف وليس اسمًا كـ«كسم».

ثانياً: إنَّ أدعاء الكوفيين بأنَّ «رب» اسم لمخالفتها حروف الجر فـ، أربعة أمور باطل أيضًا؛ إذ لا يستند على أي دليل يثبت اسميتها. فهي في نظرهم تختلف حروف الجر لمجيئها في صدر الكلام، بينما تأتي حروف الجر متوسطة للربط بين الأسماء والأفعال. ويعلل البصريون مجيئها في صدر الكلام من جهة معناها، فهي تتصدر الكلام لأنها تفيد معنى التقليل. والمعرون أنَّ تقليل الشيء يقارب نفيه، لذلك اشبهت حرف النفي الذي له حق الصدارة في الكلام. ولما كانت تشبهه فهي تحتل، مركز الصدارة كحرف النفي.

ثم يدحض البصريون حجة الكوفيين القائلة: أنَّ «رب» لا تعمل إلَّا في النكرة خلافاً لحروف الجر. فيقولون: إنَّ افادتها معنى التقليل أوجب دخولها على النكرة الدالة على الكثرة ليصح في هذه النكرة معنى التقليل.

ويجيب البصريون على قول الكوفيين المفيد أنَّ «رب» لا تشبه حروف الجر، لأنها لا تعمل إلَّا في نكرة موصوفة، في حين أنَّ هذه الحروف تعمل في النكرة الموصوفة وغير الموصوفة. فيقولون: أنها لا تعمل إلَّا في النكرة للتعميض عن حذف الفعل الذي تتعلق به (رب). وقد يظهر هذا الفعل عند الضرورة الشعرية.

أما رد البصريين على أدعاء الكوفيين القائلين: إنَّ بينها وبين حروف الجر فرقاً لعدم جواز إظهار الفعل الذي تتعلق به، فيقولون: لا يجوز إظهار هذا الفعل رغبة في الإيجاز والإختصار.

نقولنا: «ربِّ رجلٍ يعلمُ»، كان التقدير فيه: «وبِ رجلٍ يعلمُ أدركت أو لقيت» وقد حذف الفعل «أدركت» لدلالة الحال عليه.

تضاف إلى هذا أنَّ البصريين أجابوا على زعم الكوفيين القائلين: إنَّ «رب» يدخلها الحذف خلافاً للحرف الذي لا يدخله أي حذف. فلم يسلموا بهذا الرعم، إذ إنَّ الحذف قد يصيب بعض الأحرف نحو: «إنَّ» التي تخفف فتصبح «إن» وهي حرف.

وقد أشار البصريون إلى أنَّ الكوفيين ينافقون أنفسهم، فهم لا يقرُّون بجواز دخول الحذف على الحرف عند غيرهم وفي الوقت نفسه يجيزون لأصحابهم

إجراءه . فأبو العباس، أحمد بن يحيى أحد أصحاب الكوفيين حذف حرف من «سوف» فحكى : «مِنْ أَفْعُلْ وَسَوْ أَفْعُلْ». والحرفان المحدوفان هما الواو والفاء . من هذا الرد يبدو أنّ البصريين مصابيون في رأيهم المعلل بالحجج والبراهين ، وعلى هذا تكون «رَبْ» حرفاً وليس اسمًا كما يدعى الكوفيون .

ويبدو أيضاً أنّ ظاهرة المنطق والعقل تطغى على منهجة البصريين الذين فضلواها على الرواية والعقل .

مسألة

وزن «إنسان» وأصل اشتقاده .

اختلاف الكوفيون والبصريون حول وزن «إنسان» وأصل اشتقاده . فالكوفيون يَرَوْنَ أَنَّ «إنسان» على وزن إفعانٍ لأنَّ أصله ، في نظرهم ، «إنسان» على وزن «إفعلانٍ» من النسيان . وحجتهم أنَّ كثرة استعماله في كلام العرب دفعتهم إلى حذف «الباء» منه وهي تمثل «اللام» فيه . والمعروف أنَّ الحذف أمر جائز لكثره الاستعمال ، وتردد الكلام على الألسنة كحذف «الباء» و «الهمزة» من «اي شيء» التي أصبحت «إيش» بعد الحذف ، وحذف الهمزة والنون من قولهم «أنعم صباحاً» التي اختصرت فصارت «عم صباحاً» . وحذف الهمزة من قوله «ويل أمه» التي صارت بعد الحذف «ويلمه» .

وقد استشهد الكوفيون ببيت للهذلي لتأكيد صوابية رأيهم :

ويلمه رجالاً تأبى به غبنا اذا تجرّد ، لا خال ، ولا بخل
ثم يقدمون جمة ثانية للدلالة على أنَّ «إنسان» مأخوذ من النسيان ، وهي قولهم : والذي يدل على أنَّ «إنسان» مأخوذ من النسيان أنهم قالوا في تصغيره «أنيسانٍ» فردوا الياء في حال التصغير ، لأنَّ الاسم لا يكثر استعماله مصغراً كثرة استعماله مكبراً ، والتصغير يرده الأشياء إلى أصولها فدل على ما قلنا .

رأي البصريين وحجتهم :

يتعارض رأي البصريين مع الكوفيين حول وزن «إنسان» ، إذ إنَّ البصريين يَرَوْنَ أَنَّ وزنه «فِعْلَانٌ». وحجتهم أنَّ «إنسان» مأخوذ من الإِنْسٌ^(١) وسمى الإنس إنساً لظهورهم ، كما سمي الجن جنّاً لاجتنابهم ، اي استثارهم . وقال الله تعالى :

(١) يقال : الإنس بكسر الهمزة والأنس بضمها . راجع (محيط المحيط) للبساتني ، مادة (أنس) .

«آنس من جانب الطور ناراً» أي: أبصر. وحجتهم الثانية أنَّ الهمزة في الإنس أصلية ولا الف ونون فيه موجودتان، فكذلك الهمزة أصلية في «إنسان».

ويجوز أن يكون سمي الإنس إنساً، لأنَّ هذا الجنس يستأنس به، ويوجد فيه من الأنس وعدم الاستيحاش، ما لا يوجد في غيره من سائر الحيوان، وعلى كلا الوجهين فالالف والنون زائدتان. ولهذا قال البصريون: إنَّ وزن «إنسان» فعلان.

رد البصريين على الكوفيين: إنَّ قول الكوفيين إنَّ وزن «إنسان» «إفuan»، لأنَّ الأصل، فيه «إنسان»، فحذفت الياء لكثره الاستعمال، وكثرة جريانه على الألسنة كالحذف في قولهم: ايش في أي شئٍ و «عم صباحاً» في «أنعم صباحاً»، و «وويلمه» في «ويل أمه» كلام باطل؛ إذ لو كان هذا القول صحيحاً لجاز أن تردد كلمة «إنسان» إلى أصلها «إنسان»، كما جاز أن ترد الكلمات «ايش» و «عم صباحاً» و «وويلمه» إلى اصولها فيقال: أي شيء وأنعم صباحاً وويل أمه.

فلعدم جواز رد «إنسان» إلى أصله «إنسان» عند الضرورة أو الرغبة والاختيار، فإنَّ كلام الكوفيين لا صواب فيه.

ثم يرد البصريون على قول الكوفيين في تصغير «إنسان» «أنيسيان» فيقولون إنَّ هذه الياء زيدت في «أنيسيان» خلافاً للقياس، كما زيدت في قولهم «ليليله»^(١) في تصغير «ليلة» «وعيشية» في تصغير «عشية» وكفه لهم خلافاً للقياس «مغيريان»^(٢) في تصغير «مغرب» و «رويجل» في تصغير «رجل»^(٣).

وبهذا الحجج البصرية يدحض رأي الكوفيين، ويكون وزن «إنسان» «فعلان» وأنَّ أصله من الأنس لا من النisan.

لا شك في أنَّ المسحة المنطقية تبدو ظاهرة في أسلوب البصريين من خلال هذه المسألة.

(١) وتصغيرها على القياس: لييلة.

(٢) مغيريان: تصغير مغريان وهو بمعنى المغارب، يقال: لقيته مغرب الشمس ومغاربانها.

(٣) تصغيره على القياس روجيل. (عشية) عشية. وتصغير (إنسان) (أنيسين) لأنَّ الإسم الذي رابعه حرف علة تقلب ألفه وواواً أو ياتي وترك الياء على حالها فتقول في تصغير (منشار) منشير وإنسان أنيسين). راجم التصغير في (ال نحو الروافي لعباس حسن) ج ٤ ص ٦٨٣ وما بعدها.

الخاتمة

بعد الانتهاء من البحث في موضوع (النحو العربي قضاياه ومراحل تطوره) توصلنا إلى النتائج الآتية:

١ - وجود النحو العربي في العصر الجاهلي: على الرغم من غلبة الرأي القائل إن النحو العربي لم يكن موجوداً قبل الإسلام، بحججة أن العرب كانوا يتكلّمون عن سلقة طبعوا عليها، فإننا نميل إلى رأي أحمد بن فارس ورأي غيره من المحدثين الذين يرون أن هذا العلم كان قائماً في العصر الجاهلي؛ ولعل مسوغ ذلك يتركز على كون النحو، بقوانيه وضوابطه، وتراكيبه، يحتاج إلى إجهاد فكر وشحذ ذهن، وعمل دؤوب متواصل، ودراسة وافية ومعمقة، وتفصيل وتحليل واستقراء وأستنتاج، وإلى ما هنالك من جهود مضنية ووقت طويل، حتى يستوي على ساقيه، ويرقى إلى مرتبة النضج والاستكمال؛ شأنه في ذلك شأن أي علم من العلوم أو اختراع من الإختراعات، لا يتحقق فجأة من دون أن تسبقه تحضيرات ومحاولات وأعمال شاقة توصله إلى مرحلة الإنجاز النهائي.

٢ - أسباب ظهور النحو غير محصورة بالباعث الديني: كان القرآن الكريم السبب الأهم في بirth النحو من جديد عند العرب، لكونه دستور المسلمين وشرعيتهم، ومنهل الفضائل والمقاصد التي يعجز المرء عن إحصانها، ويشقّ عليه وصفها؛ وهو الذي ﴿لَا يَأْتِيهُ الْبُطُولُ مِنْ بَيْنِ يَدِيهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِ﴾ [فصلت: ٤٢]؛ ولما كان متولاً بلسان عربي، خاف الحريصون على الدين الحنيف، بعد فشو اللحن وانتشاره على لسان الخاصة والعامة أن نفسد لغة قرآنهم فينغلق على الأفهام، وتبيّم معاني أحاديث رسولهم الأعظم، فتهدد دينهم بالضياع؛ فهبوا لبعث علم النحو من جديد، ليحدد للغة العربية قواعد وقوانين تعضمها عن الخطأ، وتحميها من الرّطانة واللّكنات، ليصان بها القرآن المجيد والدين الحنيف من الشوائب. وعلى الرغم من أهمية الباعث الديني، فإن هناك بواحد وأسباباً أغفلها معظم القدامى والمحدثين، وقد رأيناها، نحن، جديرة بالذكر والأهتمام. ومن أبرزها الباعث القومي، الباعث الاجتماعي، الباعث السياسي، والباعث الحضاري؛ أي: احتكاك العرب بغيرهم؛

ما أدى إلى تفاعل حضاري بينهم وبين شعوب البلاد التي فتحوها.

٣ - النحو العربي بغالبته من ابتكار العرب؛ بعد أن نسبَ عدد من الباحثين النحو العربي إلى اليونانيين والسريانيين، وذكر آخرون أنه، بكلمته، من ابتكار العرب واختراعهم؛ لأنَّه كان نابعاً من حاجتهم الماسة إليه، وذلك لدرء خطر اللحن الذي هدد لغتهم بالزوال، وقرأنهم بالانغلاق على الأفهام ولا ينفي ذلك استعانتهم بالنقاط التي أخذها أبو الأسود الدؤلي عن السريانية، لتساعد على جودة القراءة كتابةً ومشافهةً، ولا ينفي أيضاً تأثيرهم بتقسيمات النحو السرياني إلى أبواب وفصول، ويمتدق اليونانيين وعلومهم. وعلى الرغم من هذا التأثر، فإنَّ النحو هو الإعراب من فعل ومفعول وغير ذلك من الأقسام، وليس محصوراً بالنقط وطريقة التقسيم، فإنه يبقى بغالبته ومعظمها، عربياً الطابع، عربياً الأصلية في نشأته وتسميتها معاً.

٤ - علي بن أبي طالب عليه السلام مؤسس النحو العربي: بعد الاطلاع على آراء القدامى والمحدثين في قضية منشئ هذا العلم، وبعد دراستها ومناقشتها، رأينا أنَّ علي بن أبي طالب عليه السلام، هو المؤسس الأول لعلم النحو، وياعنه من جديد بعد اندثار دام طويلاً حتى ظهور الإسلام. وبعد ابتعاث هذا العلم، تطور مع الزمن على أيدي علماء جاءوا بعد علي، فجعلوه فناً مستكمل الدعائم، مرتب الأبواب، مجذد الاصطلاحات العلمية الخاصة.

٥ - استمرار تطور النحو وتواصله: إنَّ التطور الذي رافق النحو منذ نشأته، لم يُصبِّ برکود وشلل بعد سبيوبيه، ولو كان كتابه يمثل قرآن النحو، وميدانه الذي جال فيه النحاة، وأخذ من كل علم به بسبب، ولو ظلَّ أساساً للنحو، ودَسَّرَ النحاة قديماً وحديثاً على حد قول الباحثين والدارسين. فتطوَّر علم العربية استمراً من دون توقف بعد هذا العالم الكبير؛ فالشروحات والمختصرات والتعليقات على كتاب المشهور كثيرة جداً، أوَّلَيْسَ عملاً جديداً في مجال النحو، ومظهر تطور له؟ ألم تكن آراء الكوفيين، بقطع النظر عن اختلافها عن آراء البصريين، رافداً يردد علم العربية بقوانيين جديدة غيرت النحو وتطوره، على أيدي الكسائي والفراء وشلب وغيرهم من علماء الكوفة؟ أوَّلَيْسَ المناظرات التي تطالعنا بها مصتفات البغداديين والمصريين والشاميين والأندلسيين الذين خلفوا سبيوبيه، تطويراً للنحو وازدهاراً له؟ علمًا بأنَّنا نعرف بفضل البصريين ودورهم الفاعل في تعزيز النحو وتقنيته على أيدي المشهورين منهم.

ألم تكن المناظرات والمجالس التي كانت تعقد بين النحوين بحضور الخلفاء

والأمراء أحياناً، سبيلاً إلى تطوير النحو تطويراً يشير الإعجاب، وذلك بسبب التنافس والعصبية بينهم؛ فهي التي حركت العلماء إلى التنقيب والبحث في القضايا والمسائل النحوية، وهي التي أتاحت لهم الفرصة لسرير أغوار النحو والصرف، وإدراك أسرار العربية.





قائمة المصادر والمراجع

أولاً - المصادر العربية:

- ١ - ابن جنبي، عثمان أبو الفتح: *الخصائص*، دار الهدى للطباعة والنشر، تحقيق محمد علي النجار (ط - ٢) (لا - ت) (م - ٣).
- ٢ - المؤلف نفسه: سر صناعة الاعراب، شركة مصطفى الحلبي وأولاده، مصر، (لا - ط)، (ت - ١٣٧٤ هـ / ١٩٥٤ م)، (م - ٢). ونسخة جديدة، تحقيق الدكتور حسن هنداوي، دمشق، دار القلم، (ط - ١)، (ت - ١٤٠٥ هـ / ١٩٨٥ م)، (م - ٢).
- ٣ - المؤلف نفسه: *المنصف* (وزارة المعارف، ادارة إحياء التراث القديم)، دار الثقافة العامة، تحقيق إبراهيم مصطفى، (لا - ط)، (ت - ١٣٧٤ هـ / ١٩٥٤ م)، (م - ٣).
- ٤ - ابن الخطاب، عبد الله بن نصر: *المرتجل*، مكتبة مجمع اللغة العربية، دمشق (لا - ط)، (ت - ١٣٩٢ هـ / ١٩٧٢ م).
- ٥ - ابن خالويه، الحسين بن أحمد: *إعراب ثلاثة سور من القرآن الكريم*، دار مكتبة الهلال، بيروت، لبنان (طبعه جديدة منقحة)، (ت - ١٩٨٥ م / ١٤٠٦ هـ).
- ٦ - ابن الخطيب، محمد بن عبد الله: *الإحاطة في أخبار غرناطة*، دار المعارف، مصر (م - ٢).
- ٧ - ابن خلدون، عبد الرحمن: *كتاب العبر*، دار الكتاب اللبناني (ط - ٣)، (ت - ١٩٦٧ م / ١٣٦٨ هـ)، (م - ٨) والمقعدة هي المجلد الأول.
- ٨ - ابن حزم، علي أبو محمد: *الإحكام في أصول الأحكام*، مصر، (ط - ٢)، (لا - ت).
- ٩ - ابن رشيق القيرواني، الحسن بن علي: *العمدة*، تحقيق محمد محى الدين

- عبد الحميد، القاهرة، المكتبة الكبرى التجارية، (لا - ط)، (ت - ١٩٣٤ م / ١٣٩٤ هـ)، (جزءان في مجلد واحد).
- ١٠ - ابن السراج، محمد بن سهل: الأصول في النحو، مؤسسة الرسالة، بيروت، (ط - ٤)، (ت - ١٤٠٨ هـ / ١٩٨٣ م)، (م - ٣).
- ١١ - ابن السيد، عبد الله بن محمد البطليوسى: الاقتضاب في شرح أدب الكتاب، المطبعة الكلية (لا - ط)، (ت - ١٣١٩ هـ / ١٩٠١ م).
- ١٢ - ابن الشجري، ضياء الدين: الأمالي الشجرية، حيدر آباد الدكن - مطبعة دائرة المعارف العثمانية (ت - ١٣٤٩ هـ / ١٩٣٠ م)، (م - ٢).
- ١٣ - ابن عصفور، علي بن مؤمن: المقرب، مطبعة العاني، بغداد، (لا - ط)، (لا - ت)، (م - ٢).
- ١٤ - المؤلف نفسه: الممتنع في التصريف، دار الآفاق الجديدة، بيروت، (ط - ٣)، (ت - ١٣٨٩ هـ / ١٩٧٨ م)، (م - ٢).
- ١٥ - ابن عقيل، عبد الله: شرح ابن عقيل، دار إحياء التراث العربي. ونسخة ثانية تحقيق محمد محي الدين عبد الحميد، دار العلوم الحديثة، بيروت، (ط - ١٤)، (ت - ١٣٨٤ هـ / ١٩٦٤ م)، (م - ٢).
- ١٦ - ابن فارس، أحمد: رسائل في النحو واللغة، المؤسسة العامة للصحافة والطباعة، دار الجمهورية، بغداد، (لا - ط)، (ت - ١٣٨٩ هـ / ١٩٦٦ م).
- ١٧ - المؤلف نفسه: معجم مقاييس اللغة، تحقيق عبد السلام هارون، مكتب الإعلام الإسلامي، (لا - ط)، (ت - ١٤٠٤ هـ / ١٩٨٣)، (م - ٥).
- ١٨ - المؤلف نفسه: الصاحبي في فقه اللغة وسنن العربية في كلامها، تحقيق مصطفى الشويمي، مؤسسة بدران للطباعة والنشر، بيروت (لا - ط)، (ت - ١٣٨٢ م / ١٩٦٣ هـ).
- ١٩ - ابن قاضي شبهة، تقى الدين: طبقات النحاة واللغويين، مطبعة النعمان، (لا - ط)، (لا - ت).
- ٢٠ - ابن قتيبة، عبد الله بن مسلم: أدب الكاتب، المكتبة التجارية الكبرى، مصر، (ط - ٤)، (ت - ١٣٨٣ هـ / ١٩٦٣ م).
- ٢١ - المؤلف نفسه: عيون الأخبار، القاهرة، وزارة الثقافة والإرشاد القومي، (لا - ط)، (ت - ١٩٦٣ م / ١٣٩٢ هـ)، (م - ٣).

- ٢٢ - ابن مالك، جمال الدين: تسهيل الفوائد وتمكيل المقاصد، دار الكتاب العربي للطباعة والنشر، (لا - ط)، (ت - ١٣٧٧ هـ / ١٩٦٧ م).
- ٢٣ - ابن مضاء القرطبي، أحمد بن عبد الرحمن، أبو العباس: الرذ على النخاء، تحقيق شوقي ضيف، دار المعارف، القاهرة (ط - ٣)، (ت - ١٩٨٢ م / ١٣٠٣ هـ).
- ٢٤ - ابن منظور، محمد بن مكرم: لسان العرب، دار صادر، بيروت - لبنان، (ط - ١)، (ت - ١٣٠٠ هـ / ١٩٨٣ م)، (م - ١٥).
- ٢٥ - ابن هشام الأنصاري، جمال الدين: شرح شذور الذهب، تحقيق محمد محي الدين عبد الحميد، المكتبة التجارية الكبرى، القاهرة، (ط - ١٠)، (ت - ١٣٨٥ هـ / ١٩٦٥ م).
- ٢٦ - المؤلف نفسه: مغني اللبيب عن كتب الأعaries، دار الفكر، بيروت، (لا - ط)، (ت - ١٤٠٠ هـ / ١٩٧٩ م)، ونسخة ثانية من منشورات المكتبة العصرية، صيدا - بيروت، تحقيق محمد محي الدين عبد الحميد، (لا - ط)، (ت - ١٤٠٧ هـ / ١٩٨٧ م)، (م - ٢).
- ٢٧ - المؤلف نفسه: أوضح المسالك إلى الفية ابن مالك، دار إحياء التراث العربي، بيروت، تحقيق محمد محي الدين عبد الحميد، (ط - ٥)، (ت - ١٣٨٨ هـ / ١٩٦٦ م)، (م - ٣).
- ٢٨ - ابن يعيش، عبد الله بن علي: شرح المفضل، عالم الكتب، بيروت، مكتبة المتنبي، القاهرة (لا - ط)، (لا - ت)، (م - ١٠).
- ٢٩ - أبو حيان النحوي، محمد بن يوسف: البحر المحيط، مكتبة النصر الحديثة، الرياض، ص. ب ٥٦٦، (لا - ط)، (لا - ت)، (م - ٨).
- ٣٠ - أبو سعيد، الحسن بن عبد الله السيرافي: أخبار النحوين البصريين. اعنى بنشره وتهذيبه فرينس كرنوكو، بيروت، المطبعة الكاثوليكية، (لا - ٤)، (ت - ١٣٣٦ هـ / ١٩٣٦ م).
- ٣١ - أبو زيد الأنصاري، سعد بن أوس: النواذر في اللغة، دار الكتاب العربي، (ط - ٢)، (ت - ١٣٨٧ هـ / ١٩٦٧ م).
- ٣٢ - أبو الطيب اللغوي: نبرات النحوين، تحقيق أبو الفضل إبراهيم - مكتبة نهضة مصر، (ت - ١٩٥٥ م / ١٣٧٣ هـ).
- ٣٣ - أبو العباس، أحمد بن يحيى ثعلب: مجالس ثعلب، تحقيق عبد السلام

- ٣٤ - محمد هارون، دار المعارف، مصر (ط - ٥)، (لا - ت)، (م - ٢).
- ٣٤ - أبو علي الفارسي، الحسين بن أحمد: الإيضاح العضدي، مطبعة دار المعارف، مصر، (ط - ١)، (ت - ١٣٨٩ هـ / ١٩٦٩ م).
- ٣٥ - الإربلي، بدر الدين: جواهر الأدب في معرفة كلام العرب، المكتبة الحيدرية في النجف، (ط - ٢)، (ت - ١٣٨٩ هـ / ١٩٧٠ م).
- ٣٦ - الأزهري، خالد بن عبد الله: شرح التصريح على التوضيح، المكتبة التجارية الكبرى، (ط - ١)، (ت - ١٣٧٤ هـ / ١٩٥٤ م)، (م - ٢).
- ٣٧ - الاستراباذي، رضي الدين: شرح شافية ابن الحاجب، تحقيق محمد نور الحسن وأخرين، مطبعة حجازي القاهرة، (أربعة أجزاء في مجلدين).
- ٣٨ - الأشموني، علي بن محمد، أبو الحسن: شرح الأشموني، دار الكتاب العربي، بيروت، (لا - ط)، (ت - ١٣٧٥ هـ / ١٩٥٥ م).
- ٣٩ - الأنباري، عبد الرحمن: أسرار العربية، المجمع العلمي، دمشق، (ت - ١٣٧٦ هـ / ١٩٥٧ م).
- ٤٠ - المؤلف نفسه: الإنصاف في مسائل الخلاف، تحقيق محمد محى الدين عبد الحميد، دار الفكر، (لا - ط)، (لا - ت)، (م - ٢).
- ٤١ - المؤلف نفسه: نزهة الآلباء في طبقات الأدباء، تحقيق إبراهيم السامرائي، مكتبة الأندلس، بغداد (ت - ١٩٧٠ م / ١٣٩٠ هـ).
- ٤٢ - المؤلف نفسه: لمع الأدلة في أصول النحو، تحقيق عامر عطية (ت - ١٣٨٧ هـ / ١٩٦٣ م)، ونسخة ثانية تحقيق سعيد الأفغاني، دمشق، الجامعة السورية، (ت - ١٨٥٧ م / ١٣٧٧ هـ).
- ٤٣ - الأنباري، محمد بن القاسم: الأضداد، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم، المكتبة العصرية، صيدا، (لا - ط)، (ت - ١٤٠٧ هـ / ١٩٨٧ م):
- ٤٤ - البغدادي، عبد القادر بن عمر: خزانة الأدب ولب لباب لسان العرب، المطبعة الأميركية ببولاق، القاهرة (ط - ١)، (ت - ١٣٤٩ هـ / ١٩٣٠ م).
- ٤٥ - الشعالي: عبد الله بن محمد بن إسماعيل: فقه اللغة وسر العربية، تحقيق مصطفى السقا، (ط - ٢)، (ت - ١٩٥٤ م / ١٣٧٣ هـ).
- ٤٦ - الجاحظ، عمرو بن بحر: دار صعب - بيروت - تحقيق فوزي عطوي، (لا - ط)، (ت - ١٩٦٨ م / ١٣٨٩ هـ).

- ٤٧ - الجرجاني، عبد القاهر: الجمل، مكتبة مجمع اللغة العربية، دمشق، (لا - ط)، (ت - ١٣٩٢ هـ / ١٩٧٢ م).
- ٤٨ - الحموي، ياقوت: معجم الأدباء، القاهرة، عيسى البابي الحلبي، (لا - ط)، (ت - ١٣٣٦ هـ / ١٩٣٨ م)، (م - ٢٠)، ونسخة ثانية تصحيح مرجليون، القاهرة، مطبعة هندية الموسكي (ت - ١٩٢٨ م / ١٣٤٦ هـ)، (م - ٧).
- ٤٩ - المؤلف نفسه: معجم البلدان، دار صادر، بيروت، (لا - ط)، (لا - ت)، (م - ٥).
- ٥٠ - الخوارزمي، محمد بن أحمد: مفاتيح العلوم، تحقيق إبراهيم الأبياري، دار الكتاب العربي، بيروت، (ط - ٢)، (ت - ١٤٠٩ هـ / ١٩٨٩ م).
- ٥١ - الرقاني، علي بن عيسى: كتاب معاني الحروف، تحقيق عبد الفتاح إسماعيل شلبي، دار الشروق، (ط - ٢)، (ت - ١٤٠١ هـ / ١٩٨١ م).
- ٥٢ - المؤلف نفسه: منازل الحروف، وهو قسم ملحق بـ (كتاب معاني الحروف). وهو وارد في (رسائل في النحو واللغة) لأحمد بن فارس المشار إليه آنفًا.
- ٥٣ - الزبيدي، محمد بن الحسن: طبقات النحويين واللغويين، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم، دار المعارف، مصر، (ط - ٢)، (لا - ت).
- ٥٤ - المؤلف نفسه: الواضح في علم العربية، دار المعارف، مصر، تحقيق الدكتور أمين علي السيد (لا - ط)، (ت - ١٣٩٥ م / ١٩٧٥ هـ).
- ٥٥ - الزجاجي، عبد الرحمن: اللامات، مطبوعات مجمع اللغة العربية، المطبعة الهاشمية، دمشق، تحقيق مازن المبارك، (لا - ط)، (ت - ١٣٨٩ هـ / ١٩٦٩ م).
- ٥٦ - المؤلف نفسه: مجالس العلماء، مطبعة حكومة الكويت، تحقيق عبد السلام محمد هارون، (لا - ط)، (ت - ١٣٩٢ م / ١٩٦٢ هـ).
- ٥٧ - المؤلف نفسه: الإيضاح في علل النحو، تحقيق مازن المبارك، المؤسسة السعودية بمصر، (لا - ط)، (ت - ١٣٧٨ هـ / ١٩٥٩ م).
- ٥٨ - الزركشي، محمد بن عبد الله: البرهان في علوم القرآن، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم، دار المعرفة، بيروت، (ط - ٢)، (م - ٤).

- ٥٩ - الزمخشري، محمود بن عمر: المفضل، دار الجيل، (ط - ٢)، (لا - ت).
- ٦٠ - السهيلي، عبد الرحمن: أمالى السهيلي في النحو واللغة والحديث والفتى، مطبعة السعادة، تحقيق محمد إبراهيم البنا، (ط - ١)، (ت - ١)، (١٣٩٠ هـ / ١٩٧٠ م).
- ٦١ - السيوطي، جلال الدين عبد الرحمن: الاقتراب في أصول النحو، حيدر آباد الدكن، (ط - ٢)، (ت - ١٣٥٩ هـ / ١٩٤٠ م).
- ٦٢ - المؤلف نفسه: الأشياء والنظائر، مراجعة الدكتور فايز ترحيني، دار الكتاب العربي، (ط - ١)، (ت - ١٤٠٤ هـ / ١٩٨٤ م)، (أربعة أجزاء في مجلدين).
- ٦٣ - المؤلف نفسه: الإنقان في علوم القرآن، القاهرة، (لا - ط)، (لا - ت).
- ٦٤ - المؤلف نفسه، ومعه العلامة محمد بن أحمد الحلبي: تفسير الجلالين، دار الكتب الدينية، بيروت - لبنان، (لا - ط)، (لا - ت).
- ٦٥ - المؤلف نفسه: بغية الوعاة في طبقات اللغويين والنخاء، تحقيق محمد أبو فضل إبراهيم، دار الفكر (ط - ٢)، (ت - ١٣٩٩ هـ / ١٩٧٩ م)، (م - ٢).
- ٦٦ - المؤلف نفسه: همع الهوامع وشرح جمع الجواجم، دار المعرفة للطباعة والنشر، بيروت، (لا - ط)، (لا - ت)، (جزءان في مجلد واحد).
- ٦٧ - سيبويه، عمرو بن عثمان بن قمبر: الكتاب، تحقيق وشرح عبد السلام محمد هارون، الهيئة المصرية العامة للكتاب، (ط - ٢)، (ت - ١٩٧٧ م / ١٣٩٧ هـ)، (م - ٥). والطبعة القديمة.
- ٦٨ - الضبي، أحمد بن يحيى: بغية الملتمس في تاريخ أهل الأندلس، دار الكتاب العربي، (لا - ط)، (ت - ١٩٦٧ م / ١٣٩٧ هـ).
- ٦٩ - الطبرسي، علي أبو الفضل بن الحسن: مجمع البيان في تفسير القرآن، منشورات، دار مكتبة الحياة، بيروت - لبنان (لا - ط)، (لا - ت)، (م - ٦).
- ٧٠ - الفزاء، يحيى بن زياد: معانى القرآن، تحقيق أحمد يوسف نجاتي ومحمد علي التجار، القاهرة، مطبعة دار الكتب (ط - ١)، (ت - ١٩٥٥ م / ١٣٧٥ هـ).
- ٧١ - الفراهيدي، الخليل بن أحمد: كتاب العين، مطبعة العانى، بغداد، تحقيق عبد الله درويش (ت - ١٣٨٦ هـ / ١٩٦٧ م)، (م - ٢).
- ٧٢ - الفيروزآبادى، مجد الدين: البلغة في تاريخ أنمة اللغة، منشورات دار

الثقافة، دمشق (١٣٩٢ هـ / ١٩٧٢ م).

٧٣ - القرطبي، محمد بن أحمد الأنصاري: الجامع لأحكام القرآن، دار الكتب العلمية، بيروت - لبنان (ط - ١)، (ت - ١٤٠٨ هـ / ١٩٨٨ م)، (عشرون جزءاً في عشرة مجلدات).

٧٤ - الققطني، علي بن يوسف: إنباء الرواة على أنباء النخاعة، مطبعة دار الكتب المصرية، تحقيق أبو فضل إبراهيم (ت - ١٣٧٠ هـ / ١٩٥٠ م)، (م - ٣).

٧٥ - الكتببي، محمد بن شاكر: فرات الوفيات، دار الثقافة، بيروت، تحقيق إحسان عباس، (ت - ١٣٩٤ هـ / ١٩٧٤ م)، (م - ٤).

٧٦ - المالقي، أحمد بن عبد النور المالقي: رصف المباني في شرح حروف المعاني، تحقيق أحمد محمد محمد الخراط، مطبوعات مجمع اللغة العربية، دمشق (لا - ط)، (ت - ١٣٩٥ هـ / ١٩٧٥ م).

٧٧ - المبرد، محمد بن يزيد: الكامل في اللغة والأدب، مكتبة المعارف، تصحح لجنة من المحققين، (لا - ط)، (لا - ت)، (جزءان في مجلد واحد).

٧٨ - المؤلف نفسه: المقتصب، لجنة إحياء التراث الإسلامي، (لا - ط)، (لا - ت)، (م - ٤). ونسخة ثانية، تحقيق محمد عبد الخالق عظيمة « عالم الكتب، بيروت، (لا - ط)، (لا - ت)، (م - ٤).

٧٩ - العكברי، عبد الله بن الحسين: التبيان في إعراب القرآن، تحقيق علي محمد البحاوي، دار الشام للتراث، بيروت - لبنان (لا - ط)، (لا - ت)، (م - ٢).

٨٠ - المرادي، حسن بن قاسم: الجنى الداني في حروف المعاني، تحقيق طه محسن، مؤسسة الكتب للطباعة والنشر، (١٣٩٦ هـ / ١٩٧٦ م).

٨١ - الهروي، علي بن محمد: الأزهية في علم الحروف، مجمع اللغة العربية، دمشق، (ت - ١٣٩١ هـ / ١٩٧١ م).

٨٢ - النديم: الفهرست، مطبعة الاستقامة بالقاهرة، المكتبة التجارية الكبرى، (لا - ط)، (لا - ت)، (م - ١). وذكرنا النديم من دون (ابن)، لأن النديم هو صاحب الفهرست، وليس ابنه. راجع ترجمة الفهرست إلى الفرنسية، وكتاب ثريا ملحس (محمد بن الحسين البغدادي المعروف بأبي الفتاح كشاجم)، دار الكتاب اللبناني، (ط - ١)، (ت - ١٤٠١ م / ١٩٨٠ هـ).

ثانياً: المراجع العربية

- ١ - اسبر، محمد سعيد: معجم في علوم اللغة العربية ومصطلحاتها، دار العودة (ط - ١)، (ت - ١٩٨١ م / ١٤٠١ هـ).
- ٢ - الأسعد، عبد الكرييم: الوسيط في تاريخ النحو العربي، دار الشواف - الرياض، (ط - ١)، (ت - ١٤١٣ هـ / ١٩٩٢ م).
- ٣ - الأفغاني، سعيد: في أصول النحو، مطبعة الجامعة السورية (لا - ط)، (ت - ١٣٧٦ هـ / ١٩٥٧ م).
- ٤ - أمين، أحمد: فجر الإسلام، مكتبة النهضة المصرية، القاهرة (ط - ٨)، (ت - ١٩١١ م / ١٣٣٢ هـ).
- ٥ - المؤلف نفسه: ضحى الإسلام، مكتبة النهضة المصرية، القاهرة (ط - ٦)، (ت - ١٩٦١ م / ١٣٨١ هـ)، (م - ٣).
- ٦ - أنيس، إبراهيم: من أسرار العربية، مكتبة الانجلو المصرية، (ط - ٧)، (ت - ١٩٨٥ م / ١٤٠٥ هـ).
- ٧ - المؤلف نفسه: الأصوات اللغوية، دار الطباعة الحديثة، (ط - ٥)، (ت - ١٣٩٩ م / ١٩٧٩ هـ).
- ٨ - باشا، محمد مختار: التوفيقات الإلهامية في مقارنة التواريχ الهجرية بالسين الإفرنجية والقبطية، دراسة وتحقيق محمد عمارة، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، (ط - ١)، (ت - ١٤٠٠ هـ / ١٩٨٠ م).
- ٩ - الستاني، بطرس: محيط المحيط، مكتبة لبنان، (ت - ١٩٨٣ م / ١٤٠٣ هـ).
- ١٠ - الستاني، كميل أفرام: اللغة السريانية، بيروت، (لا - ط)، (ت - ١٩٦٤ م / ١٣٨٤ هـ).
- ١١ - بروكلمان، كارل: تاريخ الأدب العربي، نقله إلى العربية عبد الحليم النجاشي، دار المعارف، (ط - ٤)، (ت - ١٩٥٩ م / ١٣٧٨ هـ)، (م - ٨).
- ١٢ - بشر، كمال محمد: علم الأصوات، دار المعارف بمصر، (لا - ط)، (ت - ١٩٨٦ م / ١٤٠٦ هـ).
- ١٣ - جفري، آثر: مقدمة في علوم القرآن، مكتبة الخانجي، القاهرة، (ط - ٢)، (ت - ١٣٩٢ هـ / ١٩٧٢ م).
- ١٤ - حاطوم، أحمد: كتاب الاعراب، شركة المطبوعات للتوزيع والنشر،

- ١٥ - الحديشي، خديجة: الشاهد وأصول النحو، جامعة الكويت، (ت - ١٣٩٤ هـ / ١٩٧٤ م).
- ١٦ - حسان، تمام: مناهج البحث في اللغة، دار الثقافة، الدار البيضاء، (ت - ١٤٠٠ هـ / ١٩٧٩ م).
- ١٧ - المؤلف نفسه: اللغة العربية، معناها وبناؤها، الهيئة المصرية العامة للكتاب، (ط - ٢)، (ت - ١٣٩٩ هـ / ١٩٧٩ م).
- ١٨ - حسن، عباس: النحو الوافي، دار المعارف بمصر، (ط - ٥)، (لا - ت)، (م - ٤).
- ١٩ - المؤلف نفسه: اللغة والنحو بين القديم والحديث، دار المعارف بمصر، (لا - ط)، (لا - ت).
- ٢٠ - خفاجة، محمد صقر: مقدمة في اللغة اللاتينية، دار النهضة العزبية، (لا - ط)، (ت - ١٩٦٦ هـ / ١٣٨٦ م).
- ٢١ - خير الدين، هاني: دراسة مقارنة في حروف الجر العربية والإنكليزية، منشورات جامعة القديس يوسف - فرع الآداب العربية (ت - ١٩٧٩ م / ١٣٩٩ هـ).
- ٢٢ - الذجني، فتحي عبد الفتاح: ظاهرة الشذوذ في النحو العربي، وكالة المطبوعات ٢٧، الكويت، (ط - ١)، (ت - ١٣٩٥ هـ / ١٩٧٤ م).
- ٢٣ - المؤلف نفسه: أبو الأسود الدؤلي ونشأة النحو العربي، وكالة المطبوعات، الكويت، (ط - ١)، (ت - ١٣٩٤ هـ / ١٩٧٤ م).
- ٢٤ - دمشقية، عفيف: أثر القراءات القرآنية في تطور الدرس النحوي، معهد الإنماء العربي، (ط - ١)، (ت - ١٩٧٨ م / ١٣٩٨ هـ).
- ٢٥ - الراجحي، عبده: التطبيق النحوي، دار النهضة العربية، بيروت - لبنان، (لا - ط)، (ت - ١٩٧٥ م / ١٣٩٤ هـ).
- ٢٦ - الرافعي، مصطفى صادق: تاريخ أداب العرب، تحقيق سعيد العريان، القاهرة، المكتبة التجارية الكبرى، (ت - ١٩٥٣ م / ١٣٩٦ هـ)، (م - ٣).
- ٢٧ - رفيدة، إبراهيم عبد الله: النحو وكتب التفسير، دار الجماهيرية للنشر، (ط - ٣)، (ت - ١٣٩٩ هـ / ١٩٩٠ م).

- ٢٨ - الزركلي، خير الدين: الأعلام، دار العلم للملايين، (ط - ٣)، (ت - ٢)، (م - ٨)، (١٤٠٩ هـ / ١٩٨٩ م).
- ٢٩ - ريدان، جرجي: تاريخ آداب اللغة العربية، منشورات مكتبة الحياة، بيروت، (لا - ط)، (ت - ١٤٠٣ هـ / ١٩٨٣ م)، (م - ٢).
- ٣٠ - السامرائي، إبراهيم: مباحث لغوية، منشورات مكتبة الأندلس، بغداد (لا - ط)، (ت - ١٣٩١ هـ / ١٩٧٢ م).
- ٣١ - السعران، محمد: علم اللغة، دار المعارف، القاهرة، (ت - ١٩٦٢ م / ١٣٨٢ هـ).
- ٣٢ - السلماني، عبد الحميد: مصادر اللغة، منشورات المنشأة العامة للنشر والتوزيع - طرابلس، ليبيا، (ط - ٢)، (ت - ١٣٩١ هـ / ١٩٨٢ م).
- ٣٣ - شامي، أحمد: معجم حروف المعاني، مؤسسة عز الدين - لبنان، (ط - ١)، (ت - ١٩٩٢ م / ١٤١٣ هـ).
- ٣٤ - شاهين، عبد الصبور: في التطور اللغوي، منشورات مكتبة الشباب، (لا - ط)، (ت - ١٩٩٠ م / ١٤١١ هـ).
- ٣٥ - ضيف، شوقي: المدارس النحوية، دار المعارف بمصر، (ط - ٢)، (ت - ٣٥)، (م - ١٣٨٨ هـ / ١٩٦٨ م).
- ٣٦ - المؤلف نفسه: تجديد النحو، دار المعارف، القاهرة، (ط - ٢)، (ت - ٣٦)، (م - ١٤٠٢ هـ / ١٩٨٢ م).
- ٣٧ - شعبان، زكي الدين: أصول الفقه الإسلامي، مطبعة دار التأليف - مصر، (لا - ط)، (ت - ١٩٦٤ م / ١٣٨٤ هـ).
- ٣٨ - الطنطاوي، الشيخ محمد: نشأة النحو وتاريخ أشهر النحاة، دار المعارف بمصر، (ط - ٥)، (ت - ١٣٩٣ هـ / ١٩٧٣ م).
- ٣٩ - عبد الباقي، محمد: المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم، دار الفكر للطباعة والنشر، بيروت (لا - ط)، (ت - ١٤٠٧ هـ / ١٩٨٧ م).
- ٤٠ - العبيدي، شعبان عوض: النحو العربي ومناهج التأليف، منشورات جامعة قاريونس - ليبيا (لا - ط)، (ت - ١٩٨٩ م / ١٤١٠ هـ).
- ٤١ - عمر، أحمد مختار: البحث اللغوي عند العرب، عالم الكتب، القاهرة، (ط - ٤)، (ت - ١٤٠٢ هـ / ١٩٨٢ م).

- ٤٢ - العمشاوي، محمد زكي: الأدب وقيم الحياة المعاصرة، الهيئة المصرية العامة للكتاب، فرع الإسكندرية، (ط - ٢)، (لا - ت).
- ٤٣ - عون، حسن: دراسات في اللغة والنحو، القاهرة، معهد البحوث والدراسات العربية، (ت - ١٩٧٠ م/ ١٣٩١ هـ).
- ٤٤ - عيد، محمد: أصول النحو العربي في نظر النخا، عالم الكتب، القاهرة، (لا - ط)، (ت - ١٩٧٨ م/ ١٣٩٨ هـ).
- ٤٥ - المؤلف نفسه: قضايا معاصرة في الدراسات اللغوية والأدبية، عالم الكتب (لا - ط)، (ت - ١٤١٠ هـ/ ١٩٨٩ م).
- ٤٦ - غبريال، فولس مشترك مع كميل أفرام البستانى في تأليف كتاب (اللغة السريانية) المذكور آنفاً.
- ٤٧ - الغلايني، مصطفى: جامع الدروس العربية، المكتبة العصرية للطباعة والنشر، صيدا - بيروت، (ط - ٢)، (ت - ١٤٠١ هـ/ ١٩٨٠ م). (ثلاثة أجزاء في مجلد واحد).
- ٤٨ - فندرис: اللغة، ترجمة محمد القصاص وعبد الحميد الدواхи، القاهرة، (لا - ط)، (ت - ١٩٥٠ م/ ١٣٧٠ هـ).
- ٤٩ - كحالة، عمر رضا: اللغة العربية وعلومها، منشورات مكتبة النسر بدمشق، دار المعلم العربي، (لا - ط)، (ت - ١٣٩١ هـ/ ١٩٧١ م).
- ٥٠ - المؤلف نفسه: معجم المؤلفين، منشورات مكتبة المتنبي، بيروت - دار إحياء التراث العربي (ت - ١٣٧٦ هـ/ ١٩٥٧ م)، (م - ١٥). ونسخة ثانية من منشورات المكتبة العربية - دمشق (ت - ١٩٦١ م/ ١٣٨٢ هـ). ونسخة ثالثة من منشورات مطبعة الترقى، دمشق (لا - ط)، (ت - ١٣٨٠ هـ/ ١٩٦٠ م).
- ٥١ - مبارك، مازن: النحو العربي والعلة النحوية، نشأتها وتطورها، المكتبة الحديثة، (ط - ١)، (ت - ١٣٨٥ هـ/ ١٩٦٥ م).
- ٥٢ - المؤلف نفسه: الرمانى النحوى، مطبعة جامعة دمشق (ط - ١)، (ت - ١٣٨٣ هـ/ ١٩٦٣ م).
- ٥٣ - مذكر، إبراهيم: مجمع اللغة العربية في ثلاثة عواماً (١٩٣٢ م/ ١٣٥١ هـ - ١٩٦٢ م/ ١٣٨٢ هـ)، ماضيه وحاضرها، القاهرة، (لا - ط)، (ت - ١٣٨٣ هـ/ ١٩٦٤ م).

- ٥٤ - مراد، عبد الفتاح عبد المجيد: القرآن الكريم، مكتبة الجمهورية المصرية. نسخة ثانية من منشورات مكتبة دار الهلال، لبنان - بيروت، (لا - ط)، (لا - ت).
- ٥٥ - مطر، عبد العزيز: لحن العامة، دار الكتاب العربي، القاهرة، (لا - ط)، (ت - ١٣٨٦ هـ / ١٩٦٧ م).
- ٥٦ - مطلق، أليبر: الحركة اللغوية في الأندلس، المكتبة العصرية، صيدا، (ت - ١٣٨٧ هـ / ١٩٦٧ م).
- ٥٧ - مكرم، عبد العال سالم: القرآن الكريم وأثره في الدراسات النحوية، دار المعارف بمصر، (لا - ط)، (ت - ١٣٨٤ هـ / ١٩٦٥ م).
- ٥٨ - المؤلف نفسه: المدرسة النحوية في مصر والشام في القرنين السابع والثامن من الهجرة، دار الشروق، (ط - ١)، (ت - ١٩٨٠ م / ١٤٠٠ هـ).
- ٥٩ - نور الدين، عصام: ابن هشام الأنباري، الشركة العالمية للكتاب، مكتبة العدرسة، دار الكتاب العالمي، (ط - ١)، (ت - ١٩٨٩ م / ١٤٠٠ هـ).
- ٦٠ - المؤلف نفسه: علم وظائف الأصوات اللغوية، دار الفكر اللبناني، بيروت، (ط - ١)، (ت - ١٩٩٢ م / ١٤١٣ هـ).
- ٦١ - وجدي، محمد فريد: دائرة معارف القرن العشرين، دار المعرفة، بيروت، لبنان، (ط - ٣)، (لا - ت)، (م - ١٠).
- ٦٢ - يعقوب، إميل: المعاجم اللغوية، بدايتها وتطورها، دار العلم للملائين، بيروت - لبنان، (ط - ١)، (ت - ١٩٨١ م / ١٤٠١ هـ).

المجلات

- ١ - مجلة آخر ساعة، عدد ١٦٢٢، تاريخ ١٤١٠ / ١٣٨٧ / ١٩٦٧ هـ .
- ٢ - مجلة دراسات عربية، العدد (٥)، السنة الرابعة والعشرون، آذار ١٩٨٨ ، شعبان ١٤٠٩ هـ .
- ٣ - مجلة العربي، العدد ١٠٦ .
- ٤ - مجلة الغدير، العدد الثاني، ربيع الأول، ١٤٠١ هـ ، كانون الثاني ١٩٨١ م .
- ٥ - مجلة كلية الآداب، جامعة القاهرة، المجلد العاشر .
- ٦ - مجلة المعاجم، المجلد الثاني، العدد الخامس عشر، شعبان - ذو الحجة، آذار - حزيران ١٩٩٢ م / ١٤١٣ هـ .
- ٧ - مجلة المنطق، العدد الثامن والسبعين والتاسع والسبعين .

ثالثاً - المراجع الأجنبية :

- 1 - Blachère: Grammaire de L'arabe
المكتبة الشرقية - بيروت.
- 2 - Henri Fleish: Traité de Philologie Arabe
دار المشرق - لبنان - المكتبة الشرقية.
- 3 - B' Curme, George: A Grammar Of The English Language, Boston: D. C., Heath & CO., 1931.
- 4 - Francis, Nelson W : The Structure Of American English, New York, The Romld Press Co., 1958.
- 5 - Pries Charles: American English Grammar, New York. Century Co., 1940.
- 6 - Jespreson: Otto, Philosophy Of Grammar, New York, Henry Holt & Co., 1933.
Strangg, Barbara: Modern English Structure, William Clowes & Sons Ltd., 1963.

الفهرس

٥	المقدمة
الباب الأول	
٧	ال نحو العربي وقضاياها
٩	الفصل الأول: حقيقة النحو العربي وعوامل انبعاثه
٩	تمهيد:
٩	ماهية النحو وسبب تسميته:
٣٩	الفصل الثاني: أصالة النحو العربي
٣٩	تمهيد:
٣٩	أصل النحو العربي:
٤٩	الإمام علي عليه السلام مؤسس النحو العربي
٦٤	أول ما وضع من النحو:
الباب الثاني	
٦٧	مراحل تطور النحو العربي
٦٩	الفصل الأول: تطور النحو العربي في المرحلتين الأولى والثانية
٦٩	تمهيد:
٧١	مرحلة الوضع والتأسيس:
٧٨	مرحلة النشوء والنمو:
٨٠	أسباب نشاط البصريين والكتوبيين في المرحلة الثانية:
٨٣	مشاهير علماء البصرة والكوفة في المرحلة الثانية:
٨٦	تبنيه أصول نظرية العوامل:
٨٦	علاماً اعتمد الخليل في تأصيله القواعد النحوية؟

88	يونس بن حبيب:
89	سيبويه:
90	الأخفش الأوسط^(١):
98	دور الكوفيين في تطوير النحو في المرحلة الثانية:
105	تطور النحو الكوفي بعد الكساني:
109	تغير المصطلحات النحوية وتبدلها عند الفراء:
121	الفصل الثاني: تطور التّحُور العَرَبِي في المراحلتين الثالثة والرابعة
121	تمهيد:
132	نشاط مشاهير الكوفيين في المرحلة الثالثة
137	أثر المناظرات في تطور النحو في المرحلة الثالثة:
140	المرحلة الرابعة:
140	تمهيد:
142	أصحاب الاتجاه الثاني:
151	أشهر المدارس النحوية من مسائل الخلاف بين البصريين والكوفيين
153	تمهيد:
153	المدرسة البصرية:
58	المدرسة الكوفية
163	المدرسة البغدادية
173	الخاتمة
177	قائمة المصادر والمراجع
177	أولاً - المصادر العربية:
184	ثانياً: المراجع العربية
188	المجلات
189	ثالثاً - المراجع الأجنبية:



النحو العربي

قضايا ومراحل تطوره

يجلو هذا الكتاب حقيقة النحو العربي بصورة أوضح وأدق ،
ويعيد النظر ، من جديد ، في قضاياه ، ويجري دراسة بينة واضحة
لتطوره ، ذلك أن التطور الذي واكب هذا العلم منذ ظهوره
وابنائه ، حتى بلوغه المستوى الراقي من التقنيين والتعمق ، لم يفه
الدراسون والباحثون حقه من الإبانة والوضوح ، وإن البحث في
القضايا المتعلقة به من انبعاث ونشأة ، ووضع وتأسيس ، وأصالة ،
كان ي جانب الدقة والتعمق ، ويبتعد عن الواقع والحقيقة ، ما دفعنا
إلى معالجة هذا الموضوع ، لعلنا نتمكن من بلوغ الهدف الذي
بادرنا من أجله ، إلى وضع هذا المؤلف ، مستلهمين العون
وال توفيق من رب العالمين .

د. أحمد شامي

